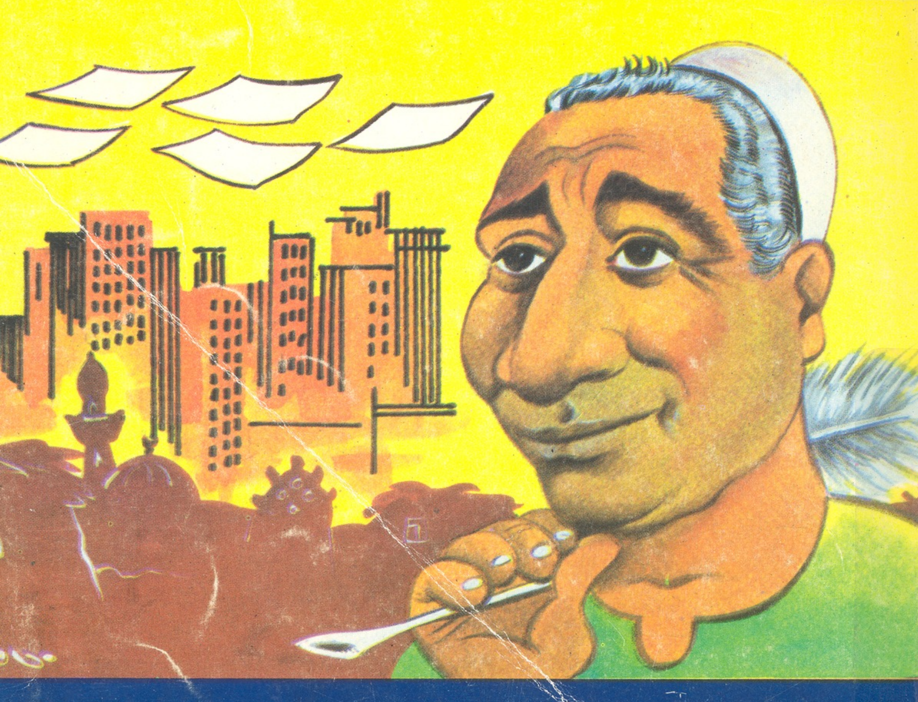
كتاب أكتوبر

فلاح في بلاط صاحبة الجلالة



إبراهيم الورداني

كتاب أكتوبر



إبراهيم الورداني



دار المعارف

ملحوظة لقارئ هذه الصفحات :
لن تقرأ رواية تقليدية بل
سيرة من سنوات حياة مصرية
المؤلف

الغلاف بريشة الفنان : محمود مصطفى

دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

سطور قبل الكتاب

بسبب هذه السطور التى طلب منى الأستاذ ابراهيم الوردانى أن أكتبها فى مقدمة كتابه ، تعطل صدور « فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة » ، وبقى منتظرا عدة أسابيع فى ماكينات وآلات الطباعة .

ذلك أن ابراهيم الوردانى بالنسبة لجيلى بصورة عامة ، وبالنسبة لى بصورة خاصة ليس مجرد كاتب عادى حتى يمكن أن أكون أنا الذى أكتب مقدمة كتاب له .. فإبراهيم الوردانى هو أول مدرسة تعلمت فيها معنى الكتابة وسحر الألفاظ وعطر الكلمات وجمال الحروف والتعبيرات .. وبسبب ابراهيم الوردانى تغير بالتأكيد تاريخ حياتى وعرفت عشق الكلمة وغرام القلم وعذاب المهنة التى لم أعرف غيرها منذ كنت فى الثالثة عشرة ..

فى هذه السن الصغيرة كانت قراءاتى مجرد قشور لا تتجاوز حدود جريدة اسمها البعكوكة - أشهر المجلات الكوميدية فى سنوات الأربعينات - وبعض روايات الجيب ، ومغامرات السندبادين الشهيرين البحرى والبرى .. قراءات كلها من نوع قزقزة اللب لمجرد التسلية وشغل أى وقت فراغ وليس لى عليها طول بال ، فأى دعوة من أحد أصدقاء شلة المجموعة فى شارع الأمير بشبرا حيث كان سكنى فى ذلك الوقت كان يجعلنى القى بأى كتاب أو صحيفة وأجرى جريا إلى الشارع .

إلى أن حدث والتقيت به .. بابراهيم الوردانى .

ورغم بعاد السنين وتتابع الأحداث وزحف الشعر الأبيض على الرأس التى كان يلمع لونها بالسواد ، فلازلت أذكر جيدا كل تفاصيل هذا اللقاء ..

أذكر جيدًا أن اليوم كان الأربعاء أول أكتوبر ١٩٤٧ وأن الساعة كانت تقترب من الحادية عشرة صباحًا وهو موعد اجتماع ولقاء شلة واصدقاء الشارع .. أهم موعد كنا نحرص عليه جميعا رغم تفاهة أو هيافة ما كنا نمارسه معا من ألعاب مشتركة ولكنها بالنسبة لنا ولتفكيرنا كانت أهم من اجتماعات مجلس الأمن والذى كنا فى عرفنا عنه لأول مرة فى ذلك الوقت عندما خرجنا نشترك فى مظاهرات الاستقبال التى ملأت كل القاهرة احتفالا بعودة محمود فهمى النقراشى ورئيس الوزراء قادما من الخارج حيث وقف فى مجلس الأمن وقال للانجليز وبأعلى صوت : اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة .. !

يوم الأربعاء أول أكتوبر ٤٧ أعود إليه ، فما أكثر التواريخ والأيام والسنوات التى نسيتها ، ولكن هذا اليوم ، وهذه السنة .. وهذه الساعة أبدا أبدا لا يمكن أن تتوه فى زحام الأحداث ..

كان أمامى على كل حال خمس دقائق باقية على اجتماع « الشلة » فى الشارع ، وكنت تقريبا فى طريقى إلى باب الخروج عندما اصطدمت قدمى بورقة صحيفة كان واضحا أنها بقية باقية من جرنال اسمه « النداء » فرشناه على مائدة الفطور وألقى به أخى قبل أن يغادر الشقة ويتركنى وحيدا ..

انحنيت ألتقط الصفحة عندما لفت نظرى عنوان لازالت حروفه تطل أمامى حتى اليوم :

ليالى القاهرة ..

بيد اللامبالاة فردت الصفحة وأوشكت أن أمر عليها مرورا سريعا

ولكن شيئا غريبا جذبنى اليها .. منذ أول فقرة قرأتها بدأت أحس أننى أنفصل تماما عن كل هذا العالم الذى حولى .. لم أشعر بنفسى وأنا أجلس القرفصاء فوق الأرض وعيناى جاحظتان معلقتان على سطور الصفحة الكبيرة وكل مداركى بعيدا بعيدا مع هذا العالم الغريب الذى أخذنى اليه كاتب القصة ..

هل مضى وقت طويل علىّ قبل أن أنتهى من قراءة القصة ؟
لا أذكر ..

كل الذى أذكره أننى نسيت تماما موعد الشلة وجلست مبهورا أعيد قراءة القصة الطويلة مرتين أو ثلاث مرات ثم أنظر إلى اسم كاتبها مرة واثنتين وثلاثا .. ثم بعد تنهيدة عميقة وجدت نفسى أقول بصوت عال .. صوت لازلت أسمعه حتى اليوم : يا سلام .. الكتابة دى جميلة قوى ..

لأول مرة عرفت فى هذه اللحظة معنى الكتابة وقيمة القلم وعظمة كاتب له قلم يستطيع أن يكتب به ما يجذب اهتمام واحد مثلى وينسيه مواعيده وألعابه وكل مشغولياته ويبقيه مسمرا مجمدا أمام كلمات هذا الكتاب .

استولى علىّ شعور عظيم بأن هذه هى أعظم مهنة فى الوجود يمكن أن يقوم بها انسان .. مهنة أن يتمكن كاتب من سحب قارئه بعيدا عن كل مشاغله وأفكاره وناسه ويجلسه أمامه ويملى عليه بمختلف المشاعر من آلام وآمال وأحزان وأفراح كل ما يريد أن يقول دون أن يترك لهذا الجالس أمامه فرصة حتى أن يتلفت يمينا أو يسارا ..

ما أجمل الكتابة .. بل ما أجمل أن أكون كاتبا ..

وفى هذه اللحظة .. فى هذه الساعة .. فى هذا اليوم .. قررت أن أكون كاتبا ..

وبعد أسبوع تقريبا .. فى يوم الجمعة ١٠ أكتوبر كنت رئيس تحرير

أول مجلة اصدرتها واسمها « الحقائق » .. مجلة منزلية من صفحات وأوراق الكراريس أقوم أنا بكتابتها وقراءاتها ..

ومن هذه المجلة الخاصة جدا جدا عرفت شيئا بالغ الأهمية .. عرفت أنني لكي أكتب يجب أولا أن أقرأ .. وبدأت أطوف سور الأزبكية وباعة الصحف وأشهرها بائع عجوز فى العتبة بحثا عن كل قصص كاتب « ليالى القاهرة » ابراهيم الوردانى .

كنت قد عرفت أنه كان يكتب فى مسامرات الجيب فاخذت ابحث عن كل الاعداد القديمة التى كان يكتب فيها ..

وتتبعته فى مجلة الاثنين والمصور وبعض الأعداد الخاصة من مجلة الهلال التى كان يكتب فيها ..

كل قصصه قرأتها .. إلى أن صدر له كتاب اسمه « نحن بشر » كانت فرحتى به بالغة .. ولم انتظر حتى أعود إلى البيت لأقرأه بل اختفيت وحدى فى حوش مدرسة التوفيقية تحت ظلال شجرة لا أريد الدخول إلى الفصل قبل أن أنتهى من قراءة الكتاب ..

كانت دنيا جديدة فتحها لى ابراهيم الوردانى باسلوبه الفريد الذى راح يغزو به صفحات ومجلات الأربعينات وهو خلالها فارس القمة فى كتابة القصة ..

اسلوب تحس بأن لكلماته نوعية خاصة فى التحول إلى عطر يتسلل إلى داخلك وينعشها اثارة واهتماما واعجابا ..

وكان قد بدأ فى هذا الوقت يجمع بين قوة الأسلوب ورشاقة التعبيرات ودقة وصف الشخصيات وحبكة النهاية حتى تكون المفاجأة التى تجعل القارئ يقفز من كرسيه اعجابا وانتعاشا .

ومنذ قرأت لابراهيم الوردانى عرفت معنى القراءة والكتابة معا ..

ومن مدرسة الوردانى دخلت مدارس أخرى لعدد آخر من أصحاب الأقلام ، لكن ابراهيم الوردانى ظل فى داخلى له مكانته الخاصة التى

لا يمكننى أن أنساها بل لعلى بعد كل هذه السنوات أسأل نفسى : هل كان يمكن لو لم أقرأ للوردانى فى بداية حياتى أن أعشق القراءة والكتابة هذا العشق الذى كان كل حياتى ؟ ..

أغرب ما فى الاجابة عن هذا السؤال أن ابراهيم الوردانى الذى كان أول كاتب قرأت له ، كان آخر كاتب عرفته كشخص عندما انتميت إلى هذه المهنة العظيمة وبدأت اعايش عن قرب كل الأسماء اللامعة والنجوم الساطعة فى سمائها ..

فلاح ..

فلاح بكل طيبة قلب الفلاح وقناعته وفرحته بحصاد الموسم يكفيه إيراده لكل العام ..

فلاح له جذور عديدة تمتد إلى أعماق القرية وأعماق تاريخ مينا وخوفو ورمسيس وكل الفراعنة الذين كانوا يسيرون شامخى الرأس تحف بهم وتحيطهم الرعية ..

فلاح له كل مواصفات الفلاح المصرى من طيبة وعناد وبساطة وقوة ، وقناعة بالقليل ، وتمسك بكل ما يؤمن به لايمكن أن يتنازل أو يتخلى عنه مهما كانت المتاعب أو الأهوال .

ولهذا ليس غريبا أن يكون عنوانه لهذا الكتاب هو « فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة » .

إنه ليس كتابا فى التاريخ ، ولكنه حافل بصفحات وأسرار التاريخ .

ليس كتابا فى السياسة ، ولكنك تعيش فيه السياسة .

ليس كتابا فى الوطنية ولكنك تتعلم منه الوطنية .

إنه مجموعة صور من سنوات الأربعينات .

هذه السنوات التى فى رحم أحداثها نمت بذور الثورة التى غيرت وجه مصر ..

وفى كتابات إبراهيم الوردانى خلال هذه السنين تعلم كثيرون جمال وحلاوة الكتابة ..

ولكن هاهى الأيام تجرى والتلميذ يقدم كتاب الأستاذ ..

تفضل يا أستاذ ..

يا ناظر أول مدرسة تعلمت فيها كيف أمسك القلم ..

صلاح منتصـــــر

« البنسيون »

القاهرة - ١٩٤١

انتقلت من « حارة خليل على بشبرا » إلى « بنسيون فيوليت بشارع الفجالة » .. غرفة فسيحة ، ذات ستائر ، وسرير نحاسى لامع ، ودولاب كبير شامخ ، ونجفة فى السقف ، وسجادة على الأرض ، ومقاعد كثيرة وثيرة ، ومائدة رخامية براقة - أفرغت عليها كتبى وأوراقى وأقلامى فورا - فهنا حقا تحلو الكتابة !

حوائجى كلها حقيبة من الكرتون الغليظ البالى ، بها ثياب محدودة جدا . شبشب وفرشة ومشط ، وبدلة واحدة مكحوتة هى التى ألبسها ، وقفص كبير من الجريد مشحون بالكتب والمجلات وكتل الأوراق المكتوبة - ما أشد خجلى من شكله الريفى ولكنه أهم ما عندى !

صاحبة البنسيون شامية طيبة فى الخمسين تقريبا ، اسمها « مدام آدمة » . ولأن هناك توصية فقد خفضت ايجار الحجرة الشهرى من ١٥٠ قرشا إلى ١٢٠ قرشا ! دفعت ايجار أول شهر فورا - وقبل أن أفكر فى أى شىء أو أرتب أى شىء تحركت خارجا فأمامى مهمة عاجلة لابد أن أتمها قبل أن استريح وأستقر فى مأواى الجديد الرائع هذا ! .. أحصيت النقود الباقية فى جيبى وهى ثلاثة جنيهات وخمسة عشر قرشا .. نعم وبوسعى أن أؤدى المهمة كاملة حتى لو صرفتها

كلها .. خرجت .. أغلقت الباب بهدوء .. أحاذر أن يرانى أحد ببدلتى الزرية وحذائى الهالك !

....

اليوم أول الشهر ، وقد قبضت أول مرتب كامل لى من عملى الجديد .. تسعة جنيهات وربع جنيه . وأول شيء فعلته أن سددت ديونى ، وهاهو ايجار البنسيون مدفوع ، وأمامى الآن أن أدفع جنيها – آخر قسط من الثلاثة جنيهات – لأستلم بدلتى الجديدة « قماش وتفصيل » من عند « الحاج جلال الترزى » فى آخر شارع الفجالة .. ولابد من حذاء جديد طبعا ، وثمنه لا يقل عن أربعين قرشا . ثم القميص ، بل لابد من قميصين وربما الواحد بـ ٢٥ أو ٣٠ قرشا . ثم الكرافته ، وقد رأيتها فى الفترينة بثلاثة قروش . ومناديل جيب بقرش صاغ الواحد ، ثم ماكينة حلاقة وفرشة وأمواس بخمسة تعريفة ، وفوطة طبعا ولابد !

تحركت فى شارع الفجالة نحو « عم جلال » . الشارع كله بارات ، وخمارات ، ودكاكين مكدسة ، وله لمعة شارع قاهرى هام ! .. مسكن الفجالة ترقية طبقية لى ، فأنا لم أقترب من قلب البلد أبدا .. لم أسكن فى غير أطراف وأحراش « شبرا » و « جزيرة بدران » .. منذ جئت من القرية ، ابتدائى فى شبرا ، وثانوى فى شبرا ، وشيكولانى ، وشارع مسرة ، والترعة البولاقية ، وكنيسة الراهبات .. القاهرة مخيفة ومزمجرة فهى فى حالة حرب « حرب هتلر وموسولينى » .. مخيفة وصاخبة تتلاطم مع مليون عسكرى مسعور ومخمور يأخذون أيام الاجازات قبل الموت .. انجليز ، وأمريكان ، وأتراك ، وسنغال .. فوانيس زرقاء ، وطرابيش حمراء ، ونساء ليل نشيطات ، وموسيقى وحشية . ففى كل ركن كباريه .. سكارى يتطوحون ويتعاركون .. مصفحات ودبابات وصفارات انذار .. البنات المجندات ووقدة

خدودهن .. تكنات قصر النيل والوجوه والأبدان الحمراء العارية تملأ النوافذ .. العمارات كلها مشحونة بسكان من لندن وباريس وقبرص ومالطة واستراليا وجنوب افريقيا !

القاهرة ومن ورائها الريف اليتيم ، منكمشة على نفسها تتفاعل مع التغير فى صمت وبلا إرادة .. مجرد حملقة مندهشة وراء الحرب وجنود الحرب وأسرى الحرب ومخازن الحرب .. ليست هناك من أحداث هامة إلا « مجموعة الملك » وقد بدأت تظهر مغامراته .. ومجموعة الأمراء والبشوات والبكوات . والآلهة عبود وبدراوى وسلطان وململوم والباسل واندراوس .. لكل واحد قصر وضيعة وعبيد .. الفقر والحرمان والضياع - ورغم فلوس الحرب - ينحر مصر ويفتك بكرامتها .. المدارس ضنينة ، والمستشفيات نادرة ، وزجاجة اللمبة لاتجدها ، وإبرة وابور الجاز واختفاؤها يحدث أزمة .. الناس مشغولون وراء هتلر وتشرشل وروزفلت .. « سينما ديانا » والسلام الانجليزى يقف له الجميع ، والافلام كلها عن الحرب .. وزجاجات البيرة ، والكونياك ، والويسكى ، ولفافات الحشيش .. « الصحافة » فى كل دار رقيب عسكرى انجليزى يشطب الخارجيات ورقيب مصرى يشطب الداخليات . « الأهرام » كالعادة فى القمة .. « المصرى » من ورائه ينمو .. و « المقطم » بعد الظهر ، و « البلاغ » و « الجهاد » و « صوت الأمة » و « كوكب الشرق » .. حافظ عوض ، وتوفيق دياب ، ومكرم عبيد ، وكريم ثابت ، وأبو الفتح ، والهلالى ، مجلات اسبوعية بالعشرات ومعظمها يعيش على المصاريف السرية من وزارة الداخلية .. « رخا » يرسم عشر مجلات كل اسبوع .. « التابعى » وهج هائل ، و « الصاوى » نجم الاحلام ، و « توفيق الحكيم » يكتب حواراته مع الحمير .. « العقاد » متفرغ لشتيمة هتلر وتحليل تشرشل .. « طه حسين » يترجم اليونانيات والباريسيهات ..

و« المازنى » يتلطم بين المجلات .. « ناجى » و « زكى مبارك » يسكران على نواصى الحانات ! .. « أفلام الحرب » بشارة واكيم ومزراحى ، والمعلم بحبح ، وأم أحمد ، والكسار ، والريحانى ، ويوسف وهبى !.. كباريه وكوبرى « بديعة » ! .. « ببا » فى الكيتكات .. موجة أحلام مع أفلام عبد الوهاب ومحمد كريم ! .. المجلات وأهم أبوابها « الهايلايف » و « الطبقة الراقية » و « أولاد وبنات الذوات » و « الناس مقامات »! .. و « اسمهان » باعت قبلة بمائة جنيه فى حفلة خيرية ، و « شعراوى » خسر أمس خمسة آلاف جنيه فى البوكر ، و « عبود » اشترى يختا بمليون جنيه ، و« الملكة نازلى » « تصطاد الفحول فى الليل بجوار عوامة الجزيرة » ! المقاهى ، المقاهى ، فى القاهرة كثيرة كثيرة ، فالعاطلون والمتسكعون هم معظم المواطنين .. المدارس بمصاريف فمن يريد أن يتعلم .. الجامعة ورغم ندرة خريجيها إلا أن تسعة أعشارهم لايجدون وظائف .. بعضهم يحمل صندوق مسح الأحذية وشهادة الليسانس أو البكالوريوس معلقة فوق ظهره ! .. الفهلوة ولعبة الثلاث ورقات وخطف الرزق هى هواية « ابن البلد » وعلى طول الليل والنهار .. الفلاحون فى الوحل والنشع والتراب .. ركود واستسلام ماذا يفعلون .. لا توجد نقود أو أجور أو ركوبة .. الجزمة أو البلغة شىء نادر .. زبدة الريف كلها تسافر إلى حفنة الأمراء والباشاوات والخواجات والملايين تسف التراب ! .. النقود فى الارياف غير موجودة بل غير معروفة .. السفر بالقطار محنة لأنه غال .. لايوجد اتوبيس ، بل لاتوجد طرق .. الحمار المسكين هو رائد عملية النقل على طول بلاد النيل لاسواه .. جهاد بعض الفلاحين يبدو أنه مظاهرة . كأنه اتفاق تمرد قبلى وبحرى على أن أولادهم يجب أن يدخلوا المدارس . يجب أن يواجهوا هذا الظلم . إنهم فى عناء الاستشهاد الحقيقى يهربون أولادهم خلسة إلى تختة التعليم .. يبيعون

الحصيرة والملاية والحلة بل ولحم الكتف لمن يشترى ليجدوا لهم المصاريف وتكاليف الإقامة .

....

اشتريت ولم أفاصل .. وعدت أحمل لفائف الأشياء كلها لأتسلل متواريا كى لا يلحظنى أحد . وأدير أكرة باب حجرتى وأدخل بطرف حذائى .. أغلق الباب وآخذ أنفاسى اخيرا فما أشد حاجتى للراحة .. وضعت اللفائف على الكنبة ، ثم خلعت الجاكتة ، وقذفتها بعيدا .. ثم استدرت أخلع بقية ثيابى . لأتلجم على منظر غريب ومفاجئ ! .. يافزعى ماهذا ؟

(فتاة) نائمة على سريرى وفى أعمق حالات النوم ! .. فتاة بيضاء ملفوفة حمراء شقراء ناصعة الظهر لامعة بطن الساق ! .. حملقت فيها برهة بلا إرادة ، ثم استدرت برأسى عنها فى حياء مذعور .. خجلت من وقفتى التى تجمدت عليها برهة بل لعنت نظراتى الوقحة . وياللعار أن أطيل النظر فى امرأة نائمة . اندفعت خارجا من الباب .. أغلقته من خلفى فى هدوء ، ووقفت بجواره حائرا مضطربا لا أدرى ماهذا وماذا أفعل .

....

لمحتنى مدام آدمة فى وقفتى فاستغربت واقتربت منى تسألنى ما الخبر ؟ .. وفى ارتباك شديد أشرت نحو الحجرة فإن فيها أناسا نائمين ! .. اندفعت تفتح الباب ودخلت .. بقيت فى وقفتى حائرا .. ثم بعد لحظات سمعت ضجة معركة .. أصوات صفعات وركلات ولعنات واستغاثات .. ثم فتاة السرير تهرول صائحة باكية ومن خلفها مدام آدمة مندلعة الغضب ، وفى يدها - ياللهول - شبشبى القديم الغليظ تنهال به على ماتطوله من لحم الفتاة الرقيق ! .. تواريت ، تواريت .. فقد تجمع نزلاء البنسيون على الضجة والصياح .. والظاهر انهم اعتادوا

على مثل هذا . فبعضهم ضحك وبعضهم سكت . وبعضهم تقدم ليخلص .. وياللدهشة ماأقسى النساء على النساء ! .. لأول مرة أرى جيرانى فى غرفات البنسيون .. عواجيز شوام ، وكهول أرمن ، وجريك ، ومصريين ، ونساء وبنات من مختلف الاعمار . دخلت وأغلقت الباب بالمفتاح .. استندت لاهثا بطريقة من مرق من لحظات تكهرب فيها الهواء .. أشحت بنظراتى عن منظر السرير .. بقايا نومة الفتاة مازالت ظاهرة على طيات المرتبة والمخدة . بل أنفاسها فائحة فى الحجرة وأحسن أن أفتح الشباك للهواء النقى .. تقدمت فتعثرت فى فردة شبشب « منتوفلى » مبطن بالقطيفة الخضراء وعليه نقشة ورود حمراء .. صغيرة وكأنه لأقدام الاطفال . لابد أنه للفتاة ، فقد لاحظتها تجرى حافية .. تحرجت أن أمسكه أو أحركه ، ولابد أن هناك فردة أخرى فأين ؟ .. بحثت حتى وجدتها مقذوفة تحت آخر السرير بلصق الحائط .. تركتها فى مكانها فماذا بوسعى أن أفعل ؟! .. أسمع خطوات ، وصوت مدام آدمة تكلم أحد الناس وطرقات على بابى .. أتقدم لأفتح وأنا أضم الجاكته على صدرى .. ياإلهى فالهواء الكهربائى يعود .. مدام آدمة تدفع الفتاة فى غلظة وقسوة كى تلتقط شبشبها ، والفتاة من عنف الدفعة تنطرح أرضا وتنظر فيما حولها مذعورة ومحتجة .. أشير لها نحو تحت السرير .. مدام آدمة مازالت تصخب وتشتم وتتوعد بينما ألوى رأسى بعيدا كى لاتقع عيناى على المنظر الزاحف التعيس للفتاة تحت السرير .. اتحاشى عورات العيب وقلة الرجولة .. ثم عندما جمعت الفردتين ولبستهما نفضت شعرها المبعثر وقفزت نحو الباب ، ولكنها توقفت لحظة لترمينى بنظرة نارية – سرت بالقشعريرة فى كل كيانى !

....

خرجت الفتاة ، وبقيت مدام آدمة ، بل جلست تحاول أن تقدم اعتذارا أو تفسيرا عما حدث من فعلة بنت أختها .. أن أمها وأخوتها

المهاجرات من مدينتهن الاسكندرية خرجوا وأغلقوا باب حجرتهم بالمفتاح والبنت كانت متعبة وتريد أن تنام فهى تسهر كل الليل ! .. مدام آدمة تتأوه وهى تلعن مصائب غارات هتلر على الاسكندرية تلك التى نزلت كلها على دماغها .. ثم رفعت وجهها نحوى - وكانت قد هدأت - فراعها ارتباكى وشكل وجهى الذى غطس تماما فى حمرة الحياء .. توقفت عن الكلام وسألتنى هل أنا مريض ؟ .. لا لا أبدا فقط أنا متعب ! .. وتلعثمت أمامها بما أريد أن أوضحه أو أقوله حتى تمكنت . ففهمت أخيرا أننى أنا الذى يريد أن يعتذر عن هذا الدخول المقتحم على آنسة نائمة فقد كان يجب أن أطرق الباب ! .. ظلت تحملق ذاهلة فى منظرى ، ثم تهدلت ملامحها فجأة الى مس من تأثر وعطف وأمومة ! .. المرأة متدينة ومتمرسة وتفهم أنواع الناس ، وقد اكتشفت نوعى فورا .. تلك الأغلفة الريفية ومهما تدارت .. الاخلاقية والمتعففة شديدة الرهافة والبراءة . بل لعلها بأنوثتها الثاقبة قد أدركت أننى - رغم طولى المفرط ورغم الواحد والعشرين عاما التى قيدتها عن عمرى فى دفتر البنسيون ، فلست أعرف عن جنس المرأة إلا مايبين اضطرارا من وجهها أو ذراعها أو ساقها .. أعطتنى نظرة أمومة محرومة شاردة .. إنها .. بلا أولاد .. ثم وقفت ووضعت ذراعها على كتفى فى رقة وحنو . وابتسمت وفركت شعرى المشعث بيدها فكم تحب الناعم المجعد .. ثم استنكرت أن أعتذر . تعتذر لمن ؟ .. وعن ماذا ؟ فإنها هى هذه الحمقاء اللعينة التى يجب ان تكفر عن فعلتها وتبوس القدم !

شجعتنى المرأة الطيبة ان أخرج من حيائى وأتبسط معها . ثم هللت فى مرح وابتهاج عندما رأت لفائف المشتريات الجديدة ، وراحت تفك أربطتها استعدادا لترتيبها وتعليقها .. ثم تحمست تمتدحها وتطرى ذوقى فى ألوان الكرافتة . وأيضا البدلة الكحلية فكأنها لأمير .. ثم

اتجهت تفتح الدولاب وتحرك الشماعات ، وعندما اقتربت من قفص الجريد لترتبه أيضا . قفزت أقف أمامها شاكرا ومستعطفا أن تتركنى أرتب بقية الحوائج بنفسى .. ضحكت فى طيبة . وعندما همت بالخروج وجدت نفسى أستوقفها ، وقد روعنى فجأة ماخطر على بالى من أنها قد تحضر الفتاة لتبوس القدم كما قالت .. كدت أتوسل اليها ألا تفعل ذلك ولكننى تراجعت - وتمتمت بأى كلام - ثم ودعتها وأغلقت الباب .

....

أغلقت الباب من خلفها .. نعم تراجعت فجأة ، فما هذا التخاذل الذى أنا فيه ؟ .. حتى متى هذا الحياء من جنس النساء ؟ ، بل ما هذا الحياء من كل أهل تلك المدينة الصاخبة بينما طموحى الراقد فى أوراق هذا القفص يقول أو يدعى بأنه يجهز نفسه لوثبة اقتحام الأسوار الغليظة لتلك المدينة وأناس تلك المدينة .

استرددت نفسى ، وبدأت أنزع هذا القديم عن بدنى . وفجأة - وقد خلعت فردة البنطلون - دق الباب .. يا إلهى .. ربما هى الفتاة جاءوا بها لتعتذر .. متى تنتهى تلك الكهربائية ؟ .. لا لن افتح .. ومع تصميم الطرق ارتفع صوت مدام آدمة ينادينى باسمى . استعدت فردة البنطلون سريعا ، وضممت الجاكتة بعصبية مزقتها من عند الكوع . وفتحت الباب مواربا فلاداعى لتعب الدخول .. مدام آدمة تحمل كوبا من الليمون وفيه ثلج وتقدمه لى فهو على حسابها . ثم تستحثنى أن أسرع جريا الى الحمام - قبل أن يلحقه سواى - فقد أعدت لى الماء الساخن والليفة والصابونة والفوطة .. حمام ساخن ؟! .. لقد تصورتنى عندما استوقفتها اننى خجلت أن أطلب منها أن استحم ، فلابد من ذلك قبل استعمال الجديد طبعا ! .. ثم همست - كمن أصبحت حظوة بنوية خاصة عندها - بأننى سوف أجد زجاجة الكولونيا على طرف

البانيو .. كولونيا ؟ .. حمام ؟ .. ماء ساخن ؟ .. كم سوف ترهقنى مدام آدمة هذه .. آه يا قاهرة بنسيون فيوليت كيف أجارى طباعك وتقاليدك ؟ .

....

أخذت حماما رائعا وجريئا .. وفى صراع شديد مع النفس اقنعت نفسى ألا مانع من قطرات خفيفة من تلك الكولونيا - التى هى من هوية النساء فقط .. عدت إلى غرفتى فى قفزات واسعة والفوطة تغطى رأسى ووجهى .

أنعشنى الحمام وأبهجتنى الكولونيا وأحسست أننى بت قاهريا مرفها .. وبوسعى الآن أن أجرب هذا الجديد .. ارتديت القميص اللينو ، وربطت الكرافتة البراقة ، ثم دخلت فى البدلة الكحلى الزاهية - صوف انجليزى - والحذاء اللميع .. وأمام مرآة الدولاب الطويلة العريضة ، وقفت أتأمل ابن الفلاحين هاهو . وشكرا يا أبى المرحوم على ماقدرت .. ابن الفلاح الجلف ها هو يتحدى فما الفرق با أولاد الباشوات والبيكوات والبرنسات ؟ .. تمشيت أمام المرآة .. استدرت وتباهيت - يا ولد ماهذا .. فهل أنت من حاضرة الريفييرا أم من أرياف الجيزة ؟ .. تبخترت بأناقتى بعض الوقت أمام المرآة .. ثم أخذت جلستى المرفهة على المقعد العريض المريح أفكر فيما سوف أقرر وأدبر .

النزول الآن إلى قلب البلد واللياقة هاهى موجودة بل مغريه ، ولكن كيف ، ولماذا العجلة الآن وأنا متعب . كما أنه لم يعد فى جيبى لا ورقة من ذات العشرة قروش ؟ . التهمتنى الأناقة وقوضت جيبى لبقية الشهر .. ليست مأساة فلاتهمنى الفلوس ، وأبدا لم تذلنى الفلوس .. تتأخر أو تتلكأ ولكنها عندى دائما وفى آخر لحظة تأتى وتطرق الباب . نعم ورغم مشوار الفقر الماحق الرهيب لم تتلطم كرامتى أو تهان بسبب

قلة المال أو الفلوس .. ورقة العشرة قروش الكريمة تلك سوف تكفينى للعشاء سجق بالفينو ، والافطار فول مدمس بالبيض . وركوب الترام الأبيض للعباسية ذهابا وإيابا . وغدا له الله .. وثوقى دائما ومهما جنحت عنه خالق الكون فهو معى دائما فلماذا أرهق نفسى الآن فى أمور ليست من مهمتى ؟

....

المهم الآن وبعد أن جريت واطمأننت على هيئتى الجديدة . ان أجرب وأطمئن أيضا على حبيبتى مائدة الكتابة - الرخامية الشهية ناعمة الملمس - وشهوتى لها منذ رأيتها ولمستها - تتحرك وتتحرق وتفور .. بسطت الورق والقلم على سطحها البراق المريح . ويا إلهى كم أنا سعيد وممتن جدا لأنك اخترتنى كاتبا . ولكن كيف الطريق ؟ .. منذ الطفولة الذابلة والصبا القاحل فى حقول الغلابة والفلاحين والإشارة من ورائى أننى برعم نيئ . سوف يتفتح ويعبق ، فماذا غير التأمل والكتابة .. لا أعرف أى شيء الا التأمل والكتابة .. ومنذ سنوات انفردت بنفسى وفى خفية أتعلم وأتدرب على غوص النفس فى أعماق المعرفة .. بل تطاول النفس إلى مجهول المعرفة .. نحن بشر . ورحلة مثيرة مثابرة . وتوقع دائما شيئا جديدا تكتشفه .. قرأت وقرأت وقرأت حتى تشبعت وأتخمت وأرهقت . وتعال أيها الفلاح العبيط وارفع عنك هذا الغبيط وكفاية شحن .. وخذ هذا هو حقك المباح وجرب أن تلقى بذورك .. جرب أن تكتب بمثل ماقرأت .. ودخلت معبد الكتابة .. تفرغت للتوسل لأى جديد فى الفكر والكتابة .. تجارب تقية نقية منهكة مخلصة طويلة تأخذ الجلسة فى شرفة عصرها .. أكتب وأقارن بين مايقرأ أو ينشر .. بل تماديت فى مثابرة التجارب إلى درجة تقمص توقيعات العمالقة فى خدعات بيضاء . فعندى مثلا فى قاع هذا القفص الدميم . مسرحية من ثلاثة فصول ينقصها الرابع ، قلدت فيها « العظيم المبهر وليم شكسبير » بأرضياته وشخوصه .. وجلست فقرأتها

على عتاة من أصدقائى القارئين ، فصدقوا حقا إنها من تأليف شكسبير .. وهكذا تمكنت أخيرا فملكت شهادة الثقة بالنفس !

وظهر « عرفان » فراش البنسيون ليقول إن التليفون يطلبنى .. قمت مسرعا فلابد أنه صديقى الحميم « نجيب حلمى » فمن يعرف أننى فى البنسيون إلا هو الذى اختاره لى .. أشار عرفان نحو آخر الردهة الطويلة وفى منطقة يغمرها الظلام . وزرار النور على يمينك والتليفون مفتوح على الكومودينو .. لم أجد زرار النور – وهذا أحسن – ولكننى وجدت التليفون بسهولة – ولم يكن هناك أحد – فجلست مسترخيا على مقعد وتناولت السماعة .. إنه كما توقعت صديقى نجيب يريد أن يطمئن على أحوالى .

صديقى نجيب يستدرجنى فما رأيك فى مدام آدمة وبنسيون مدام آدمة ؟ .. مكان نظيف ومريح ولائق وكما كنت ترغب أليس كذلك ؟

حكيت له عن طيبة المرأة الودود وحزمها البالغ .. ثم فى همس يغمره التردد والحياء .

حكيت له عن واقعة البنت البضة الناصعة الشقراء التى فوجئت بها نائمة على سريرى تصور !!

وضجت الضحكات من نجيب فقد استحلى الحكاية وصمم أن يعرفها من أولها إلى آخرها .. وتحرجت أن أحكى ، كيف أقدر أن أحكى مثل تلك الاشياء ؟ .. ولكنه ألح واستحث حتى حكيت له كل شىء .. حتى عن الشبشب القديم اللعين وكيف هوى غليظا قاسيا على لحم الفتاة الغض .. حكيت وانطلقت وتهورت وضحكات نجيب الصاخبة تستدرجنى بالاستزادة .. وفجأة ظهر « عرفان » وأدهشه أن أجلس فى الظلام ، فأشعل الضوء .. وياها من مفاجأة اخرى صاعقة وضعت بعدها السماعة فورا وبلا كلام – وأنا أحملق فى المنظر الذى أمامى .. الفتاة ، فتاة الشبشب والسرير – كانت جالسة على مقعد

تتابع مكالمتى التليفونية ساخرة ومبتسمة .. ضبطت اغتباطها . تستمع ساخرة ومبتسمة وهى مرتدية ثيابها ، وحقيبتها بجوارها ، وعطرها فائح . ونظراتها مثبتة على منظرى المضطرب . ياللخجل .. يا للخجل .. لم أتمالك نفسى بصوت يسلخ نفسه من الحلق .

قلت - أنت سمعت ؟

قالت - أنت حكيت .

وازدادت حالتى تدهورا عندما ظهرت مدام آدمة فجأة ورأتنا نكلم بعضنا .. يا للهول فهل تقول لها ؟ .. وماذا بوسعها أن تقول لها ؟ .. الفتاة جريئة ولعوب . وبمثل مارأيتها سليطة البكاء والصياح فها هى أيضا أمامى الآن سليطة الابتسامة والسخرية والهزء .. ولكنها بمجرد أن رأت مدام آدمة ألقت نحوى نظرة غامزة مستخفة ، ثم التفتت نحو مدام آدمة تلوح لها وهى تفلت مسرعة نحو باب الخروج .

مدام آدمة ترانى لأول مرة فى هيئتى الجديدة .. هتفت تبدى إعجابها ، ثم أخذت وردة حمراء من « الفازة » وصممت أن ترشقها لى فى عروة الجاكتة .. لا لا يامدام آدمة فأنا لا أستعمل هذه الأشياء .. ولكنها صممت فأنا شاب ويجب أن أسعد الناس بمنظرى المزدان .. تحرجت أن أكسفها فاستسلمت لها وأنا أتساءل ، أليس شيئا عنيفا أن أجارى طباع هؤلاء الناس ؟ .

....

مدام آدمة صممت مرة أخرى أن أتناول فنجان قهوة معها .. وبدأت تسألنى عن عملى ووظيفتى ؟ .. ارتبكت ، فأنا لا أتصور ردا على هذا السؤال إلا أننى مؤلف وكاتب .. أخجل منذ زمان أن أجيب على أى سائل بغير أننى مؤلف وكاتب .. قلت لها بعد جهد أننى « كاتب » - والحقيقة فانا صادق إن وظيفتى الجديدة هى كاتب حقا ، ولكن فى قيودات المخازن !

تجرأت وأنا أتناول أول رشفة من فنجان القهوة .. أجرب شجاعتى

فأسألها عن عمل ابنة اختها هذه ؟ .. قالت إن « مسيو مترى » صاحب المطبعة العصرية وجارنا فى العمارة المقابلة توسط لها فاشتغلت « كاسييرة » فى « سينما فيمينا بشارع عماد الدين » بائعة تذاكر فى الشباك . وبوسعها أن تدخلك مجانا فى أية مرة .

قالت هذا ثم أخذت تحكى وتتأوه عن مصائب حرب هتلر ونكبات حرب هتلر .. أختها وبناتها المهاجرات من الاسكندرية .. كل بنسيونات الفجالة والسكاكينى وغمرة مكدسة بالمهاجرين المساكين من الاسكندرية فرارا من غارات القنابل التى لاتنقطع .. أرامل وأطفال ويتامى ياعينى فماذا يفعلون ؟ .. اختى المسكينة وقد صرعت القنابل ابنها الاكبر الذى كان يعول البنات وهدمت بيتهم ودمرت عفشهم . فأين الملجأ لهم غير بنسيون المنكوبة آدمة .

قلت : - ما اسمها ؟

قالت - من ؟ .. اختى

قلت - لا . اقصد .. اقصد ..

قالت - تقصد « مارى » ؟ . الشعنونة « مى » .. نحن نناديها باسم الدلع « ميى » .. فإن « مي زيادة » من عائلتنا ومن نسبنا .. المشهورة مى زيادة التى تكتب هل تعرفها ؟؟

« النحلة والرحيق »

القاهرة ٤١ و ٤٢ :

وتمضى الأيام فى بنسيون فيوليت .بالفجالة ..

صديقى « نجيب - ما أشد امتنانى له - أنقذ ضائقتى المالية ، بصفقة كتاب مخطوط قديم وهام ، مطلوب نقله لحساب « قسيس قبطى » يريد أن يقتنى نسخة منه قبل أن يعيده إلى مكتبة الدير . وضعه أمامى ، ومعه رزمة من الورق الابيض المتين ، ثم ورقة جديدة لامعة من ذات الخمسة جنيهات .. تلك الخمسة مقدما ، والخمسة الأخرى تنتظرنى بعد أن انتهى منه - والشرط أن أنتهى منه خلال أسبوع فما رأيك ؟

شكرته طبعا ، فالخمسة جنيهات تلك إنقاذ وبهجة .. لقد أديت له مثل تلك المهمات السهلة من قبل - مهمات نقل الكتب القديمة - وهو يعرف أنها تبهج نفسى بقدر ماتبهج جيبى .. أى شىء فيه ورق وقلم وكتابة يضعنى فورا على مقعد من الزهو والانتعاش .. الكتاب عن « الأديرة القديمة » وخط كاتبه القديم نبش مداد غليظ كمن كتبه بظفر الاصبع .. لابأس .. يستهوينى التأمل والحملقة فى أى قديم من تراث أو آثار حتى ولو كان بسيطا أو ساذجا .. هؤلاء المثابرون القدماء من مختلف العصور وأيضا هؤلاء المفكرون العظماء من مؤلفى الكتب ، أشعر

أن بيني وبينهم صلة رحم .. وأحس دائما أن بوسعي أن أستحضرهم فى أى وقت لأصنع وإياهم احتفالا عائليا خاصا .. ومهما افتتنت بهم وشهقت مشاعرى من وراء عصورهم فأنا لا أجرى مهرولا متحسرا من خلفهم بل أودعهم فى تأثر وإشفاق بعد أن حم قضاء الله وانقطع خيط الحياة من بين أيديهم .. إنهم سعاة بريد يوصلون الرسائل من عصر إلى عصر .. انصرفت عصورهم وانصرفوا معها فتوقفت رسائلهم .. أما أنا فأعيش عمرى الذى لم يروه ولم يجربوه ، ولى رسائلى التى لم تتوقف بعد . وياغرابة مايحكى هذه الايام عن « مخازن هتلر السرية » ، وكيف يوشك أن يولد فيها فى أى لحظة « صاروخ » يمكن أن ينطلق مزمجرا فيدمر قارة ، كما يمكن أيضا أن يمرح أيضا متنزها فيطبع قبلة على أرض القمر ويعود .

حياتى فى بنسيون الفجالة مازالت منكمشة وواجفة .. ادخل وأخرج كالمتسلل لا أختلط بأحد ولا أكلم أحدا .. ودخول « الحمام » محنة ، فدائما ترتطم عيناى بالنساء والبنات خارجات أو داخلات بقمصان النوم أو بأخف الرداء . فأرتد عائدا إلى حجرتى فى قهر وحيرة .. و« مى » هذه أو « مارى » كما عرفت اسمها .. بت أتحاشاها بل أخافها بل أوشك ان أقول أكرهها .. فقد وضح لى أنها عابثة ولعوب . لاتبالى حتى بخالتها أو أمها .. ولقد رأيتها عدة مرات من خلف شيش النافذة يوصلها عساكر انجليز وضباط انجليز .. وأحيانا أراها دون أن ترانى داخلة محملة بزجاجات بيرة وويسكى وعيش فينو وعلب شيكولاته ولفافات كثيرة وكله من « النافى » ! علاقتى بها تبادل استخفاف أو عدم استلطاف .. لا أكلمها ولاتكلمنى .. فذات مرة وكنت واقفا عند ركن التليفون وهى خارجة متعجلة ، وعندما رأتنى توقفت فى جرأة سهلة واستدارت تعطينى ظهرها المكشوف - تطلب منى كمن تأمر أو تمنح أن أساعدها فى غلق

« سوستة البلوزة » ! غضبت .. استنكرت .. أحسست إنها لاتحترم رجولتى .. فأشحت عنها ولويت ظهرى مبتعدا بعد أن رشقتها بنظرة ضيق واحتقار ، ولم آبه بطنين من تمتمتها المندهشة يصل إلى أذنى تسخر أو تحتج وتردد فيه كلمة فلاح وفلاحين ! . منذ ذاك الوقت أعطيتها منظر رجل لايراها .. لا أكلمها أو تكلمنى بل إنها باتت - عندما يتصادف وترانى - تقطع أى منظر للمرح أو الكلام كانت فيه ، وترمينى بنظرات غريبة حادة حارقة فيها مايشبه رغبة الصياح والبكاء .

« مدام آدمة » صاحبة البنسيون سافرت إلى بقايا أهلها فى - بر الشام - زيارة شهر أو شهرين !

أسلمت أمور ومسئولية البنسيون إلى أختها - مدام وديعة - التى هى أم « مارى » واسم الدلع « مى » وأخذت عليها العهود والمواثيق وأعطتها التوصيات والترتيبات وشددت على سمعة البنسيون ومختلف الشئون .

وعندما جاءت تودعنى ، ضمتنى إلى صدرها وقبلت كتفى ، وداعبتنى بعبارة غريبة - دوختنى كثيرا فيما بعد ! .. مالت على أذنى تجذبها وتقرصها تقول . معنى ماتقول .. خذ الحرص من الشعنونة المهبولة مارى وحاذر أن تقع فى حبها بمثل ما وقعت هى فى حبك .. إنها حفارة رجال - مثل جدتها الله يرحمها - وهى الآن فى لطشة التصميم على اكتشافك أيها المنجم الخبىء .

الحب ؟ .. الحب ؟

خفق قلبى بشدة .. بل أحسست أنه يعوى من شدة الحرمان .. لهفتى وتحرقى نعم نعم ؟ . ولكن مع مارى هذه لا ؟ .. لا .. لا وقت عندى لنوعها حتى ولو عشت ألف عام .. مستحيل طبعا ! .. هزار طبعا ! . فهل هذا معقول ؟ ولكن . ولكن .. ياعنف الأرق والقلق

الذى استلمنى منذ قولة تلك العبارة ، والعينان السليطتان الباكيتان أحاول أن أطفئ لهيبهما لأنام فأفشل !

....

انطلقت الحريات فى أرجاء البنسيون بعد سفر مدام آدمة .. تحول الهدوء الرصين إلى لعلعة ضحكات ، وضجة سهرات ، ووجوه جديدة ذهابا وايابا ، وتفاح وكونياك وصوانى كباب وموائد قمار . غضبت واستنكرت هذا الانقلاب طبعا . ولكن أنا لاشأن لى . وماذا بوسعى أن أفعل ، فهل أغادر هذا البنسيون مثلا ؟ .. كيف أترك الطيبة مدام آدمة ؟ .. ثم إلى أين ؟!

وذات يوم قبل أن أخرج فى الصباح أبلغنى « عرفان » الفراش – وهو يلوى وجهه عنى كى لا أرى ملامحه المنهزمة ، أن عيد ميلاد المدموازيل « مى » له حفلة الليلة فى البنسيون .. رقص ومغنى وديوك رومى .. وأننى مدعو مثل كل النزلاء .

عيد ميلاد المدموازيل « مى » ؟! .. لا .. لا .. أنا . أنا لا أحضر هذه الاشياء لا أعرف مثل تلك الاعياد .. ثم إن عندى عملا سوف أسهر عليه !

....

عندى عمل سوف أسهر عليه .. « قصة » أكتبها الآن وتملأ حواسى .. جديدة ولائقة للنشر فى صحف هذه الأيام ، ياليت .

أنا أقرأ كل الصحف والمجلات – وهى كم هائل – من عند « المعلم فضل الله » ومائدته الشهية مفروشة بجوار « كازينو البسفور » بالقرب من البنسيون .. أعطيه قرشا كل يوم فيتركنى أقرأ وأتصفح ماأريد . بل بعضها يبيت معى ثم أعيده فى اليوم التالى .

« الصحافة » .. صاحبة الجلالة الصحافة المصرية .. « عربى وأفرنجى » وأصحابها كلهم إما « شوام » أو « يهود » .. « الاهرام »

أولاد تقلا » .. الهلال « أولاد زيدان » . المقطم والمقتطف واللطائف « أولاد نمر وصروف واسكاروس » « روزا اليوسف » « جلاد » ، و « كريم » وثابت ، وانكونا ، وخورى ، وشميل وشقير ، وبركات ، ونحمين ، وسركيس ، مطران ، وميخائيل . الخ الخ .

أما البقايا من ورق خفيف وحجم هين فهو مسحوب بحبل الأحزاب .. يظهر ويختفي وراء ظهور واختفاء حكومات الاحزاب .. ولكن « التابعي » بآخر ساعة مقتحم وموجود وتبزغ له مدرسة جديدة تلهب الخيال .. و « أبو الفتح » الوحيد ، ودهشة أن ينجح هذا « المصرى » بين العتاة .. ثم تبدأ وتلمع من ثنايا السور الشامى اليهودى الجاثم ، ثقوب أخرى ترسل الضوء أو البصيص من وجوه مصرية صميمة تبدو تفرك يدها ! .

« مصطفى أمين وعلى أمين » - أو « مقالات مصمص والسندباد » وبدء العذوبة والانعاش الصحفى .. بدء تحرر الفكر والهدف والأسلوب من غلظة قلب ودم وضمير صحافة الشوام واليهود .. « فكرى أباظة » - ورغم أنه بالايجار لحساب أولاد زيدان - فباسمه ينادى على المبيعات فقد بات معبود الجماهير .. « جلال الحمامصى » وتحفز الاناقة الصحفية .. « كامل الشناوى » والريق المصرى يجرى ويحلو .. وشقيقه « مأمون » و « سعيد عبده » و « رخا » و « بيرم » و « محمد غريب » و « حافظ محمود » و « قاسم جودة » و « أحمد حسين » و « محمد صبيح » و « فتحى رضوان » وراية « ومصر الفتاة » .. وما أشد اغراء الوطنيات .. « سلامة موسى » والفانوس السحرى مع « المجلة الجديدة » .. « زكى عبدالقادر » و « الفصول » واستضافة المواهب .. « أحمد أمين » و « الزيات » و « أمين الخولى » و « بنت الشاطئ » يحركون الشهية للقراءة الأدبية .. « محمود كامل » وموكبه العصرى فى قصص وروايات يوزع عطريات مثيرة فى

القصة والرواية .. « توفيق الحكيم » طبعا « وأحمد الصاوى » طبعا طبعا ! .. ثقوب جديدة تطل بأضواء المدينة وتلهب مشاعرى .. تخلب لبى .. تؤجج طموحى العارم والمحروم – وياإلهى كيف النفاذ من هذا السور الغليظ الصارم . والصحافة مازالت طبقية ومحسوبية .. مازالت فخارة وأرستقراطية .. مازالت أبهاء بلاطها تسد أنفها عن رائحة أولاد الفلاحين !

....

أمس وبواسطة أحد المعارف الهامين لصديقى « نجيب » .. ذهبت إلى مبنى جريدة « المقطم بباب اللوق » ، وكان الميعاد قد تحدد لى أن أقابل العظيم الصحفى المتبختر المهول « كريم ثابت » – لعل كتابتى تعجبه فيلحقنى ولو فى سلاملك القصر من بلاط تلك المشتهاة صاحبة الجلالة الصحافة .. لامانع من حتى هذا « المقطم » رغم أنه كاسد وكريه .. وكنت قد أخذت له نماذج من جميع أنواع الكتابات .. قصص قصيرة ، وفصول نقد لكتب قديمة وجديدة ، وأفكار عن باب صحفى جديد يرصد الأخطاء والغفوات « عنوانه » ، « لو »..

قابلنى كريم ثابت وهو منتفش ويبرق ، فى مقعد مطهم مستدير وطويل المسند يلف به فى خيلاء الديك ، ومن حوله تليفونات وأزرار ، وأوراق ، وكتب ، وصور ، وأقلام ذهب ، والكرافتة حمراء فاقعة وعليها ماسة ، وأنفه المعقوف كأنه صقر يطل على ضفدع .. شكلى الريفى ومهما رتبت فيه هو تربة سمراء واضحة وصريحة .. لم يطلب منى الجلوس .. مضغت كبريائى .. تحملت .. مددت له يدى بأجزاء الأوراق وقد رتبتها بإغراء العناوين وأوائل السطور بحيث إذا راقت تكون جاهزة لتأشيرة النشر فورا !

تناولها منى ، ثم قلبها بأصابعه المصقولة فى سأم متعجل .. لم يستوقفه شىء .. لم يتأن ليستوقفه شىء .. وعلى ملامحه بدأت تسرى

ابتسامة ساخرة لاتحاول أن تخفى امتعاضها .. ثم أعاد لى الأوراق وقام واقفا وأخرج منديله الحريرى من جيبه يفرك به أصابعه كمن يمسح عنها التلوث .. تحرك فى تودد متغطرس وهو يأخذنى نحو الباب .. وقف برهة يكلمنى ويعطينى نتيجة المقابلة .. أعطانى الزجر أو النصيحة بأن كلمة « بقلم فلان - الذى هو أنا - والذى كتبتها تحت العنوان ياشاطر - تحتاج لعشرين سنة حمل أحجار وحفر صخور حتى تنالها - هذا إذا كنت المازنى الصغير أو « سلامة موسى الصغير »! المازنى وسلامه موسى يا شاطر يا من تريد أن تكتب اسمك فى الصدر مثلهم ، حفروا بأقلامهم عشرين سنة حتى أفسح لهم النشر وباتت أسماؤهم تتصدر العناوين .

ارتبكت .. خجلت أن أقول له سيدى لم تقرأ مابعد العنوان والاسم ! .. وربما رأى عنف الصدمة على وجهى ، أو ربما أراد أن يراضى من توسط لى ، فقال : قد تنفع « مصححا » فهل تجيد النحو ؟ فقلت بسرعة وبصوت عال - وكان الدم قد تأجج فى رأسى - لا لست أجيده أو أريده ! .. دهش من علو صوتى ولكنه تجاهل وهو يفتح الباب لأنصرف ثم عاد يعطى آخر فرصة .. تشتغل فى الاعلانات ؟ اعلانات ؟! .. لم أرد .. لم أبادله حتى النظر أو التحية .. اندفعت خارجا يرهقنى الذل والندم .

بعد هذا المنظر .. بعد هذا الذى حدث ، قررت وأقسمت ألا أدخل الكتابة والصحافة من باب الواسطة أو المحسوبية أبدا .. أبدا أبدا .. نقاء تلك المهنة ألا يكون فيها وساطة أو محسوبية . نجاح تلك المهنة ألا يكون فيها وساطة أو محسوبية .. كيف يكون فيها وساطة أو محسوبية ؟ .. وحكاية عشرين سنة حتى يتيسر أن يعترف بك كلام فارغ فهل هى مسيرة ليمان ؟ .. من وضع ومن شرع وبأى حق ومن هو يكون هذا الذى أعطى هذا القرار الصارم بأن على المواهب الغضة

أن تحبس حتى تذبل أو تموت فى زنازين تلك السنين الطويلة .. ثم عشرون سنة كيف تبدأ مثلا .. لا أبدا لم أقع فى ذلة هذا الاستسلام .. السور غليظ نعم ولكن يجب أن أجد الطريقة لاقتحامه .. حتى لو خدعت حراسه .

....

عندما عدت من عملى فى وقت الظهر - فوجئت بشكل البنسيون وقد تغير .. مقاعد كثيرة ، وديكورات غريبة . وكرانيش حمراء وخضراء وصفراء فى السقف والحيطان ، وموائد كثيرة لامعة ومطهمة وعليها أطباق وأكواب وزجاجات وفازات ورد .. آلات موسيقية كبيرة وصغيرة .. ميكروفونات يجربونها على « الدسك » الذى أحضره « السرجنت برجر » .. لفائف هدايا .. وباقات ورد وبوكيهات زهور ، ملفوفة بأشرطة حمراء وزرقاء وعليها كروت .. سهرة عيد ميلاد المدموازيل « مى » ، ويا إلهى من يصرف على كل هذا ؟

هل هو فقط ديك الدجاج العجوز الغلبان ملتوى اللسان « الخواجة مترى » ؟ دخلت حجرتى ونيتى أن أغلق بابها على نفسى .. اكتشفت انهم أخذوا كل المقاعد وحتى الكنبة والسجادة .

فكرت أن أغضب أو أحتج ولكنى هدأت وتراجعت .. ماذا يهم .. ليلة تمر ..

....

استلقيت على السرير بعد أن قربت حبيبتى المائدة الرخامية ، فبوسعى الاستغناء عن المقعد .. شردت واستملحت أن أشاغب سحيق أفكارى .. عيد ميلاد المدموازيل مى هذه ؟

فإذا فكرت أن أحضره مثلا مثلا ، فيجب طبعا أن يكون فى يدى هدية لها .. هدية .. ها .. ليس فى جيبى إلا نصف جنيه باهت وبضعة قروش كالحة فهل أشترى لها مصاصة مثلا ؟ ضحكت لجرأة الخيال

وخلو البال وأتمنى واقه لو أتمكن فأصلها يوما مع هذه الطفلة الوحشية .

لى أيام وأنا منهمك فى كتابة تلك القصة التى عنوانها الهامشى « يوميات مهاجرة » وعنوانها الرئيسى « قلبى فى يدى » .. تلك القصة والبطلة فيها ومهما أشحت هى هذه المدموازيل مى . الذئبة الغضة الملونة الغريبة فى غابة الرجال .. حفارة الرجال بأظافرها المانيكير وأصابعها البسكويت .. الوليمة الطازجة الحريفة فى سوق اللاعقين وأكلة اللحوم .. المهاجرة الحائرة بأنوثتها المتفجرة الصريحة وحريتها الفاحشة الصريحة أيضا .. قصة تختلس نفسها من تقاليد كتابات هذه الأيام .. أبدا لا أحلم أن تنشر بسهولة . فمن يتجرأ أن ينشرها ؟ إنها عارية الصراحة أيضا بمثل صراحة العرى . من عصر صاحبتها .

سهرة عيد ميلاد المدموازيل مى بدأت منذ أول الليل ومستحيل الكتابة أو القراءة فالحجرة تهتز من عنف الطبل وزمجرة موسيقى الجاز .. زمامير ، صفافير ، ورقص الكاريوكا وكارمن ميراندا ، وأوه جونى أوه .. ضجيج الساهرين وضحكات ، ولعلعات ، وزعقات ، وشهقات ، وأغنيات الميكرفون بالفرنسى والانجليزى فقط .. عدة مرات أحاول أكتب أو أقرأ فأفشل . أطفأت النور .. أبعدت الأفكار .. استرخيت أحملق فى الظلام طويلا طويلا . حتى رويدا رويدا ، غفوت وغصت فى النوم !

....

استيقظت فجأة على مايشبه طرق الباب .. أشعلت النور ونظرت « إلى ساعة المنبه » وكانت الثالثة صباحا .. فركت عينى ، فمن هذا الذى يطرق فى تلك الساعة ؟ .. ربما توهمت فإن الطرق قد سكت .. عدت أتصنت فالبنسيون هاجع تماما فلابد أن الساهرين قد انصرفوا .

وقبل أن أعود وأطفىء النور عاد الطرق واضحا هذه المرة .. قفزت

من السرير . وكنت من شدة الحر بملابسى الداخلية جدا .. فتحت الباب .. وياهول مارأيت فقد عدت وبسرعة أغلقه .. ولكن قدم الطارق كانت محشورة وتتحدى الغلق .

إنها المدموازيل « مى » واقفة مترنحة تتساند على ضلفة الباب .. متطوحة وواضح أنها سكرانة .. فى يدها اليمنى طبق كبير . يهتز وفيه لحم ديك رومى ومحشى وبوفتيك . ويدها اليسرى ترفع زجاجة خمر نصفها ممتلئ ! .. ماهذا ؟ .. ماهذا ؟ .. نصيبى من سهرة عيد الميلاد الذى لم أحضره ؟ .. نظرت إليها جاحظ العينين وقد شلت أطرافى .. أحاول أن أتوارى بمنظرى الردىء المخجل .. عيناها تتوسلان أن تدخل .. تدخل ؟ كيف تدخل ولماذا تدخل ؟ مستحيل أن تدخل ؟ ولكنها بدت مصرة مصممة ، وقد روعنى أن تحدث أى فضيحة توقظ أهل البنسيون .. واشتد ذعرى عندما رأيت الزجاجة التى تتطوح فى يدها توشك ان تقع . والطبق أيضا . وسوف يكون لتهشيمهما على البلاط صوت المدافع وصفارات الانذار .. اضطررت وبعد صعوبة أن أتناول منها الطبق والزجاجة وأضعهما على الأرض داخل الغرفة . ثم استدرت نحوها غاضبا ومستشيطا فماذا تريد الآن بعد كل هذا ؟ .. وقبل أن أقول أى شىء ، أو تقول هى أى شىء ، تطوحت تدور حول نفسها عدة مرات قبل أن تتداعى مكومة على بلاط الأرض داخل حجرتى مغميا عليها !

ياإلهى تلك الكارثة .. فماذا أفعل ؟ .. طرحت نفسى بجوارها أفحصها مرتاعا فهل أصابتها نوبة دوار أو تكون يافزعى قد ماتت ؟ .. فوجدتها مفتوحة العينين تضحك وتتلوى وتطوح بذراعيها وتتمتم فى همس خافت ومتقطع وممطوط . بأنها مجرد دائخة .. كثرة الشراب أثقلت دماغها ولسوف تنهض فورا .

حاولت أن تنهض ولكنها لم تتمكن ، فعادت تستسلم لانطراحة الأرض وعيناها ترفرفان ضاحكتين مناديتين على منظرى المرتبك

المذعور .. وعندما لاحظت أننى هممت بالخروج لمناداة « عرفان » أو أى عون للاسعاف ، أشارت لى فى توسل واستعطاف ، بل همت تبوس القدم - يامغيث - ترجونى ألا أفعل .. سوف تتمكن فتفيق سريعا إذا ما استراحت هنا بعض الوقت .. تستريح ؟ .. هنا على البلاط ؟ .. أخذنى الاضطراب فيما يمكن أن أفعل فيجب أن تقوم من نومتها تلك أولا .. مددت ذراعى أساعدها ، ثم ذراعى الأخرى بعد أن استعصى عليها النهوض بنفسها . حتى تمكنت أخيرا فعدلتها واقفة .. ولكنها تهدلت وتهاوت وانطرحت على صدرى بل أوشكت أن تنزلق واقعة مرة أخرى .. وهكذا بعد أن أرهقت جدا حسمت الموقف بأن رفعتها وحملتها بكلتا ذراعى .. وقفت حائرا بها فأين أضعها ؟ .. ذراعاها مضمومتان حول عنقى كأنهما كلابتان .. صدرها منغرس فى ضلوعى ، وأنفاسها تلهب وجهى ، وتلويها وتثنيها يميد بأقدامى .. تحركت بها وطرحتها على السرير .. لامفر فلا يوجد إلا السرير .. أسرعت أغطيها بالملاءة وأنا ألوى وجهى .. ثم أطفأت النور وتراجعت وأنا مكهرب تماما لألتصق بالباب ! . أخور لاهثا بجوار الباب ! .. أحملق ساكنا فى الظلام ، طويلا .. طويلا .. ولست أدرى - وبعد أن فكرت برهة ما - كيف قمت وأغلقت الباب .. أغلقته بالمفتاح !

« الخطيئة »

القاهرة - ١٩٤٢ :

عادت « مدام آدمة » صاحبة البنسيون - وبعد أن غابت فى بر الشام سبعة أشهر كاملة - لتجد أمورا كثيرة قد تغيرت وتبدلت فى شئون « بنسيون فيوليت » !

« عرفان » السفرجى المخلص الأمين - وكانت « الست وديعة » شقيقة مدام آدمة قد طردته من خدمة البنسيون - عرف ميعاد عودتها بالسفينة فذهب ليكون أول من يستقبلها على رصيف ميناء السويس .. رافقها فى المشوار الطويل ، من رصيف الميناء إلى رصيف المحطة . وفى القطار من محطة السويس إلى محطة باب الحديد ، ومن محطة باب الحديد إلى باب البنسيون - وطنينه فى أذنها عن هول ماجرى فى غيبتها ! .. يعطيها التقرير الشامل والكامل والمسهب والصريح - فماذا عاد يخاف أن يخفى وقد انقطع أكل عيشه بعد شهرين فقط من سفرها .. روى لها المباذل ، والمهازل والمخازى ، وست وديعة ، وست بديعة ، والمدموازيلات مارى ، ومرجريت ، وروز .. البنسيون النظيف العفيف الشريف وكيف فاحت سريعا رائحة سمعته الجديدة .. الزبائن الذين هاجروا والذين استجدوا .. وكل ليلة ، قمار ، وسهر ، وسكر ، وفجر ، ومنكر ، ياسيدتى الطيبة مدام آدمة .. قال لها كل شىء ..

أفرغ كل ماعنده .. وعند باب البنسيون وضع الحقائب واستأذن أن ينصرف بعض الوقت - لتدخل مدام آدمة وكلها رعشة وجنون !

....

لم أكن موجودا لأشاهد ماحدث .. فوجئت بالأنباء الخطيرة وباغتني الخبر - الذى همسوا به فى أذنى أول مادخلت - وهو أن مدام آدمة طردت أختها وبنات أختها بعد ضجة وفضيحة وخناقة ضارية طويلة - حضر من أجلها العسكرى - بعد أن رمت عفش وديعة وبناتها فى الشارع وتناثر وتهشم وضاع بعضه .. باغتنى النبأ وانكمش له دمى .. طردن فإلى أين ؟!

وعندما ذهبت أحيى مدام آدمة واستفهم .. صدمتنى باستقبالها .. قابلتنى بنظرات تغرس الابر فى وجهى .. ارتبكت ومددت يدى أحييها فى تساؤل ودهشة ، فمدت يدها فى لمسة خاطفة ثم أشاحت تجز على أسنانها وتتمتم فى صوت يخنقه الارهاق والبكاء !! بأن كل الناس أصبحوا أباليس فلم تعد هناك ثقة أو أمانة فى قريب أو غريب ! . ترددت فيما أرد به فماذا تقصد ، ثم جلست بجوارها فى بلاهة حائرة - فواضح أن عرفان قال لها عنى أيضا أشياء وأشياء .. مرت فترة صمت متوتر ، ثم استدارت تحملق فى وجهى كمن لاتصدق ، وقالت .. حتى أنت وكنت أظنك ابنا أو ملاكا ؟

لكت ريقى الناشف فى حلقى وأنا أزدرد كلماتها .. حاولت اظهار الاحتجاج فما ذنبى .. أختها وبنات أختها فما شأنى ؟ .. ولكننى سريعا ماتراجعت منكمشا فى ذلة وهبوط - فما جدوى أن أكذب والاعتراف فى منظرى واضح وصريح .

مؤكد فعرفان حكى لها الكثير والكثير عن كل شىء .. فهل لحق فحكى لها كل شىء عنى ؟ .. عن المدموازيل مارى فى غرفتى كل الوقت ؟ .. زجاجات البيرة والسهر حتى الفجر ؟ .. دروس الرقص

والكونكان والبوكر ؟ .. خناقة « الخواجة مترى » وتقطيع الفانلة والقميص ؟ .. يا إلهى فهل حكى لها حقا كل شيء ؟ .. كنت متعبا وخائرا وذهنى شارد وبعيد إلى أشياء أخرى فلم أجد كلاما أقوله .. و .. تقهقرت متسللا إلى حجرتى !

ألوذ بحجرتى وأغلق الباب .. ألتصق بالحائط وقبضة يدى ترتعد وتضرب الجدار .. نظرات مدام آدمة – تلك الكارهة والمفجوعة – فماذا تدل إلا أننى قد سقطت من عينيها .. حنقت على عرفان فلابد وأنه قد بالغ فى بعض الذى حكاه .. ولكن يابؤس نفسى ففيها يكون قد بالغ . وتلك هى الحقيقة تطل من منظرى التعس الهلوع المبعثر وأنا واقف أنظر إلى نفسى فى المرآة .. منظرى البائر الكاسد المهزوم .. هذا السقوط الجارف والمباغت فى براثن أول خطيئة .. أول مذاق وأول رشفة من أنوثة المرأة .. أول ثقب فى معبد الحرمان الذى عشت أتحصن وأتهجد فيه .. اتسع الثقب سريعا يادهشتى وياويلاه – فمارى هذه أصبحت لى ادمانا رهيبا .. نعم هذا هو الوصف الحقيقى . ادمانا رهيبا !

لا . لست أعاتب نفسى الآن .. لست أحاكم نفسى الآن .. أنا غريق لم يطلب النجدة بعد .. أنا مشنوق لم يطلب الرأفة بعد .. نشوتى ومتعتى سارية وعارمة فى عذب هذا السم وأبدا لا أطلب النجاة .. حتى لو كانت الأمور انتحارا وتلاشيا .. فما ذنبى فهل خلقت نفسى ؟ .. ثم أنا الموجود لست أنا الحقيقى ؟ .. لست صبى القرية النقى الطاهر . ولا غلام المدرسة الواجف الخجول . ولا حامل تعويذة الحجاب الريفى تحت الابط وقد جئت لأعلقه حنانا على صدور أهل هذه المدينة .. لا .. أنا لست أنا فمن أنا ؟ ..

أنا حرمان العصر كله .. الحرمان بكل ضراوة الانواع ومكدس الرواسب .. « حرمان الفقر » وهذا أنا أحاول أن أفضه . حرمان

القهر . وهذا أنا أحاول أن أقتحم الساحة بقلمي لاجابهه .. وبقى « حرمان الجنس » - هذا العاتى - وقد تفتحت مصاريعه عندى فجأة .. ولا مراجع عندى له فهو فى قريتى وغريزتى دواليب ضاعت مفاتيحها منذ الأزل !

أتحرك حائرا عصبيا فى غرفتى . فماذا يهمنى الآن من راكد المخلوقات إذ أسقط فى عين مدام آدمة هذه أو سواها ؟ .. أزمتى الهامة الآن بل كل مايهمنى الآن أن أعرف أين مارى ؟ .. إلى أين انتقلت هى وأمها وأخوتها ؟ .. لابد أن أعرف أين هى الآن ، ولايهم أن أراهن فورا .. فقط كى أستقر وأستريح وتهدأ منى الأعصاب !

....

خرجت أبحث فأين أبحث ؟ سألت البواب . وسألت البقال ، وحمت حول مطبعة الخواجة مترى ، بل فكرت فى قسم الازبكية القريب فلابد أن هناك محضرا وعنوانا قد كتب .. تعبت تنقيبا فى شوارع الفجالة والظاهر والسكاكينى .. اطل على يفط البنسيونات . واتقصى عن الذين يؤجرون الغرفات المفروشة فى البيوت ، وأحملق فى النوافذ فلعلنى أرى الشعر الاشقر والوجه الابيض يطل من أى شباك .. وحتى سينما فيمينا . حيث تبدأ وردية الليل فى شباك بيع التذاكر ، وقفت أنتظرها خافق الفؤاد ولكنها لم تظهر ولم تحضر .

عدت فاشلا أحقق مع البواب وصبيان البواب ، فكيف لم تترك أى رسالة أو أى كلام ؟ .. كيف وفى الأشهر الأخيرة أصبحت محمومة بى . مخبولة ، بل ملتاثة وضد الجميع من اندفاعة تعلقها بى ؟ .. ولقد كان يدوخنى ويعيد بى حتى قبل تلك الأسابيع عنف استقبالها وتقطع أنفاسها اذا تأخرت عن أى وقت أو ميعاد .. وغيرتها المرعبة إذا رأتنى أسلم أو أتحدث مع أى فتاة أو امرأة سواها .. ويادهشتى عندما أوشكت ذات مرة أن تفترس « مسيو مترى » وكيف مزقت فانلته وقميصه وعضت

ذراعه وبصقت على وجهه ، فقد حاول أن يسخر من تعلقها الخائب الاهبل بهذا الفلاح الجلف المفلس .. شهقاتها وفزعاتها إذا ما رأتنى أتمرد أو أجافى ! .. ليونتها المستسلمة أحيانا وعصبيتها المندلعة أحيانا ! .. دموعها المتوسلة البراقة وضحكاتها الرنانة كأجراس فى الجنة .. بحرها العرمرم الفياض الهادر والغامض وياإلهى فقد انزلقت تماما فيه .. انزلقت سهلا وسريعا وبغتة وأنا لا أعرف العوم فيه .. أصارع الانزلاق بمزيد من الانزلاق فى لهفة أن اكتشف .. فى فضول أن اكتشف ، كيف يمكن لفتاة باهرة بارعة العوم فى بحر تلك المدينة . أن تحب خابيا كاسدا مثلى لم يمارس العوم إلا فى ترعة الفلاحين ؟!

....

عدت بعد أن هدنى التعب إلى حجرتى فى البنسيون وكان الوقت بعد منتصف الليل .. لمحت على المائدة الرخامية لفافة ملونة .. علبة بقلاوة شامية ، وكيس من الفستق الحلبى . هدايا سفر بر الشام من مدام آدمة .. المرأة الطيبة الودود .. خجلت . تأثرت . نكست رأسى فى شرود معذب طويل .. أطفئ النور .. أطرح جسدى الخائر المكدود

على السرير ولتبدأ معى مخاطب الأرق فى الظلام !

عدة أيام وأنا أبحث عن « مارى » فى لهفة حارقة تتصاعد لحظة بعد لحظة .. رعبى وفزعى أن تكون قد هاجرت وتركت القاهرة نهائيا .. عذابى وتمزقى كيف لم تهتم أن تتصل بى ، أو تترك أى رسالة أومعلومة ، فهل كانت عواطفها الجارفة - تلك التى حطمت أسوارى وقلاعى مجرد عبث ولهو وخداع ؟.. مجرد تنوع التذوق لطبق المش الريفى وطعمه الملهب الحريف ؟!

لم أعد أهتم أن أكتب أو أشتغل أو أبحث عن أى مستقبل وأى طموح .. لا طاقة لى لفعل أى شىء حتى تظهر مارى ، وبعدها يمكن أن أستريح ! .. وذات يوم لمحت الخواجة مترى يمشى فى شارع

القيصالة فى اتجاه المطبعة التى يملكها .. ولست ادرى كيف أحسست من خطو قدميه أن خطواته إلى مارى وأختها .. إنه مدمن لهذه الفتاة أيضاً ، ولكنه ادمان البائس القنوع ... يلعق الأوهام ومهما بهظ الثمن .. مشيت من ورائه دون أن يرانى .. تلصصت خطواتى من خلفه .. يعصرنى الخجل من منظرى المتجسس فماذا أفعل ؟.. وفى آخر الشارع توقف عند « محل جزار » ، وخرج بعد وقت طويل ومن ورائه صبى يحمل لفائف كثيرة من ورق اللحم .. ثم استدار معه فى شارع « حبيب شلبى » .. وتوقف مرة أخرى أمام « دكان فكهانى » .. واختار واختار ، واشترى واشترى ، وأخرج من جيبه جنيهات كثيرة ، وعاد يمشى والصبى يحمل من ورائه .. ثم عبر الشارع واستدار نحو حارة صغيرة مغلقة .. وعند ثانى منزل رأيته يمرق من الباب .. ورفعت رأسى نحو الطوابق ، ثم تداريت سريعاً وفى قلبى غبطة هائلة ، فقد رأيت وجه « الست وديعة » يطل من نافذة الدور الثانى !

أغمضت عينى وأخذت أنفاسى فى شهيق طويل .. أخيراً وجدت مارى وبوسعى الآن أن أسند ظهرى وأستريح !

بقيت واقفا وعينى على نافذة الشقة والباب .. لن يقضى كل النهار طبعاً فعنده عمل المطبعة .. ومضت ساعة وأكثر حتى لمحته أخيراً يخرج .. تابعته بنظراتى حتى ابتعد واختفى .. أخذت أنفاسى ورحت أصعد السلالم قفزا ، ثم توقفت لاهثا أمام باب الشقة ، أحاول أن أرتب من شكلى وأفكارى ، ومن خلف الباب أسمع صوت الأغانى فى الراديو .. نداءات ، وزعقات ، وضحكات ، فهل هى مارى التى تضحك ؟.. كيف تقدر أن تضحك وأنا عنها بعيد ؟.. خفق قلبى ، وتشجعت وضغطت على الجرس .. خطوات تتهادى .. فرقعة شبشب الست وديعة .. وبمجرد أن فتحت الباب ورأتنى اكفهر وجهها وهمت أن تغلقه .. بدا لى واضحاً أن ظهورى مفاجأة غير سارة .. ولكنها

تراجعت وفتحته لا لأدخل بل لتخرج هى لى وتوارب الباب من خلفها .. وفى صوت خافت كاره طارد - تحاول ألا يسمعه أحد - سألتنى ماذا اريد منهن الآن ؟.. غصت فى الخجل والارتباك ، ولكنى بقيت واقفا وأنا أتهته بما يعنى أننى جئت لأقابل المدموازيل « مارى » ؟ .. حنقت نظراتها وشدتنى من ذراعى تدفعنى نحو السلالم ، فمارى ليست موجودة الآن . ولن تكون موجودة فى أى وقت . استفزنى كلامها وحركتها فزمجرت ملامحى فى غضبة أخافتها ، فقد خيل لها أننى سوف أزيحها وأقتحم الباب .. وتبدلت سريعاً ورسمت على وجهها ملامح أم حائرة ومرهقة تتوسل لشهامة رجل أنْ يترك بنات الناس فى حالها .. ترجونى وتستعطفنى أن أنصرف فماذا أريد من ابنتها الآن .. مارى لابد لها أن تتزوج ، فهى أكبر منك بسنتين وأنت لاتقدر ولا تريد أن تتزوجها ، فماذا تريد منها الآن ؟ .. واعلم أن هذه الشقة قد استأجرها « مسيو مترى » فهو عائلنا الوحيد وساترنا الوحيد الآن ، وشرطه الأول ألا يرى وجهك مع مارى فى أى وقت وإلا انصرف عنا بلا عودة !

اسمع كلامها المفترس المروع بلا تأثر ، بلا أدنى تأثر .. مشاعرى لاتأبه فهى مشدودة إلى الموجودة خلف الباب .. وفجأة فتح الباب ، وأطل وجه الصغيرة « روز » وبمجرد أن رأتنى واقفاً أمام أمها شهقت وأوشكت أن يعلو صوتها يعلن حضورى .. ولكن أمها قفزت سريعاً لتلحق وتضع يدها على فمها قبل أن تنطق ، ودفعتها إلى الداخل وأغلقت الباب ، وسمعت صوت غلق الترباس أيضاً !.. تلجمت برهة .. تصنمت برهة .. اسمع ضجة ومناقشة وزعيقا .. خجلت من وقفتى المتصنتة المعيبة .. نكست رأسى أتراجع ذليلاً أنزل السلالم .. ومع كل سلم أنزله أشعر بأن صفعة مدوية تنزل على وجهى !
نزلت ، تركت الحارة .. مشيت .. النهار اصفر وشاحب .. كل

شيء من حولى أصفر وشاحب .. أترنح بخطواتى ثم أتوقف .. أتقدم بخطواتى ثم أتراجع .. هل حقاً يجب أن أنصرف ؟ .. وإلى أين أقدر أن أنصرف وهذا هو واقعى البشع السخيف - ماأشد قسوتى فى وصف نفسى - يمثل الجرو المربوط بالحبل إلى نافذة حارة « حبيب شلبى » فهل كنت يوما أتصور أن اقع فى هذا الهوان .. يا إلهى .. كيف أسترد حريتى من تلك الذلة وهذا الهوان ؟

وفجأة وأنا ماشى أتخبط - أحسست من خلف ظهرى بيد تلمسنى .. إنها « روز » لاهثة الأنفاس ، فقد تمكنت ولحقتنى .. تهمس وهى تتوارى بى خلف أحد الأركان ، فلديها رسالة من مارى .. إنها ترجوك وتستحلفك ألا تحضر إلى هذه الشقة مرة أخرى !.. وقبل أن تأخذنى الصدمة فاجأتنى بأن الرسالة لها بقية .. وعليك أن تقطع تذكرتين فى « سينما متروبول » لحفلة الساعة الثالثة ، ظهراً وتترك واحدة باسمها فى الشباك ، وانتظرها فسوف تحضر !

الرائعة روز تهرول مبتعدة .. انتشيت ، استرحت .. استرخت عروقى المشدودة أخذت أنفاسى بكل راحة .. مارى اذن تحبنى ؟.. مازالت تحبنى ؟.. وفى حماس الراحة والنشوة قرصنى الرعب فتذكرت شيئا سرت من بعده البرودة فى كل بدنى .. ليس فى جيبى الا القروش المحدودة التى لاتكفى ثمن اللقاء ؟ وثمن التذاكر هذا فمن أين ؟.. لا يوجد من أقدر أن أستلف منه الآن ؟ .. يجب أن أجد فورا ولو نصف جنيه ، فمن أين ؟ .. استغرقت فى محنتى تلك حتى برق الخاطر فجأة فى ذهنى حينما لمحت عينى « مكتبة معلوف » لبيع وشراء الكتب والروايات القديمة .. حسنا فهذا هو الحل الآن لاسواه ..

هرولت لأقف مرتعشا أمام ركن غرفتى المكدس بالكتب .. أنا أفعلها لأول مرة .. كل كتاب أقتنيته أصبح صديقى ورفيقى ويصعب التفريط فيه .. اقشعرت مشاعرى ويدى تتسلل لتختار الذى سوف

أبيعه .. أحسست وأنا أتلمس وأختلس أنني لص خسيس ! ولكن .. أشحت ضجراً عن بقايا مثالياتي الواهية ، فهل عادت تذكرني بنفسها في مثل تلك التوافه ؟.. اخترت جزأين من « دائرة معارف العالم الفيلسوف محمد فريد وجدى » .. أحتضنتها وقلبي يلتوى فما أعزهما عندى ، ولكنني شربتهما ونهلت منهما حتى ارتويت فكفى جشعاً .. خرجت بها بائساً منهار الكبرياء لأقف أمام الخواجة معلوف ليسلمنى بعد فصال عسير « ثلاثون قرشاً » لاتزيد مليماً ! لابأس ، فهذا انقاذ .. التذكرة بأربعة قروش ونصرف الباقى !

وفى ظلام السينما جلست انتظر .. المقعد مازال خاليا بجوارى .. انتهت مقدمة الاعلانات ، ثم مرت استراحة ماقبل الفيلم ، ثم بدأت تيترات الفيلم ، بل بدأ الفيلم نفسه والمقعد مازال خالياً بجوارى .. بدأت أنفاسى تلفظ زفير النار .. استلمتنى لحظات الاحتراق .. ياغرابة هذا الذى يحدث لى ؟.. هذا السعير غدا وبعد غد فماذا بعد ؟.. لم أعد أقدر أن أظل منتظراً فالمقعد بات لى من القلق كالجمر .. وفجأة لاحت مارى .. هذه هى مارى .. شكرا يامارى .. تبرق عيناها ملتاعتان وهى تلتصق بى لاهثة الأنفاس ويدها تشد كف يدى إلى حجرها فى وجد ولهفة !

اكتشفت أن لقاءاتى بمارى يجب أن تتم دائما خلسة وفى الظلام ، فالخواجة مترى يرسل من ورائها الجواسيس . وليس هناك خلسة سهلة ورخيصة وتشفى بعض الغليل إلا قاعات السينما المنتشرة فى كل مكان وكل يوم يجب أن أواجه محنة ثمن التذاكر ، فقد كان مرتبى الضعيف يذوب بعد أول وثانى يوم - مع مارى طبعا - ومن بعدهما ألهث فى عذاب أن أستدين أو أبيع .. وذات مرة ونحن منصرفان من دار السينما اضطرب وجهها وبدا عليها الذعر ، عندما رأت رجلا يتابعنا بنظراته ، وقالت أنه أحد جواسيس الخواجة مترى !

فوجئت بعد هذا بانقطاعها عن مواعيدنا المرتبة .. عادت لى

اندلاعات النار .. وقد تحملت أول يوم وثانى يوم وثالث يوم .. أما فى اليوم الرابع وقد أوشكت أن أتهور بمخاطرة الطرق على بابها ، فوجئت برسول الراحة والهناء - الصغيرة روز - تنتظرنى عند ناصية بنسيون فيوليت . وتحمل لى نبأ بأن أنتظر مارى أمام دكان السرجة فى أول السوق من « شرم الفجالة » ومهما تأخرت أنتظرها فسوف تحضر !

....

كان الوقت قد اقترب من الظهيرة ، وأنا واقف منذ أول الضحى فى انتظار مارى ، حينما ظهرت أخيرا لتشير برأسها أن أتبع خطواتها .. دخلت فى اتجاه السوق .. ثم فى أول حارة ، استدارت إلى زقاق ضيق ، وأمام بيت قديم متهدم من دورين مرقت من الباب !.. وكنت من خلفها .. راحت تصعد السلالم المهشمة البالية وتقفز من فوق أكوام القمامة المبعثرة أمام كل شقة .. ثم وقفت أمام باب دور الثانى وطرقت عليه فى ثبات واستعجال .. وبمجرد أن فتح الباب أشارت لى أن أدخل .. دخلت .. شقة فقيرة جدا ورائحتها عفونة وبائسة المحتويات .. كلها خرق ، ومزق ، وهلاهيل ومقاعد بلا أرجل ، وكنبة غائرة متهدلة ، ومرتبة مفروشة على الأرض !.. قدمت لى « العمة » زاهية .. وهى عجوز فى الخمسين تقريبا .. نحيلة ومقددة وعيناها صينيتان وشعرها كوم من قش منفر .. إنها قمامة أخرى .. قدمتها لى فهى قريبتها .. شامية طبعا ، ولابد أنها من حضيض الشوام .. تحررت مارى فى جلستها كمن اعتادت على المكان ، وطرحت نفسها على الكنبة بعد أن قذفت بحذائها من قدميها ، وفكت أزرار البلوزة بل خلعتها .. والجونلة أيضا .. ثم سألتنى بغتة فهل معى فلوس .. ماذا معى من فلوس ؟.. ارتبكت واضطربت .. فلوس ..؟ ومعى بقية مرتبى الذى استلمته فقط أول أمس .. وتبقى منه جنيه ونصف جنيه وبضعة قروش !.. نعم .. نعم . وأخرجت كل مافى جيبى .. تناولت الورقتين فقط ، الجنيه ثم النصف جنيه ، ثم علا صوتها ينادى العمة زاهية ..

وخلّى وتصرفى فى شئوننا ياعمتى العزيزة !

وقد تصرفت العمة العزيزة فى سرعة عجيبة .. عادت بأكوام ولفائف هائلة .. ثلاثة أرطال كباب مشوى تفوح رائحته الشهية ، وعدة أرغفة من الخبز الساخن الطازج الخارج فورا من الفرن .. وزجاجة « فياسكا » رهيبة من النبيذ اليونانى .. ولفائف جبن وزيتون ومرتديلا وحوادق ، وقراطيس عنب وتين برشومى .. والباقى ربع جنيه .. فهو إذن للعمة زاهية كى تذهب به إلى « سينما فلوريدا بالسكاكينى » ، ففيها يعرض فيلم حبيبها الرائع العجوز « والاس بيرى » !

« زاهية » تنصرف .. اللفائف والقراطيس تنفرط .. الأكواب يرقص فيها النبيذ . عطر مارى يبدد أية رائحة .. هاهى مارى – وهنا ومنذ اليوم سوف يكون وكر العشق لنا !.. مارى تقول هذا وهى تقتنص مسحة عينى المستعرضة لبؤس المكان ، ثم توبخ نظراتى تلك بأن تناديني إلى ذراعيها المشتاقتين – ويكفى أن لنا فيه مرتبة مفروشة !

....

....

أنا الآن فى الأشهر الأولى من القاهرة ١٩٤٢ ..

غصت تماما فى « وعاء مارى » فلا أرى من المعالم سواها .. تجربة مارى ؟.. غصت بل بعت نفسى كاملاً وسهلاً فى صفقة تجربة مارى هذه .. وحتى وأنا ألفظ أنفاس غريقاً منتحراً فى غورها المرعب ، كنت أنازع نفسى ساذجاً أو صفيقا ، فما أنا إلا فى تجربة أو تجارب كانت تنقصنى لتكتمل لياقة الأدوات من أجهزة الكاتب والروائى والمفكر !.. عالم النوع من هذه الانثى ؟.. طلاسم النوع ؟.. غريب ورهيب النوع ، ياشاسع الفرق من سذاجة خيال كنت أختال به وأتصوره شعاعات من عروض جديدة سوف أبهر بها سماء الفكر والكتابة ، وبين

واقع صاعق مباغت يأخذني فوراً إلى قاع الأعماق ، لتكون أول فض البكارة من هذا الجنس ، مع هذه الانثى التمساح مارى !

صارحت نفسي مستميتا لأتشبث بالبقايا مما هرب وتبخر من مثالياتى وأخلاقياتى وطموحاتى ، فالفتاة نارية متقلبة سادية هوجاء حمقاء وجشعة ، لاتعرف ماذا تريد ؟.. إنها دائما جائعة رجال وأموال ؟! وبدأت أستغرب وأتعذب بدء انحسار لهيبها العاطفى المشبوب ، فقد بدأ يخبو وتنطفئ ذبالاته مع عويص إملاقى وذبول أحوالى وبادى هزالى .. ولكن تبقى شىء غريب فيها مازال يؤجج طيش خيالها .. تحلم هذه القاحلة لو كانت كاتبة وأديبة وصاحبة صالون مثل قريبتها الشهيرة « مي زيادة » ؟ .. ورغم أنها جاهلة أو نصف أمية ، فهى تتعثر فى القراءة والكتابة وليس لها طلاقة أى شىء إلا أنها تتكلم بعض الفرنسية وبعض الانجليزية .. رغم كل هذا يخلب لبها ويريح نفسها أن أكتب لها كل يوم رسالة عشق وغزل وهيام .. بل تحول هذا الأمر إلى ثمن راحة ورفاهية لها تعوضها إذا لم تكن هناك نقود لنصرفها على تكلفة خلواتنا .. تلك الرسائل وكنت أكتبها دائخا ومرهقاً ومترنحاً وأنا أتوجع ، فإننى فيها أفقد أسلوبى وصدق أفكارى ، كى تقدر أن تفهم ماأقرؤه لها .. رسالة كل يوم تلك أصبحت طبق مزة السهرة تتناوله المدموازيل « مي » الصغيرة فى شغف مدهش بل شبق غريب ، وكأنها تحتوينى أو تعتصرنى فى لذة مفتقدة عالية المستوى !.. هل تريد أن تفهمنى مما أكتب لها ؟ ... وماذا لها إذا فهمتنى إلا أن تأخذ فمى كالعادة وتغوص به بين شفتيها .. ثم تميل بعنقها الناصع على كتفى ، وحبيبى الأسمر الرائع ، فهل سوف تتزوجنى يوماً لأسعدك ؟.. تقول هذا دائما ، ودائما تحس بلسعة قشعريرتى الباردة من هذا السؤال المرعب فتسحب كلامها سريعا ، فما قولتها تلك إلا نكتة ودعابة ، فهى ترفض أن تتزوج من هو أصغر منها . وأحيانا يندفع الغضب ونفاد الصبر من

عينيها حينما تكون قشعريرتى شديدة اللسعة ، وترمق فى عينى ثقبين صريحين يصرخان بأن زواج مثلها لى لا .. لا .. مستحيل !

وذات يوم .. وكانت الأمور قد طفحت إزائى منها ومن أسرتها .. وجدت نفسى أمامهم بين مخالب اجتماع أسرى عاجل وشامل وهام ، حضرته مدام آدمة ، وحتى الخواجة مترى نفسه ، فقد نفد صبره هو أيضا .. وهاهى مارى ايضا نفد صبرها طبعا .. وموافقة على مايقررونه لها .

وفى جلسة صاخبة . ومتوترة ، وغريبة التناول والمصارحة والسؤال الموجه لى ومطلوب الإجابة عنه الآن حالا .. إما أن أتزوجها فورا وإما أن أتركها فوراً !.

هرعت نظراتى تتردد وتتوسل .. لحظات مرعبة كأنها لحظات ماقبل النطق بالإعدام .. كلا الامرين إعدام .. أتزوجها يعنى سوف أنام الليلة ولقبى الجديد هو « قواد » .! أتركها يعنى سوف لايستلمنى من الليلة أى نوم ..

لم أتردد طويلاً .. رفعت رأسى واقفاً وأنا أقف لأقول ..

– حسنا ، سوف أخرج لإحضار المأذون فانتظرونى ..

« هارب من التجربة »

القاهرة - ١٩٤٢

خرجت ولم أعد ..

أتزوج مارى ؟ .. مستحيل ؟ .. طبعا مستحيل ، وتعال فافترسنى ما شئت أيها العذاب الرجيم ! .

أمشى متطوحا ذاهلا فى شارع الفجالة .. ينتظروننى الآن ومعى المأذون ؟ .. سوف أحضره معى حالا ؟! .. كم أصبحت كذوبا ومخادعا ، بل أنا جبان ! .. خطواتى تتعثر ، وإحساسى شديد بالوضاعة .. الساعة الآن الرابعة بعد الظهر ، وكل دقيقة بعد هذا لها فى لحمى ومشاعرى جز السكين .. الشارع صاخب هادر والحياة نشيطة جارفة كالعادة .. عساكر إنجليز ، وبنات أفريقيا المجندات البيض ، وعربات لورى وجيب ، والترمواى ، والأتوبيس الأخضر ، وخادمات بالكعب الفلين والأساور الزجاج والحرير الصناعى ولطخات الروج السائحة على وجوههن الكالحة .. أصبحن غانيات .. يجدن الزبائن دائما ، ففى أجسادهن التى حضنها الذل والفقر حرارة يفتقدها الباردون الإنجليز ! .. ما الفرق بينهن وبين مارى ؟ .. أمشى .. أتوقف برهة أمام عمارة البنسيون .. أرفع عينى إلى الطابق الثانى .. غرفتى والشيش موارب ، واليافطة من تحتها .. أشعر أننى بت غريبا عنها ..

يسكنها آخر لا يمت لى بصلة الآن .. أريد أن أنام .. أستريح .. فهل أجلس ولو على الرصيف ؟!. .

أمشى .. أمشى .. أستدير من عند « كازينو البسفور » .. أرى « الحاج فضل الله بائع الصحف » ومفروشاته الشهية على الناصية .. لم يعد يرانى ولم يعد يتلقى منى قرش كل يوم .. انصرفت عن قراءة صحفه ومجلاته .. لم أعد أقرأ أى شىء ... لا صحف ولاكتب ولامجلات ولا أى ورق .. الصحيفة المنشورة أمامى ليلاً ونهارا هى مارى .. شظية هذا العصر من براكين الحرمان .. البرق والرعد فى ليالى الحرمان .. ياهذا الحب هل أنت الحب ؟ هل أنت كل هذا العذاب ؟.. ماأعجب الأسرار فى مخلوقات هذه الحياة ؟.. ياإلهى فأين القاموس من طلاسم المخلوقات فى هذه الحياة ؟! .. عفوك وغفرانك .. لماذا خلقتنا ، ومن نحن ، ومن أين ، وإلى أين ؟.. يقولون نصلى ، فأين أصلى ، ولمن أصلى ؟.. هل أركع على قضبان الترمواى وأصلى ؟.. حقا أريد أن أصلى ؟.. يخفق قلبى فأريد لو أصلى فهل أدخل « جامع أولاد عنان » هذا الذى تواجهنى الآن مئذنته السامقة ؟.. أصلى حتى يأتى الليل ؟ .. أبيت فيه بمثل المجاذيب ؟.. أنكمش على بلاطه حتى أذبل وأموت ؟ رحماك ياإلهى فهل أصابنى الجنون ؟ .. أمنيتى الآن لو يحدث زلزال ينشق الشارع ويبتلعنى ، يبتلع الفجالة كلها ، وكل مارى وأهلها !

أمشى فإلى أين ؟ .. خطواتى فى ميدان باب الحديد .. أطل على محطة مصر فكم حلمت بها فى قريتى .. أتجه إلى محطة كوبرى الليمون .. أقف على الرصيف .. المترو والقضبان .. مترو مصر الجديدة .. عقلى الباطن يستنجد باحثا عن صديق ، فهل بقى لى إلا « صديقى نجيب » .. إنه يسكن فى آخر شارع المطار بمصر الجديدة .. منذ أشهر لم أكلمه ولم أقابله بل أنا هارب منه .. نصائحه لى كانت ترهقنى أكثر فماذا تجدى النصائح فى تلك الأمور ؟.. عقاقير الكلام مع

هذا المرض لا ، لا تنفع !.. أذهب إليه الآن فماذا أنشد منه ؟ .. بماذا يملك أن يساعدنى ؟.. بماذا يملك أى إنسان أن يساعدنى ؟ .. المترو قادم بأزيزه على القضبان ، وهؤلاء الذين يرمون أنفسهم تحت عجلاته ، بماذا يحسون ؟.. بتر الجسد فجأة .. وتهشيم الرأس فوراً ، فماذا يحسون ؟!

....

عندما فتح « نجيب » الباب ورآنى ، فرد ذراعيه سريعا ليتلقانى بينهما قبل أن أقع .. كنت أترنح .. هويت على صدره وأنين الكلمات يخرج نشيجا من فمى !.. دخل بى إلى ركن من غرفته وهو يهدئنى مستغربا ومتأثرا !.. إنها غرفة بنسيون أيضا ، ولكن فى الفاخرة هليوبليس .. معه « ضابط إنجليزى » وأمامهما أوراق ودوسيهات وأكواب ، وزجاجات بيرة .. أخذنى نجيب وقبل أن أفسر له أى شىء لأغسل وجهى فى حمام غرفته الواسعة ذات الأركان والستائر .. ظل واقفا يحمل الفوطة حتى جففت وجهى .. نظرت إليه فى امتنان شديد .. وتلعثمت بكلمات الاعتذار عن حضورى غير المناسب .. وهذا الضيف الموجود ! فأنا ، أنا فى أزمة حقيقية ، وليس لى سواه الآن ! برق العطف فى عينيه فانهمرت دموعى ، بل انهمرت مشاعرى فى هلوسة كلام ، فكم أنا يائس وفاشل ومجلود ياعزيزى نجيب ! مارى يانجيب ؟.. التجربة الرهيبة مارى يانجيب ؟.. هذه الفتاة وأختها وأمها يانجيب ؟ .. من ينقذنى يانجيب ؟.. مصممة أن أتزوجها .. أتزوجها ؟.. كيف ؟.. وبماذا أتزوجها وقد أصبحت عاطلاً منذ أسبوع ؟.. فى جيبى خطاب فصل لانقطاعى عن العمل . وإهمالى المتكرر للمواعيد .. هدأنى نجيب .. ضمنى إلى كتفه فى حنو أخ أكبر .. شدنى من ذراعى إلى مائدة الغرفة .. وهيا صب لنفسك أولا « شوب بيرة » ليرطب جوفك وتعال أعرفك بصديقنا العزيز « الميجور كول » !

« الميجور كول » فى الاربعين تقريبا .. بشوش المنظر ، وله وجه حافل برقى الخلقة .. إنه ابن لورد ، وأستاذ أدب مساعد فى « جامعة اكسفورد » ومع حرب هتلر المجنونة فهذا هو يلقى فى سحيق الشمال الأفريقى وله كل ليلة منامة فى خيمة وناموسية فى « معسكرات جنيفة » بالقرب من « السويس » !.. « نجيب » يعقد صفقات التموين مع الجيش الإنجليزى أحيانا ، ويكسب كثير الفلوس !.. كل الناس يكسبون من فلوس الجيش الإنجليزى .. تجار الخيش والصفيح والحصير ، يلبسون الحرير ويشترون العمارات وكله من فلوس الجيش الانجليزى !.. باعة الفول والبصل والتين يركبون فاره العربات وتلمع فى أصابعهم فصوص الخواتم وكله من فلوس الجيش الإنجليزى !.. العمال المعدمون هرعوا من قبلى وبحرى تشحنهم القطارات بعشرات الآلاف وراء فلوس الجيش الإنجليزى !.. « الميجور كول » وجلسته الآن مع نجيب لإتمام صفقة أطنان من نبات الخروع من أجل زيوت الطائرات .. إنه مرتش لطيف طبعا ، فالصفقة تتم فى غرفة بنسيون ، وعلى نشوة البيرة ، ولذة البطارخ .. ولكن رشوته فيها يبدو سهلة وخفيفة ، فكل مطلبه الليلة أن يسهر ويسكر مع أى أصدقاء حتى يأتى الفجر ليعود إلى تلك القاحلة .. لفافة الرمال « جنيفة السويس » .

....

شربت ، شربت كثيرا وخيل لى أننى أبتعد رويدا رويدا عن الدوامة السفاحة التى دخلت بها .. اجتذبنى الخواجة كول فهو مثقف بارع وأديب ذواقة ويخلب لبى ، فلا مانع أن يشتم « تشرشل » و « تشمبر لن » وكل لوردات وجنود الإنجليز ! واشتدت جاذبيته لى عندما حكى بصراحة كيف فى أول مرة رأى فيها الاهرامات وأبو الهول - وكان يومها سكرانا كيف خر ساجدا على الرمال .. حقيقة خر ساجدا على الرمال .. آباء العالم ! . تلك العظمة وتلك

العملقة !.. يومها كيف نزل إلى الناس فى الشوارع ليراهم كلهم تاريخيون .. حتى الحفاة والصعاليك كلهم تاريخيون .. فمن صنع تلك العظمة وتلك العملقة إلا عظماء وعمالقة وهؤلاء هم أولادهم التاريخيون . إنه يحترم مصر ويشفق على عظمتها الذليلة ، ويلعن هذا الاستعمار الذى يدوس بالحذاء على رأس أعظم الشعوب .

« الميجور كول » وقد أحببته سريعا - ومهما كان هذا الكلام منه مبالغة أو مجاملة ، فقد أحسست بالقربى له فورا بعد أن ألقى مرثية للشاعر « شيلى » ، ورأيت الدموع تترقرق فى عينيه . حرك جذوتى المنطفئة ، فانطلقت أناقشه بل أناقشه من غوص التحليق فى غموض هذا الوجود ، أدهشته أحيانا وأفحمته أحيانا ، فنسينا اللوان والجنس وفارق العمر ، فما نحن إلا عقل وعقل .. وهكذا استغرقنا الحديث ! وفجأة دقت ساعة الحائط - وكأنها خبطة تفوقنى وتنبهنى إلى خشبة المسرح التى تنتظرنى .. الساعة الآن العاشرة .. عشر دقات ، وكل دقة أتحفز معها إلى شىء يجب أن يحدث فورا .. مارى والمنتظرون ؟! بريق الدهشة السعيدة والمختالة فى عينيها عندما وثقت من كلمتى بأننى ذاهب لأعود بالمأذون ؟!.. صدقتنى ، فما أحقرنى فهل مازالوا ينتظرون ؟

قمت واقفا مندفعا نحو الباب لأنصرف .. لحقنى نجيب ووقف أمامى ، فلا نزول فإلى أين النزول ؟.. صممت وقاومته ، واستحلفته أن يتركنى فيجب أن أنهى أمرا أشعر به الآن ! .. فاستنجد بالميجور كول أن يساعده فى منعى .. أرغمانى غصبا أن أعود فأجلس ، وكول يسأل مستغربا إيه الحكاية ؟.. حكاية مارى ؟ .. أحكى حكاية مارى .. ؟ ها هى كل حكاية مارى .. فأنا أيها اللورد الرفيع إنسان مصرى ومازلت فى الثانية والعشرين ، جئت من الريف الأخضر إلى القاهرة الحمراء فقابلتنى فتاة تتلظى اسمها مارى ، بركان اسمه مارى .. زلزال

اسمه ماری .. و.. حكيت .. حكيت .. كل المشاهد والتفاصيل وحتى وصلت إلى مشهد إحضار المأذون ، كنت قد تأججت مرة أخرى فوقفت مصمما على الانصراف !

الميجور كول هذه المرة هو الذى وقف صارخًا ليعترضنى ، وله شكل قائد تباغته معركة حربية .. أغلق الباب بالمفتاح ووضعه فى جيبه ، ثم بدأ ينكش شعر رأسه ، وقد استبقى فى يده ورقة الفصل من العمل - من وثائق تدهورى تلك التى أخرجتها وأنا أحكى هاذيًا .. وواضح رغم صرامة شكله أنه اندمج رومانسيًا ومغرقًا فى مشكلتى العاطفية المؤثرة !

تلك الليلة وما حدث فيها .. وما تقرر فيها .. لقد رسم الميجور كول خطة حربية سريعة لاقتلاعى فورًا من معركة الفجالة الضارية ، فيجب أن أغادر القاهرة ! إلى أين ؟ .. إلى « معسكرات جنيفة » ، فهناك وظيفة ، والمرتب خمسة وعشرون جنيهًا ، والأكل والسكن مجانًا ، ولا أجازات ولا عودة من هناك حتى تشفى من هذه المارى .. واهربوا من التجربة كما يقول يسوع المسيح !

وظيفة ؟ .. فى الجيش الإنجليزى ؟ .. تحمس نجيب للفكرة بل هلل لها ، فهى التى سوف تصنع كل الحلول .. وظيفة كتابية سهلة وسوف تجد هناك مئات بل آلافا من أمثالك أولاد الناس الطيبين الغلابة !! .. أما أنا فقد بهت لحظة ، وفاجأتنى مشاعر من مثاليات امتعاض وكأننى أواجه حالة خيانة للوطن .. اشتغل فى الجيش الإنجليزى ؟ .. الأعداء ؟!.. أنا الوطنى المشبوب ؟ .. لا .. لا . آسف .. لست من نوع هؤلاء المئات أو الآلاف !

أنا دائخ ولا أعرف بماذا أرد ونظراتى عليهما حائرة ومترددة .. وللوهلة الأولى تحسسا ما اعترانى وما كنت أفكر فيه ، فأخذا يتضاحكان ويتغامزان وكأنهما أمام غلام مضحك وعنيد .. لم أنطق لهما

بأفكاري فأنا أعرف وأنا ألقيها على نفسى أنها أفكار متهافتة وضعيفة ، فمن أنا وما وزنى حتى أعلن نفسى شعارا أو انقلابا ؟!.. تسعة أعشار مصر المطحونة الممضوغة يستردون أنفاسهم من فلوس الجيش الإنجليزى .. يتعيشون الآن من فلوس الجيش الانجليزى .. الوطن كله يشتغل الآن مع الجيش الإنجليزى .. أعداؤنا الألداء المستعمرون نعم ، ولكنهم الآن يحاربون أنفسهم ويمزقون أنفسهم فى ضراوة الوحوش ، وما نحن لهم إلا محطة ذهاب وإياب .. نكست رأسى ساكتا .. وضح أننى استسلمت !

وفى الفجر - فى العربة بجوار الميجور كول - أعطيت ظهرى للقاهرة .. من مصر الجديدة رأسا إلى طريق صحراء السويس .. لا أستدير ولا أتلفت .. فقط أتحسس عنقى فقد بدأ حبل الفجالة الغليظ يحز فيه - ومهما ابتعدت أيها الهارب فإلى أين الفرار ؟

......

......

أنا عائد من « معسكرات جنيفة » فى عربة الميجور كول ، ولكنه ليس موجودا !.. عائد بعد سبعة أشهر .. لم أحضر القاهرة منذ سبعة أشهر .. بجوارى مجندة سكسونية نحيلة وطويلة وملتهبة الخيال ، ذاهبة إلى أجازتها أيضا فى القاهرة .. اسمها « بياتريس » ، وقد التقينا كثيرا فى خلوات المعسكر .. وعرفت أنها خريجة ملجأ ، وليس لها أحد فأعطيتها عطفا وحنانا صادقا اكتشفت من بعده أنه يمكن أن أكون أنا هذا الأحد .. تقول أنها أحبتنى واسمى على فمها هو « فرعون الصغير » ، ومن أجل هذا رتبت ، بل أغراها الميجور كول - أن يكون توقيت أجازتها معى !

« بياتريس » تلتصق بى وتضغط على يدى .. ويدى شديدة البرودة ، فقد بدأت أنفاسى تتجمد وكلما اقتربت من القاهرة ..

مشاعرى بعيدة وأفكارى الآن كيف أتخلص منها بمجرد أن أوصلها إلى عمارة المجندات بقصر النيل !.. بياتريس تحبنى ويا عواطف الحرب الهوجاء ، كم عدد المجندات البلهاوات اللواتى تعلقن بطولى وسمرتى واستهواهن تعففى وترفعى أو قل سذاجتى وبراءتى .. وقعت معهن طبعا فى قصص غريبة ومغامرات مذهلة من خلوات الليل وأثناء الغارات ، وفرصة الأجساد والأنفاس تدفئ بعضها .. ولكن يا شدة البرودة ، فأنا فى صقيع دائم .. حكاية مارى والروميو أو الكازانوفا المصرى وبعد أن أذاعها وأشاعها المرح « كول » نشرت لى جاذبية خاصة - فهذا هو البرنس الهارب من الحب .. ولقد تعلمت بعد أسابيع قليلة أن أدعوهم وأدعوهن إلى بلاط هذا البرنس والذى أصبح اسمه « لؤلؤه جنيفة » .. الخيمة الملونة ذات الحديقة الصغيرة الخلابة ، والتى تأنقت فى تنسيقها ورشقها بباهر الأركان الشرقية والعصرية - وكله من مخازن صديقى الميجور كول - فبات منظرها يغيظ حتى غطرسة الانجليز .. نعم نجحت وبسرعة - وتفرغى أن أنسى .. صراعى أن أنسى .. فى تأسيس وإشاعة نوع مجتمع مصرى عصرى رفيع المستوى هادئ الكبرياء ، ليفرض احترام الانجليز للمصريين .. فيا غلظة ، ما استقبلتنى ومنذ أول لحظة تلك العزلة البائسة والتحاشى المهين منهم لمعسكر الموظفين المصريين المدنيين .. جاهدت أن أشتته .. كافحت أن أطرده .. فتحولت لؤلؤة جنيفة كل ليلة إلى مرح نفوس وسمر علاقات وجاذبية صداقات تنسى اللون والجنس والدين !

......

بياتريس تلتصق بى وتفرك يدى ساكتة .. « والصول الهندى » المتغطرس يقود العربة متأففا ضجرا من غزلنا الصريح .. انطلق ينهب الطريق فى سرعة مخبولة اسكتت بياتريس عنى ، فقد أخذ قلبى يدق فى عنف وكلما اقتربت المسافات !

قلبي يخفق بعنف بل يعوى ، فأنا لم أنس مارى بالطبع .. كيف بسهولة ؟ .. أنها الحريق المندلع فى مشاعرى ليل نهار .. إدمان أفكارى ليل نهار .. عائد لها وفى خطتى استرضاءات واغراءات ووعود مسرفة كثيرة إلا الزواج .. فى حقيبتى – من النافى – هدايا متنوعة لها ولإخوتها وفى حقيبتى أيضًا كنوز كتابة سوف تلهبها وسوف نقضى متع الليالى فى التلاغي بها .. قصص كثيرة وعجيبة كتبتها بصرير الحرمان منها .. استعدت أسلوبى ، وتفتحت شهيتى ، وترعرع وجدانى ، وعاد طموحى فى أن أصبح كاتبا مشهورا سوف يبهرها قريبا بذيوع اسمه ورواج أحواله ..

ومنذ أسابيع خطرت على بالى فكرة ، يا لها من فكرة .. وكنت قد تابعت فى الصحف والمجلات – « ضجة وفاة الأديبة اللامعة مى زيادة » – وانهمار أعمدة الصحف والمجلات برثائها ونشر القصائد عنها .. الكل يبكى ، والكل يرثى ، بل والتنافس هائل على نشر ما لم ينشر من مخطوطات قلمها .. حسناء الصالون الأدبى وفريدته الاعجوبة ذات الفتنة والبهاء والجمال ، وأسلوبها العصرى المتحرر النشوان .. ومنذ زمان يدهشنى ويأخذ بلبى أن تكون لغادة ناعمة حسناء مثلها هذا الحسن والنعومة فى الفكر والأسلوب أيضًا !.. هل يكتب لها أحد ؟ .. جبران مثلا ؟ .. أو مطران مثلا ؟ .. أو هؤلاء العديدون من عشاقها ومريديها ؟ .. العقاد ، وطه حسين ، وشوقى ، وحافظ ، والبشرى ، ولطفى السيد .. كل أدباء مصر .. بل كل أدباء العروبة وشهرة صالونها القاهرى ذاعت فى كل الآفاق ، وعجبى فلا فضائح من حولها ولا اشاعات ، فهى لوحة الحب والصفاء والجمال الممنوحة للجميع .. يؤثر فى نفسى لوعة هذا الندب والعويل على فقدها ، فهل عقمت الدنيا ولم يعد يعوضها أحد ؟

قفزت الفكرة الغريبة إلى ذهنى .. « مارى » قريبتها ، أو كما تقول

فلماذا لا تكون هى « مى الجديدة » ؟ .. مى التى تحاول أن تعود ، وأنا من خلف الستار أنفخ فى عبقها فلعله ينتشر ويفوح .. نعم فرصة هذا الرنين من رثاء اسم مى الغائب ، أن أقتحم به اسم مى الحاضر والموجود .. ولم أتردد ..

وذات ليلة فى قمر جنيفة والكل نيام .. أمسكت ورقة وقلما ، وكتبت خطابا للأستاذ « محمد التابعى » - صاحب وأشهر وأروج مجلة أسبوعية فى الشرق العربى كله - « آخر ساعة » - أقدم له نفسى فأنا فتاة اسمها « مارى » قريبة للراحلة الكبيرة « مى زيادة » ، ومنها تسرب حب الأدب والكتابة إلى نفسى - وإليكم « قصة قصيرة » من أفكار بنات الجيل الجديد ، فأنا جامعية فى الثانية والعشرين ومن أسرة تقليدية محافظة تحظر على بناتها العمل والظهور ، ومن أجل هذا أرجو الموافقة على أن أتخذ توقيعًا مستعارًا أداوم الكتابة به لكم هو « مى الصغيرة » - هذا إذا راق لكم نشر ما أرفقه ، وعندى من نوعه الكثير سوف أتشجع وأرسله إذا شجعنى سرعة نشركم القصة المرفقة .. وتفضلوا .. !

كتبت الخطاب يومها .. طويت أول قصة وضعتها فى ظرف أنيق .. الصقت طابع بريد بقرش صاغ .. كتبت عنوان آخر ساعة بعمارة بحرى ميدان الاسماعيلية - وألقيته فى صندوق البريد !

نفذت تلك الفكرة قبل عودتى للقاهرة بأيام ، وتوقعى إذا قدر لها أن تنشر أن يكون هذا أثناء وجودى مع مارى لكن توقعى كان يائسا وضعيفا ، فقد اعتبرت أن خيالى إنما يهذى ويحلق فى هيمانات بعيدة التحقيق .. بل يائسة التحقيق !

......

أنا عائد للقاهرة بعد غياب سبعة أشهر ..

فى جيبى « مائة جنيه » .. حقائبى مازالت فى « بنسيون فيوليت »

عند « مدام آدمة » .. وهذه الفتاة « بياتريس » مصممة ومتشبثة أن أفرجها الليلة على معالم القاهرة !.. وعندما أصل بها إلى مقر إقامتها سوف أعطيها الميعاد أمام « سينما ديانا » التى تعرفها – وفى نيتى إذا وجدت مارى وحتما سوف أجدها .. فمع السلامه بياتريس أو حتى اليزابيث الملكة نفسها !

« الأســـوار »

القاهرة ٤٢ - ٤٣

أنا عائد بعد سبعة أشهر غياب وعذاب ، من لفافة الرمال الخشنة فى صحارى السويس ، والتى اسمها « جنيفة » !.. شارع الفجالة ودموعى تطفر حرمانا ، وبنسيون فيوليت يا خفق القلب .. ومدام آدمة كيف بالله سوف تستقبلنى ؟!

فى جيبى مائة جنيه وأكثر ، من مرتباتى التى لم أكن أصرفها فأين أصرفها فى عراء جنيفة .. لهفتى حارقة إلى أشياء عديدة ، أهمها ورغم كل شىء أن أرى مارى ، أستعيد مارى .. لا فائدة ولا جدوى من أى هرب - فهذه الفتاة هى قدرى الواقف يمنع أى مرور ..

صدمتنى مدام آدمة بجفوة استقبالها .. لم تنس ولن تنسى منظرى وأنا أقول أمامها : هأنذا خارج لأحضر المأذون ليزوجنى مارى فورا !.. خرجت من يومها وها أنا عائد بعد سبعة أشهر فماذا كنت أنتظر منها ؟ .. بادرتنى بأن غرفتى مشغولة ، وكل الغرفات مشغولة ، وعفشى ها هو فى غرفة السفرجى « عرفان » !.. قالت هذا حاسمة وباترة لأى كلام قد أقوله ، بل استدارت بظهرها تنادى عرفان ليتصرف معى !

صدمتنى وجرحت مشاعرى .. وفكرت أن أغضب وأن أثور

فما هكذا يتعامل البشر المهذبون ؟ .. ولكن لماذا ضياع الوقت ، فماذا عاد يهم بنسيون فيوليت هذا بشكله الراكد ووجوهه القاتمة ، وعينى منذ زمان على « بنسيون كنج فيليب » !.. فى أحلى عمارات شارع الفجالة ، عمارة « الخواجة قرصاتى » ، وصاحبته العجوز العرجاء « مدام موريس » ، والغرفة فيه بثلاثة جنيهات فى الشهر وبوسعى أن أستأجر أسبوعًا .

وطرقت الباب على بنسيون مدام موريس .. استقبلتنى للوهلة الأولى فى تأفف من منظرى المشعث المترب وعفشى الغريب الصادئ - ولكنها عندما تذكرتنى فتحت لى ورحبت !

« مدام موريس » أرملة حاجب سابق كان لامعا فى المحكمة المختلطة .. محكمة الامتيازات الأجنبية والقتل للمصريين مجانا أحيانا !.. وهى قزمة مالطية معوجة الملامح ، وتمشى دائما على عكازين فساقها وذراعها مشلولتان .. وذات مرة كنت أعبر الشارع ورأيت بعض الصبية الأشقياء يخطفون عكازها .. ووقفت مسكينة حائرة ، فتطوعت أن أكون عكازًا لها حتى أوصلها إلى باب البنسيون ، والذى دعتنى يومها إلى دخوله ، فبهرتنى غرفاته وأناقة أثاثه وهذا الهدوء الغامر الذى يكسوه .. تذكرتنى وعرفتنى ، فقد أطلت الكلام معها يومها ، وقرأت لى عن مستقبلى فى الفنجال .. ولكنها هذه المرة ، وأنا أخرج لها ورقة من فئة خمسة جنيهات ، صممت أن لا إيجار عندها بالأسبوع بل بالشهر كاملًا !.. دفعت لها الجنيهات الثلاثة بلا تردد ، واختارت لى حجرة تطل شرفتها على كل شارع الفجالة .

خرجت .. صرفت خمسة عشر جنيها كاملة فما المانع .. مشتريات سريعة من ثياب ، وقمصان ، وبدل جاهزة ، وما أشتهى من احتياجات وأناقات ، وحتى الكولونيا وبرينتين الشعر .

أخذت حماما طويلا جيدا ، فهنا الماء الساخن من الحنفيات وليس

بمثل وابور جاز مدام آدمة .. استرخيت على السرير السفنج بعض الوقت أرتب أفكارى ، أحاول أن أرتب أفكارى .. وماذا عن أفكارى وخططى كلها إلا أن أقابل مارى .. أذهب إلى شقة « الخالة زاهية فى شرم الفجالة » فهى التى بوسعها أن تحضر مارى ، بل قلبى يحدثنى سوف أجدها عندها الآن ؟!

......

فوجئت « زاهية » برؤيتى وأخذتها الدهشة برهة من فخارة منظرى .. كانت وحيدة مع القطة والابرة والفتلة والهلاهيل وعفونة الروائح .. المنظر وكما تركته لم يتغير .. الكنبة المتهدلة المرقعة ، والمقاعد المكسورة ، وشظايا من قش وقشر وخشب ومزق ، ثم مرتبة النوم المطوية دائما على البلاط !

أحاول بمجرد دخولى أن أستنشق عبير مارى ، فكم يتحول هذا المكان الحضيضى إلى وهج وعطر ومهرجان عندما تكون مارى فى أحضانى !

زاهية على منظرى فى دهشة وبلادة ، ثم لم تلبث أن انفجرت ملامحها ولاكت لسانها ، عندما رأتنى أخرج رزمة الخمسات وآخذ منها واحدة أضعها فى يدها .. وهيا هيا يا خالة زاهية وجهزى ما تقدرى لنا من مشويات ومشهيات وكل الطازج والحريف من سوق شرم الفجالة !.. تناولت المرأة الورقة منى فى وثب وحيوية ، ولكن لم تلبث بعد لحظات أن هبطت وترددت فهل أنا وحدى أم أنتظر واحدة ؟ .. واحدة ؟ .. من غير مارى أيتها الخالة زاهية ؟ .. وعليك من أجل هذا أولا وقبل كل شيء أن تخطفى رجلك إلى شقتها - طبعا مازالت فيها ؟ .. أومأت براسها فى وجوم أن نعم .. حسنا .. دفعتها حانيا نحو الباب وأنا أواصل تعليماتى .. ثم تهمس فى أذنها عن وجودى الآن عندك ، ولتحضر فورا فلها عندى هدايا كثيرة وأخبار أكثر .

زاهية نكست رأسها برهة قبل أن تسألنى ، فهى لم أعرف أن مودموازيل مارى خطبت وزفافها بعد شهر ؟ .. يوزباشى فى سلاح الفرسان اسمه « رؤوف » ؟!

تساندت أتلقى الصدمة المدوخة والتى أبدا لم أتوقعها !.. مارى مخطوبة وزفافها بعد شهر ؟ .. رؤوف .. من رؤوف ؟ .. ومتى ظهر ، وكيف ظهر ؟ .. استعدتها مرة أخرى بل استعدتها عدة مرات .. لا فائدة ولا جدوى فالأمر حقيقى وها هى صورة العريس بدأ يوزعها على أفراد الأسرة - وعند زاهية واحدة كارت بوستال - وجه وسيم متألق ، وفيه ما يشبه البله ، و ضيق العينيين جدا ، ولكنه يتوهج فى ثيابه العسكرية ودندشة الفرسان على كتفيه العريضين .. كيف وجدته ؟ .. كيف وجدها ؟ .. وأنا ؟ .. يا إلهى رحماك - بوابة جحيم جديدة تنفتح أمامى !!

جلست منهارًا آخذ رأسى بين يدى فى وجوم ضاغط ذاهل .. أحملق حولى ولا أتكلم .. والمرأة حائرة تلف ورقة الخمسة على أصابع يدها وتتردد أن تعيدها لى .. بقيت واقفة تنتظر وقد ألجمها منظرى البائس .. أشفقت على منظرى البائس .. صنعت لى قهوة .. شربتها بعد أن بردت !.. المرأة تحاول أن تكلمنى لتسرى عنى وأنا لا أسمعها ، لا أعى ولا أسمعها .. اسم رؤوف يحز فى رقبتى كالسيف .. اسم مارى تلافيف ثعبان فى حلقى .. تحكى عن عربة رؤوف الفزدقية ، والقصر الريفى الذى أخذهم إليه ذات نهار فى « الفيوم » .. أنه من « عرب الفيوم » ، وصدقنى ، مارى وهذا هو حظها ، ولكنها لا تحبه .. مارى لا تحب أحدا ولن تحب أحدا ، وإذا راق لها يوما أن تكون قد أحبت فهو أنت .. لقد رأيت هذا بعينى فيها هنا .. وهى تسند رأسها على صدرك وكأنك بيتها المختار !

أحملق فى زاهية ونظرتى باهتة وبلهاء .. قلت وأنا أخرج الكلام

حشرجة من فمى - ما رأيك أن تذهبى رغم هذا وتبلغيها عن وجودى ؟ .. هزت رأسها فى إصرار بما يعنى أن لا فائدة .. توسلت إليها أن تحاول .. ألححت واستعطفت أن تحاول .. لها ورقة الخمسة تلك كاملة إذا تمكنت من إحضارها إلى هنا .. قولى لها أننى غير موجود .. افعلى أى حيلة .. تنمرت نظرات المرأة على الورقة .. دستها فى صدرها ، ثم خرجت !

......

بقيت فى الانتظار طويلاً حتى عادت بوجه يحمل الحسرة وخيبة الأمل .. وضعت ورقة الخمسة أمامى ، وفى صوت جامد غامض قالت إنها لم تجدها !.. لم أصدقها فماذا حدث ؟ .. ألححت أن تقول لى حقيقة كل ما حدث ، فانهمرت دموعها فجأة ، وحكت لى عن المهانة التى تعرضت لها بسببى .. لقد ضربتها الست وديعة - أم مارى - بالشبشب ، وقذفتها بالطبق ، وطردتها على السلالم أمام كل السكان .. ومارى هى السبب ، فبمجرد أن سمعت اسمك وسيرتك ، وأنا أهمس لها عن ظهورك ، جنت وصرخت وانفجرت وقالت كلاما وسبابا كثيرا !.. صممت أن أسمع .. استعطفتها أن تقول كل شىء !.. تقول أنك جبان وحقير وناقص رجولة وحذار أن تقترب منها وإلا قضى عليك خطيبها الظابط الخطير ، وعيب عليك يا فلاح يا تافه أن تفكر فى بنت ناس أصبحت مخطوبة وزفافها بعد شهر !.. بنت ناس ؟!!

المرأة زاهية - وبعد أن طالت جلستنا الساكنة الكئيبة - أغراها هدوئى البادى فعادت تنظر إلى ورقة الخمسة الطريحة على الكرسى وتسألنى - هل لك رغبة أن أصنع لك أكلًا أو أحضر مشروبا ؟ .. ابتسمت - ضحكت .. قمت واقفا أتمطع وأفرك يدى وعينى تستعرض المكان .. وكر العشق ومأوى حار الذكريات !.. وخطر على بالى خاطر أهب منى الخيال .. هذا المكان ؟!.. وكما قالت - بنت الناس -

لا يخفى فيه سرا ، فلماذا لا أصنع له سرا سريعا يطفئ الغلة مما أنا فيه !

قلت للخالة زاهية - وقد بدا لها أن معجزة قد أفاقتنى من أزمتى - أن هذه الخمسة لتكون لها إذا عدت بعد ساعة ووجدت هذا المكان مرتبا ونظيفا ولائقا ، فسوف يكون معى ضيوف !

كانت الساعة الثامنة وميعادى مع « المجندة السكسونية بياتريس » فى التاسعة !

......

وجدت بياتريس واقفة أمام سينما ديانا .. خلعت ثيابها العسكرية - وتلك منها مخالفة خطيرة - وغامرت من أجلى - كما قالت - بهذا الفستان الأزرق الخلاب !.. « بياتريس » المسكينة لا تدرى أنها فقدت ثلاثة أرباع إغرائها من خلع الملابس العسكرية .. بدت نحيلة عجفاء كعود القصب الأبيض الذاوى !

« بياتريس » لطخت وجهها أيضا بالبودرة والألوان ، فهل ينقصها ألوان ؟ .. ويا غرابة حواء - سواء هنا أو هناك - فهى تذكرنى الآن بخادمات الفجالة وهن يتعثرن فى أردية الغانيات وألوان الصائدات .. تمشينا .. ذراعها فى ذراعى ، جذلة ومنتعشة وطروب . أنها فى لهفة إلى غوامض الشرق ومغامرات تلهب الخيال .. تحدثنى مرة أخرى عن وحدتها الرهيبة فى هذه الحياة .. خريجة الملجأ ، والتى لا تعرف لها أبا أو أما أو خالا .. وماذا بعد أن تنتهى الحرب وتعود ؟ .. إلى من تعود ، وبماذا سوف تعود ، الا بخفق ذكريات شرقية حارة مثل تلك التى هى فيها الآن ؟.. كم تتمنى - وليحدث ما يحدث - لو تكبر بطنها على فرعون صغير له مثل تلك السمرة والعراقة والكبرياء !

بياتريس البائسة يتهور خيالها ، ويجمح ويتجرأ ، فهل تدرى عن اعصار الصقيع الذى أنا فيه الآن ؟ .. أنا فرعون مسلوب الروح ،

وأمشى معها بجسد محنط خاو من الاحشاء وكل الأعضاء .. كم أصبحت أكره النساء .. كل النساء .. يقولون ضعيفات واهنات ، فمن أين لهن إذن تلك القدرة المخفية المخيفة المدمرة التى تمضغنى الآن تحت أسنان هذه المخلوقة مارى ؟ .. الأنثى الصغيرة الضئيلة مارى .. الستين كيلو من هش اللحم والجلد والعظم مارى !

......

« بياتريس » متهللة وموافقة على أى شىء وأى مكان وأنا أدخل بها مستهترا مخبولا وبلا مبالاة ، إلى مستنقع هذا السوق من بركة شرم الفجالة ، ثم إلى الشقة القمامة !.. لم تستنكر الفتاة ضعة المكان وحقارة الأثاث ، بل ألهب خيالها وهام بها افتتانا وحماسا – وكأنها فى لفافة من سراديب ليالى الشرق وألف ليلة .. هللت وانتشت .. خلعت حذاءها وفكت أزرارها ، وطرحت نفسها أرضا كمن تريد تقول : شبيك لبيك يا فرعونى الصغير عبدتك بياتريس بين يديك !

وبعد وقت لم يطل .. كانت المائدة قد امتدت ، والمرتبة المفروشة قد سويت ، والأقداح والرؤوس قد تطوحت ، والخالة زاهية قد انصرفت – وتعالى أنت يا هذه الإنجليزية البيضاء الشقراء لأذل فيك كل الشقر والبيض من هذه الدنيا !

تمضى ساعة .. وساعة أخرى .. بياتريس بجوارى خامدة هامدة تتنفس رجفة النشوات . منظرى الدميم البذىء بجوارها ، ولا شىء إلا أننى بت قمامة من هشيم بشر يحتاج إلى مكنسة !

لا أعرف كم مضى من الوقت حتى سمعت الطرق على الباب .. قمت خاملا مترنحا ، فلابد وأن زاهية قد عادت .. أفتح الباب ومنظرى فاضح مشعث .. ارتد إلى الخلف فورا فيا للمفاجأة ، يا سريع المفاجأة .. من ؟ .. من ؟ .. انها مارى !!

......

« مارى » واقفة جاحظة العينين على ما ترى ، فقد انفتح الباب

على المصراعين ونظراتها مسددة كطلقات الرصاص على الطريحة الصريحة بياتريس !

فجأة – هوت على وجهى بصفعة قوية .. رددتها لها فورا فى صفعتين أقوى وأشد .. ونشبت بيننا سريعا معركة هوجاء ، تمزقت فيها الثياب ، وحفرت بالأظافر على الجلد ، والأصابع المتشنجة تشد الشعر من الجذور – بينما « بياتريس » تجمع ثيابها مهرولة وتمرق من الباب فارة مرتعة مذعورة !

بقينا – أنا ومارى – طريحين لاهثين .. هى منهارة على الأرض وتستند بظهرها على الجدار ، وأنا جالس مشرئب ومرتعش بجوار الجدار الآخر .. نتبادل نظرات كراهية نارية محمومة .. ثم رأيتها فجأة تمد يدها نحو حقيبتها الملقاة بجوارها لتخرج منها لفافة « مجلة » ألقتها فى وجهى بكل قواها وهى تصرخ – ولماذا بعد أن تركتنى تتجرأ فتستعمل اسمى ؟

رمقت عينى لفافة المجلة التى سقطت بجوارى .. إنها مجلة « آخر ساعة » فماذا تقصد ؟ .. أستعمل اسمها فماذا تقصد ؟ .. ما هذا وماذا بتلك المجلة ؟ .. ارتج صدرى بطريقة زلزال فى الطريق وأنا أفر الصفحات .. أقرأ الصفحات وأتوقف عند الصفحة ٢٤ .. ويا إلهى فما هذا ؟ .. العنوان ، والاسم تحت العنوان ، بالبنط الكبير ، والصفحتان ٢٥و٢٦ كلها والتوقيع أيضا فى النهاية .. قصتى !.. أول قصة !.. « يوميات مهاجرة » !.. « قلبى فى يدى » !.. قصة بقلم مى الصغيرة !.. يا له من دوار هائل قد أمسكنى .. الرعشة قد تملكتنى والتيار الساخن يسرى بل يغلى فى عروقى .. يتلاشى كل شىء من أمامى .. لا أرى مارى ، ولا بياتريس ، ولا زاهية ، ولا الفجالة ، ولا جنيفة الانجليز ، ولا أى معالم !.. قصتى منشورة بالكامل !.. مى الصغيرة ولدت !.. أقرؤها .. كيف أقدر أن أقرأ والفقرات ترقص وتقفز من عينى إلى انفجار النشوة الهائل الذى انتشر هادرًا فى

وجدانى !.. أعود وأفر الصفحات .. كل الأعلام من كتاب مصر وأساتذة مصر لهم هنا أسماء وصور وعناوين وكاريكاتير .. مقال التابعى وله بنط الاسم بمثل مى الصغيرة ، وريشة صاروخان ترسم مشهدا من قصتى !.. أراهن بل أكاد أصرخ فى جنون بأن عدد آخر ساعة هذه المرة ، وأهم مادة فيه هى تلك القصة لمى الصغيرة .. أتحدى ما سوف تحدثه تلك القصة من طنين ؟ .. وتساؤل منذ متى وزع هذا العدد ؟ .. تاريخه ٢٥ مايو ، ويا إلهى فأنا أعيش الآن فى ٢٥ مايو فكيف نسيت ؟!

ماری تراقب ما اعترانى فى دهشة وتساؤل .. تبرق عيناها فتزحف تقترب منى .. تلمس ذراعى .. تلتصق بى .. تسند ظهرها على صدرى .. تموء كقطة جريحة تبحث عن دفء بيتها .. أنا لا أراها ولا أحسها ، بل أنا ذاهل وهائم ومأخوذ ، وأرفع المجلة بذراعى .. وكأننى احتضن حبيبتى الجديدة ، الرائعة التى تطل على الآن من ثقوب الأسوار الغليظة تنادينى أن أقوم وأهرع مسرعًا إليها فقد أصبحت حقيقة ووجودًا !

ولقد وقفت حقا كمن ألبى النداء فورا .. تركت رأس مارى يقع .. وأخذت أرتدى ثيابى فى هدوء غامض مسلوب .. لم أتعجل . ولكن لم أتكلم أيضًا .. قضيت فى ربط خيوط الحذاء عشر دقائق مثلا !.. سرحتى غريبة ومريبة فى أننى قد أكون شفيت من مارى فجأة .. حمى وادمان مارى ، والاعصار ينحسر فجأة .. يسرى فى بدنى إحساس الثقة والغبطة - وكأننى أؤلف رواية من لحم ودم وقد قررت الاستدارة بأحداثها فجأة .. تجربة مارى الرهيبة يا إلهى فقد تكون انتهت .. يسقط الستار منها أمامى الآن على آخر فصل من أول مسرح أدخله فى هذه الحياة .. وهذا أنا الآن جاهز فورا لأقطع تذكرة جديدة فى مسرح جديد من فصول هذه الحياة !

« ماری » جاحظة العينين على منظرى فى استغراب وتحد . لا تتكلم ، ولكنها تشعر أن حدثا غريبا قد شدنى بعيدًا عنها فجأة .. لم أهتم .. كنت شاردا جدا بل بعيدا جدا .. أنتهى وأفتح الباب لأنصرف والمجلة فى يدى ، ولكنها تستوقفنى فى زمجرة صيحة تطلب أن أترك المجلة فهى صاحبتها .. المجلة فى يدى ومفتوحه على الصفحة ٢٤ .. أغلقتها ساكنا ، ووضعتها على المقعد فى أدب وهدوء ، ثم فتحت الباب وانصرفت !

......

أنا عائد فى تاكسى من مصر الجديدة والساعة الآن الواحدة صباحا .. رأسى ثقيل ومتطوح فقد شربت كثيرا وشبعت زهوا وسعادة .. كنت عند صديقى « نجيب » .. منذ الضحى عند نجيب .. فقد استيقظت فى الصباح وأول شىء فعلته هو كتابة قصة جديدة لآخر ساعة - وتحت العنوان وبالخط الواثق « بقلم مى الصغيرة » .. ثم قصة أخرى لمجلة جديدة اسمها « كلام الناس » ، وقد أغرانى فيها اسم وبريق محررها البازغ « مأمون الشناوى » ، وقد أرفقتها بخطاب له شبيه بخطاب التابعى .. وبطريقة طابع القرش صاغ ، وضعتها فى صندوق البريد ، وركبت المترو إلى مصر الجديدة !

« مى الصغيرة » هى سرى الحافل الجديد ، ولسوف أتكتمه عن الجميع ، حتى عن صديقى نجيب .. فخيالى مندلع وجامح ومتلاطم ، ويعوم فى بحر من الأساطير ، ويرسم غرائب الأشكال والتوقعات لحبيبتى الباهرة المطلة من بصيص الأسوار !

ولقد كانت قصة آخر ساعة المنشورة تلك - وبكل الحرص منى - فما تحدثى عنها إلا استدراجات للاختبار ، هى نجمة السهرة عند نجيب وأصحاب نجيب .. كلهم مثقفون وقراء صحف ومجلات .. من قرأها استدرجته أن يتحدث عنها ، ومن لم يقرأها اجتذبته لقراءتها - فقد كان الإغراء لها أن القصة غير تقليدية وصريحة وجريئة ، وكاتبتها

المقنعة تحاول أن تمنح الرجال الكثير الوافر من أسرار الأنثى .. ولقد أحسست بالرعب من معركة التنافس والتساؤل بينهم على من يقرأ أولا ومن يعلق أولاً !.. فمن تكون هذه الكاتبة ؟!.. هل نشر لها من قبل ؟!.. هل هى عشيقة جديدة للتابعى ؟!.. وهل هى جميلة وحسناء أم خنفشارية ودميمة ؟!.. أم ترى تكون رجلا ويخدعنا ؟!.. يا إلهى وهذا كثير على مشاعرى ، فهل أفشى لهم سرى ؟ .. لا .. لا .. وساعدنى يا رباه !

......

عجيبة أن أنسى مارى هكذا .. لا أصدق نفسى فلابد أن نفسى تخدعنى – فأنها لم تخطر على بالى طيلة جلوسى ومرحى مع نجيب وأصدقائه .. بل لقد تطرفت فى مشاغبة مشاعرى وتحديها ، فقضيت بعض الوقت مع التليفون أبحث لعلنى أعثر على المظلومة « بياتريس » لأسترضيها عن أحداث ليلة أمس !

......

دخلت « بنسيون كنج فيليب » لأجد الردهة مضيئة ، والسفرجى « زيتون » واقف وأمامه تجلس الست وديعة والست زاهية فى انتظارى ومنظرهما متهيج !.. وقد قفزن نحوى بمجرد أن رأتانى فأين مارى ، وهل كانت معك ؟

وفوجئت بالحكاية العجيبة !.. مارى ومنذ ليلة أمس لم تعد .. اختفت !.. دهشت وانكمش دمى لحظة خاطفة ، ثم تمالكت نفسى وأكدت لهما كل خطواتى ومعلوماتى وفى صدق هادئ متزن أحستا به فورا !.. وبدأ التساؤل فى قلق فأين ذهبت إذن ؟ أدهشهما برودى وتعجبا من قلة حماسى ، بل استفز هذا الهدوء والبرود غضب ست وديعة ، فعلا صوتها يحذرنى من أكون قد أخفيت أو سوف أخفى ما قد أعلمه من أمور مارى ، فإن خطيبها رؤوف يقلب الدنيا بحثا عنها منذ طلعة النهار ومسدسه مفتوح فى يده .. وأول الشك له فى غريمه السابق

الذى هو أنت ، فخذ الحرص لنفسك منه وأبلغنى بأى شىء تعرفه أو قد تعرفه .. بل ساعدنا فى سرعة ايجادها ، فهو مجنون وابن اكابر عرب الفيوم .. صحت فيهما زاعقا بأن لا شأن لى ، وأننى لا أخاف رؤوف هذا ولا أعظم منه .. تراجعتا من أمامى مهرولتين نحو الباب فقد كانت غضبتى عنيفة وضارية .. وعندما أغلق الباب ، تحرك « زيتون » من خلفهما وأكمل الغلق بالترباس .. ثم نظر نحوى بحنان ، ورجانى أن آخذ الحرص على حياتى من هذا العاشق المجنون ، بل أحسن أن أبلغ البوليس فالمسدسات فى اليد تقتل طبعا !

مسدس ؟ قتل ؟ .. يا إلهى ، هل لم تنته معركة مارى ؟!

« جنون القمر »

القاهرة ٤٢ - ٤٣

استيقظت فى الصباح على طرق الباب ، ووجه مدام موريس بعكازيها ، ثم اغلاقها الباب بهدوء ، ودعوتى أن أجلس بجوارها على الكنبة الأستديو !.. نهضت سريعا فقد - كان صوتها ودودا طيبا غريبا ! .. فتحت لى كف يدها تبرز الجنيهات الثلاثة التى دفعتها ايجارًا لغرفتى هذه .. وصارحتنى فورا فيحسن أن أبحث عن أى بنسيون ، بل أحسن أن أكون الليلة فى مكان آخر غير القاهرة كلها !

« زيتون السفرجى » حكى لها ما حدث ليلة أمس عندما كانت نائمة .. المرأتان المولولتان ، والفتاة الهاربة ، والضابط الفيومى والمسدس المفتوح فى يده ! .. رددت مطلبها ونظراتها نحوى عاطفية ومشفقة كمن تتصورنى قتيلا أمامها .. كان النوم مازال يرفرف فى عينى فلم أعرف ماذا أرد عليها إلا أن أحملق فيها ساكنًا مستغربا وقد تملكنى الحياء من عملية الطرد الصريحة تلك .. وفى نبرة عطوفة يا شدة ما تهزمنى فورا فأتهاوى ، فأنا فى حرمان شاسع وهائل من الأمومة والأبوة والأخوة والعائلية منذ توغلت مقتحما هذه الأدغال الوحشية لتلك القاهرة .. تهاويت أمام الأم موريس .. صارحتها بأننى لم أنم حقا طيلة الليل ، إلا قبل دقائق من دخولها .. هناك أشياء حائرة وعويصة

كثيرة فى حياتى يا أم موريس .. تقلقنى وتؤرقنى وتقض مضجعى حقا ولكن والله العظيم وأقسم لك ليس منها حكاية هذا الضابط الفيومى بسدسه المفتوح !.. حكيت لها .. حكيت ما قدرت عن مارى ، وعن أمها ، وخالتها ، وأختها ، وبنت عمتها ، وكل هذه القبيلة التى مرقت من أسرها فجأة منذ ليلة واحدة فقط .. صدقينى يا أم موريس . ومنذ ليلة واحدة فقط انتقلت إلى أسر أكبر لا أعرف كيف أصفه وأفسره لك .. صراع أهم وأكبر وأخطر عن المستقبل والمصير والحياة !

قاطعتنى فلم تفهم أى شىء مما قلت إلا أن حياتى تلك التى أتكلم عن مستقبلها ومصيرها مهددة بالتوقف الآن فى أى لحظة بمسدس مفتوح !.. أنصت إلى نصائحها راضخا ساكتا راضيا ، والواقع أننى وقبل أن أنام – كنت قد حسمت تفكيرى على قرار – هو العودة السريعة إلى قمر جنيفة فى ليالى صحراء السويس ! .. قمر جنيفة وعندى له مفاجأة مناجاة .. لهفة نشوة ومناجاة .. هذا الحلم القديم الطويل السارى منذ الصبا والذى قفز فجأة ليفتح بابه على المصراعين !

......

......

أنا فى « جنيفة السويس » وقد مضت الآن تسعة أسابيع – ومن بعيد ، من عند قمر جنيفة ، هذا أنا أحرك لعبة عرائسى الرائجة النشوانة ، والتى اسمها « القصصية مى الصغيرة » ! .. كبر حجمها وسرى صيتها ، ويأتينى طنينها المسترسل على جناح البريد من قاهرتى الطبقية المتكبرة المحتكرة !.. « آخر ساعة » نشرت ، للكاتبة مى الصغيرة قصتها الثانية والثالثة والرابعة ، وكل ما أرسله لها من هناء .. بل أنها أخذت تتسلل به إلى الصفحات الهامة وتنبه عن عطرها الفواح فى أرجاء كل عدد !.. مجلة « كلام الناس » ويا شدة ما تكهربت

نظراتى عندما قرأت برواز المقدمة بتوقيع « رئيس تحريرها مأمون الشناوى » وهو ينشر أول قصة عنده ويقول : « سواء كانت هذه القصة بقلم فتاة أو امرأة أو رجل أو أى سنكوح فهو أسلوب كتابة جديد يستوقف النظر ويستحق النشر ! .. « مجلة الاثنين » - كبرى مجلات دار الهلال ، والتى قفز بها « مصطفى وعلى أمين » إلى أكبر توزيع - ها هى فى الصفحة الوسطى ، أهم منطقة فى المجلات .. « قلم مى الصغيرة يقتحم المعركة ضد أعداء المرأة الثلاثة توفيق الحكيم ، وتيمور ، وعلى أمين » .. مقال العدد الهام وأسلوب الأنثى العصرى الشهى يسيل اللعاب على صفحتين ، وكلمة أستاذة - كتقاليد دار الهلال - تسبق اسم « مى الصغيرة » !

هكذا أعيش مع قمر جنيفة فى حالة جنون .. هذيان وجنون .. استلمتنى الرعشة المتواصلة من حمى القمر حتى ولو كان محاقا فى جوف الظلام .. حمى القمر أو جنون القمر - تعبير ريفى من قريتى لا أنساه منذ وأنا صبى حالم نائم على سطح البيت أحملق شرها فى اكتمال البدر .. نهتنى أمى عن ذلك التحديق وإلا غطست فى بحره الفضى مع جنياته الساحرات فيمسسن عقلك وينفخن فى عينيك هواء الجنون !.. هذا أنا وقمر جنيفة فى حالة جنون .. أهيم معه وأحلق حواليه بل أسبح فى بحاره - ويا ملك الالهام أين تضعنى الآن من تلاميذك ومريديك ؟ .. هذا أنا أحوم فى فلكك ، مغامرا فى فلكك ، مركبتى من ورق نعم . ولكنها من نسيج شعاعاتك التى لا تبلى .. زيوتها خدعة بيضاء .. نعم .. شريفة بيضاء نعم ، ولكنها تحاول احتواء المسافات البعيدة من رحلة العمر القصير .. ويوما ما سوف تهبط وتستقر وتتهذب وتستغفر !

هكذا أنا وقمر جنيفة فى حملقات الجنون .. أرتب على سطحه قوافل الأساطير ، بل أحددها وأضع لها الأماكن والمواعيد .. وكل يوم لى

البريد الذى أوزعه من هنا - وفى تخطيط لاقط حريص - على عديد الأجنحة الصحفية ! .. والمثير والملهب أن كل شىء أرسله بات ينشر فور وصوله .. خطتى أن أكبح جماح نفسى وأتماسك فأستمر مختفيا متواريا سنتين بل ثلاث ، حتى ينضج الاسم فى عيون القراء فيطلبون من الطابخ المزيد ! .. ويا خبل خيالى حينما كانت تهيم بى المشاعر فى آفاقها السارحة فأتصور أن تلك الفتاة التى يكبر حجمها الآن ، والتى أحس أنها باتت موجودة فعلا ، قد تنكرنى حينما يأتى الوقت الذى يتحتم أن تنسحب لآخذ مكانها !

......

أشهر جنيفة الصاخبة العجيبة التى أقضيها تلك ، وإحساسى أنها « قلابة حفر » تجرف فى أعماقى وتبحث عن غائر المناجم والينابيع .. هذا المجتمع الذى أنا فى لفافته ؟ .. الانجليز ذوو الصيت وأسياد الحضارة وملاك العالم ؟ .. ها هم معى والسلة واحدة !

ومنذ الصغر كان يقرصنى هذا الشعار الذى أطلقه « الشاعر الأوربى « كيبلنج » فأصبح وثيقة كونية . الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .. يقرصنى ويستفزنى ويستحثنى فأرفع رأسى مستفسرا السماء ، بل غاضبا مستغربا فهل نحن غرب وشرق إلا بشر من نطفة أب واحد ؟

ها هم الانجليز عمارة هذا الغرب بل أفذاذه .. فرصة أن أراهم وأتأملهم وأعاشرهم بل أغوص فيهم .. ومنذ الصغر أيضا ، كان من أحلامى البائسة المستطيرة لو كان أبى باشا أو غنيا فيرسلنى لأتعلم فى مدارس بلاد الانجليز .. أجرب الرضاع من طاقاتهم القادرة تلك ، وأتغذى من هواء هذا التفوق الذى يختالون به على هامات كل البشر .. حرياتهم التى يمجدونها ويحتكرون امتيازاتها لأنفسهم ؟ .. ثروات عقولهم التى يتفاخرون بها فى الأدب والروايات والأفلام ؟ ..

يا شدة ما ألهبنى هذا الأدب الإنجليزى والشعر الإنجليزى ، وأيضا هذا الزهو الفرنسى والألمانى والروسى والأسبانى والإيطالى .. أدب يتعالى ويتعاطى مع نفسه فقط وكأنما العالم من خلف أوروبا مجاهل وأحراش ومستنقعات ! .. أوربا تلك القارة الجليدية الصغيرة ، كيف هى سكيية الحضارة الآن ؟ . من فعل بها هذا ؟ هل لأنها زرعة الرجل الأبيض فقط ؟ .. ولماذا لم يكونوا هكذا حينما سطعت حضارة الرجل الأسمر هنا عندنا منذ خمسة آلاف عام ؟ .. هذا أنا وجها لوجه أمام شريحة هامة من لحم وعقل وبيت المتحضرين الإنجليز !.. لندن كلها هنا .. همبشاير ، وبوركشير ، ومانشستر ، والوست آند ، والايست آند ، والبكاديللى ، والهايدبارك ، والباكنجهام ، لا مكياج ولا أقنعة ولا أغلفة .. أولاد لوردات وأولاد صعاليك .. النبلاء والسفلة والشذذ .. الطبيعيون والعقلاء والبلهاء .. وأنا فى الشرفة عليهم أتفرج وأتملى وأقتبس وأتامل وأفكر .. متغطرسون وعنصريون ومتعالون علينا طبعا - ولكن يا شدة غيرتى من مستواهم الراقى بين أنفسهم .. احترام الإنسان هو بعد الله إيمان وعبادة !

....

ومنذ أيام كانت لى مباراة غوص أعماق مع صديقى الأستاذ الأكاديمى ابن اللوردات « ميجور كول » وهو جالس فى خيمتى والقمر علينا مطل .. نتبادل الجرعات من زجاجة خبيثة النشوة طوحتنا فأنستنا الجنس واللون والعقائد .. قلت له أن بلاده مشهورة ومتيمة بتجارب تحضير الأرواح أو تقمص الأرواح وكلها بين أحياء وأموات ، فما رأيك عزيزى الأستاذ كول فى التجربة بين أحياء وأحياء ؟ .. يعنى هل تصدقنى إذا أفشيت لك سرى ، فأنا الآن ، والموجود فى هذا المكان الآن ، متقمص ومربوط بروح ويجسد فتاة حية ! .. حقا فتاة حية وتتنفس .. هى الآن تحت جلدى وفى جوفى وتتربع على مملكة غرائزى

وأعماقى .. لا .. ليست « مارى الفجالة » لا .. بل مارى أخرى ، أتلقفها من عصر بدء المساواة عندنا .. بنت العصر المصرى الذى بدأ يفض أسوار الحرمان والحريم ، وارثة خلخال وبرقع أمها ، فها هى تلقيها فى البحر .. بنت العصر المصرى الذى آذن أن يستدعى نصف طاقاته وأهم مخاليقه من سخف الحبس بين المطابخ والمخادع ! .. فتاة مثيرة جريئة ، متحررة خلابة ، مصرية لحما ودما ووثابة الطموح .. العفة والكبرياء ، وعراقة المنبت هالة من حول خطاها .. الفتاة فى الثانية والعشرين عزيزى كول .. جامعية من الجيل المثقف الجديد .. مندلعة الخيال وسابحة فى أنهر ثقافات العالم ، ولها جاذبية أن تقتحم مجالس الرجال وتدهش تحفظ الرجال ، سمراء وخلابة وماكرة وخفيفة الوزن .. وعزيزى كول إذا طرقت الباب الآن على وجدانى فسوف تجيبك وتلبيك ! .. هذه الفتاة عزيزى كول ، وأنا الآن مغموس فى تقمصها ، غائص فى تقمصها ، مصمم على تقمصها ، ممنوع الخطأ من تقمصها ! .. وطبعا أصارحك فذلك يجمدنى ويرهقنى ويجلد عقلى وحواسى - فكما تعرف ليست لى إلا تجربة واحدة خاسرة من عالم الأنثى والاناث هى هذه الفتاة المنحلة « مارى الفجالة » ، فلم أع أى شىء ولم أر أى شىء ولم أحفظ أى شىء ، أما الآن فى التجربة من تقمص فتاتى الجديدة ، فرهانى أن أدخل فى فستانها وأكتفى ولا شىء أكثر ! .. عدتى للتجربة هى أننا - نحن الرجل وهن المرأة.- وعاء واحد من لحم لا يختلف ، وما اختلاف بسيط العضويات إلا زى المسيرة من مشوار هذه الحياة ! .. تراهننى عزيزى كول عن عينة النوع من هذا النقص ، فخذ أولا منه هذا التباهى .. أحاول أن أحكى لك ، فهذا أنت أول رجل يعرف سرى - عن تقمصى يوميات فتاة تحلم وتتنبأ أن تكون عضوة برلمان فى بلادها الأفريقية .. يوميات لها ، وتحديد التاريخ بل تحديه ، بعد عشر سنوات فقط ولن تزيد .. أفكارها وأحلامها وطموحها عن بلادها .. انظر والمجلة اسمها « الاتنين » ،

وتوزع ١٢٠ ألف نسخة أسبوعية ، والقصة بتوقيع فتاتى ، وعنوانها « يوميات عضوة برلمان » ! .. ثم خذ تلك الجسارة الخطرة من يوميات خاطئه حبلى .. نعم حبلى !.. يريدون اجهاض جنينها الذى بدأ يخفق به جوفها وهى ترفض وتصارع وتفشى دقيق التفاصيل من أسرار مشاعرها وغرائزها وتنفس أفكارها !

« كول » يهز رأسه ذاهلا ومستغربا .. ورأيه أن الجلوس تحت قمر جنيفة مع أفريقى مطلسم مثلى ، فعلا يثير الجنون .. صحت فيه مصححا ، بل مصرى يا كول ولا تنس أن المصرى من سلالة قدماء برعاء ذوو حضارة مرعبة - كانت الروح لهفتهم بل لعبة حياتهم .

......

فوجئت اليوم برسالة من مارى نزلت على رأسى كالصاعقة .. دوخنى ما جاء فيها وتثلج له دمى .. مكتوبة بخط ركيك ومتعثر ، وتطالبنى بالحضور فورا فهناك أمور هامة وخطيرة قد حدثت بخصوص « موضوع مى الصغيرة » ، فقد اكتشفوا العنوان وجاءوا إلى شقة حبيب شلبى ، وقد قالت لهم - من أجل خاطرى - أنها هى نعم مى الصغيرة .. ولكن بعد هذا حدثت أمور أخطر تستدعى سرعة تواجدى !

......

هرولت من جنيفة عائدًا إلى الفجالة فورا - وأنا فى رعب القلق - وهأنذا أنزل فى بنسيون كنج فيليب ، وأول ما فعلت ، أصف لزيتون السفرجى شقة مارى وكتابة رسالة قصيرة لها بها رقم تليفون البنسيون ، فأنا فى انتظار مكالمة منها .

وقد عاد « زيتون » سريعا بعد أن أدى المهمة بطريقة مضحكة - فمازال مرتعبا من حكاية المسدس المفتوح .. رمى الرسالة من تحت عقب الباب ، ثم ضغط على الجرس ، وهرول نازلًا على السلالم قبل أن يراه أحد !

أنا جالس بجوار التليفون - « وبنسيون كنج فيليب » كما هو !.. وقد قابلتنى مفاجأة أول ما دخلت .. فتاة سودانية عذبة وجذابة الملامح جدا ، غارقة برأسها بين صفحات « آخر ساعة » والمجلة مفتوحة على آخر نشر لمى الصغيرة .. التى عنوانها « جامعية وحسناء » !.. خفق قلبى فتوقفت أمامها أطل على عينيها ، أحاول أن أستشف التأثير منها . وعندما أحست بنظرتى عليها أغلقت المجلة وهرعت بها لتختفى فى حجرتها .. حجرتى سابقا !

« مدام موريس » ، رحبت بنزولى عندها .. فقد جئت لها بهدايا من علب التومباك الإنجليزى الذى تحبه .. ولكنها اعتذرت عن حجرتى القديمة ، فإنه ينزل بها الآن الضابط السودانى وابنته الطالبة الجامعية !.. هذه الفتاة الأبنوسية الفارهة إذن !

ولقد تعرفت سريعا على هذا الضابط عندما خرج مع ابنته من الحجرة يطلبان دفتر التليفون الذى كان قريبا منى ، جلس بجوارى بينما راحت ابنته تبحث فى الدفتر .. وعرفتنى به مدام موريس فهو « القائمقام سيف » ، وله عادة النزول عندها منذ سنوات ، وهذه هى ابنته « سامية » .. « القائمقام سيف » مفرط الطول ، وله رأس ضئيل يشبه القلقاسة ، ولكنه ضحوك ومرح ، وخفيف الظل ، وكل كلمة يقولها يتبعها بضحكة يعقبها السعال المتواصل ! .. قال لى أنه فى فرقة ميدانية قد تستغرق عدة أشهر ، وهمس يصارحنى كى لا تسمع ابنته ، بأن أم البنين أرسلت هذا الخفير من ورائه رقابة وصيانة .. أما الرقابة فأنت تعرف ، ولكن الصيانة فلأنه مشهور عنه بأنه لا يأتيه النوم إلا والسيجارة مشتعلة فى فمه ، فلابد له من أحد ينزعها من بين شفتيه قبل أن ينام وإلا أحرقت الفراش وأحرقت من على الفراش كما حدث عدة مرات !

أبادله الضحك وذهنى بعيد ، فالفتاة الأبنوسية كانت قد استلمت التليفون تتكلم مع زميلة طالبه مثلها - وفوجئت بأنها تكلمها عن عدد

آخر ساعة الأخير ، ففيه قصة غريبة عن فارسة من كلية الآداب ، ومحاضرة عن فلسفة ديكارت - وهذا لا يهم فبوسعها أن تكتب بأحسن من تلك الكاتبة - المهم أن البطلة اسمها « سامية » ، يعنى عن اسمها ، فربما هى المقصودة دون أن تدرى !

قلبى يخفق بشدة ويهتاج انفعالا ، والفتاة تتوارى بسماعة التليفون لتواصل الهمس والضحك مع زميلتها عن تلك القصة .. اختلس عليها النظرات الشغوفة المعجبة فلأول مرة تطالع عينى فتاة سودانية لها نضرة مثل هذا البهاء والجمال !

......

دق التليفون بعد نصف ساعة تقريبا وكانت هى « روز » صغرى البنات تبلغنى أن مارى مريضة وتلازم السرير فلن تقدر على الخروج للقائى ، فبوسعى أن أحضر فى أى وقت لرؤيتها فلا توجد الآن موانع من تلك الزيارة !

وقد ذهبت مسرعًا لأجد الجميع فى انتظارى ، ومارى راقدة فى السرير فعلا ، وفى وجهها كدمات وجروح وعلى رأسها لفافات وضمادات .. تتأوه وتتوجع وعيناها تبرقان نحوى بالشوق واللهفة والشهقة والدموع .. ماذا حدث ؟ .. حادثة أوتومبيل ؟ .. أمس فقط ؟

ولكنها لم تكن حادثة أتومبيل ، بل كانت خناقة ضارية جرت هنا ليلة أمس مع خطيبها الأرعن السابق « رؤوف » ! .. تبكى أمامى بكاء طفوليا حارقًا يسترسل ويعلو صوتها النائح فيه .. هذا الرؤوف الغليظ لا تحبه ولا تريده .. فما ذنبها أن يظل يحبها ويطاردها ؟!

لقد فسخت خطوبتها منه بعد ليلة الهرب .. هربت من غيرته وفجاجته وثقل دمه وسخافة طباعه .. وأمس تربص لها هنا على السلالم فى الظلام ، وتسلل من خلفها ، ثم فاجأها بأن انهال عليها ضربا جنونيا ، حتى خلصوها منه بصعوبة وهو يوشك أن يقتلها !

ماری تحکی وقلبی جلید لا یذوب ولا یتأثر ، بل أستعجل أن تخلص من هذا السخف إلى الأ مر الآخر الهام والمروع .. وتستمر وتقول أنه بعد أن أفاق على نزيف الدم من جروحها ، ركع متوسلا مستغفرا معتذرا ، يخبط رأسه فى بلاط الأرض ويطلب الصفح .. وأسرع وأحضر الطبيب .. ثم حدث التراضى بأن أقسم أمامهم بغليظ الوعود والعهود بأنه لن يعود ويريهم وجهه مرة أخرى .. فقط عليهم قبلها أن يسامحوه ، ومن أجل أن يسامحوه - وبطريقة عرب الفيوم - فقد أفرغ جيوبه أمامهم من كل شىء له ثمن .. الساعة الذهبية ، والسلسلة الماسية ، والخاتم الكتلة ، والمحفظة بجنيهاتها الثلاثين !

......

انصت إلى عذابات ماری بوجه جامد وقلب بارد ، ويا شدة اشمئزازى بل قبلها يا شدة قشعريرتى الهلوع وأنا أسمع ما أسمع .. رؤوف المسكين هذا كان يمكن أن أكون أنا ، بل هو أنا فعلا ، ولقد كنت هكذا فعلا !

ماری بعد أن انتهت من مأساة نفسها تشير بنظراتها نحو أمها وأخوتها أن يتركوننا وحدنا ! .. ولقد تعجبت من سرعة طاعتهن لها ، والظاهر كن على اتفاق ، فواضح أن هذه الفتاة قد أصبحت سيدة البيت وهى التى باتت تعوله وتقود زمامه .. خرجن ، وطلبت منى أن أوارب الباب ، ثم دعتنى ببريق عينيها أن أجلس على طرف السرير بجوارها .. أمسكت يدى بيدها المرتعشة الحارة ، ثم شدتنى إلى وجهها الذى تفوح منه صبغة اليود ، وعلى شفتيها شوق العناق ! .. لا .. لا یا ماری . لیس الآن ، فأنت مريضة وأنا مزكوم ، ثم فى البيت هنا فهذا لا يليق !

اكفهر وجهها واتقد بالغضب والحرج برهة ، ولكنها عادت تلين

وتبلغنى أحداثها السارة .. نعم سارة .. مى الصغيرة بدأت تكسب الفلوس .

......

وذات يوم منذ عشرة أيام تقريبا ، فوجئت بخالتها مدام آدمة ترسل لها أن تحضر فورًا فهناك الضيوف الكبار اللذين حضروا ويستفسرون عنها .. وعندما ذهبت فوجئت بالصحفى الكبير « الشناوى » ، والكاتب عضو البرلمان « أحمد الألفى عطية » ، والمشهور الآخر فى الصحافة واسمه « صلاح » - ورغبتهم الالتقاء بالكاتبة الزميلة مى الصغيرة ، فلديهم لها أولاً شيك صغير لحاملته ، عن أجور ما نشر فى « آخر ساعة » ، ثم هناك خطابات بريد ودعوات لها .

وتقول مارى أنها ارتبكت برهة ، ثم انطلقت تؤدى أمامهم ببراعة دور مى الصغيرة .. بل أنها لكى تقنعهم أكثر ، رضيت أن تسهر معهم عندما دعوها إلى الملهى الفاخر الأوبرج .. ولكى تجاريهم وتقنعهم أكثر وأكثر فقد لبت دعوتهم فيما تلا ذلك من ليال .. بل اشتد اندماجها وإياهم - وخصوصا بعد أن أقنعوها بأن « التابعى » وبمجرد حضوره من السفر سوف يصدر قرارًا بتعيينها ، ويخلى لها أحلى الغرفات ، بتليفون أبيض ، وسكرتيرة خاصة لتكون أجمل وأشهى جاسوسة صحفية فى كل بلاط صاحبة الجلالة ..

قلبى يسقط فى جوفى وأنا أسمع كل تلك النكبات والكوارث .. أستدرجها مستزيدا وأنا أتلوى ألما وعذابا .. غرامياتها المنطلقة مع الكازانوفا الألفى عطية ، وكل ورقة من محفظته للجرسونات من صنف ورقة المائة أو ورقة الخمسين .. كرماء ما أروعهم ، وما أخف دمهم ، وما أبهر مناظرهم .. كلهم كرماء وكبراء وقد تغزلوا فيها شعرا ونثرا ، وأغدقوا عليها الثناء واطروا المواهب .. أجاهد أن أتماسك لأظل أسمع .. وحتى جاءت الليلة التى سكرت وأفرطت فيها فاعترفت .. لم

يكن هناك المفر .. لا .. لا تخف فقد تكتمت على اسمك كما أوصيت ، ولم أعطهم أى شبهة أن الذى يكتب رجل .. قلت لهم أنها ابنة عمتى « انطوانيت » المسافرة فى السويس .. قالوا لى - وحتى تظهر بنت عمتك انطوانيت فلا مؤاخذه لن ننشر لها حتى تحضر قصصها بنفسها إلى دار المجلة .. أكدوا أنهم لن ينشروا إلا إذا ظهرت انطوانيت . لم يكن أمامى غير تلك الحيلة والآن بعد أن عدت ، تعال وارفع هذا التعب عنى فكل هذا من أجل خاطرك .. وخذ هذا البريد الذى سلموه لى .. ومطلبى الآن .. وبدأت تلف ذراعها حول عنقى - فلماذا لا تعلمنى يا حبيبى كى أكون لك دائما مى الصغيرة !

تهدلت براسى صامتا لا أتكلم .. أشعر أننى قشر ثلج يتهشم ويذوب .. حلمى السارى الناصع يتعكر بل يتبدد .. وقفت مستأذنا بلا كلام .. لم أعلق ولم أتكلم ، فقد كنت مختنقا وفمى يجتر المرارة والكآبة .. قلت لهن يجب أن أذهب إلى مهمة عاجلة وسوف أعود بعد ساعة . الست وديعة متحمسة لقضاء كل اليوم معهم ، فمن أجلى صنعوا ورقة لحم فى الفرن ، وهات لنا معك وأنت عائد ، الفياسكا والكوتشينة ولنحتفل بتصافينا وعودة الحياة إلى مجارينا ..

......

خرجت ..

بريد مى الصغيرة فى جيبى كأنه جثتها المقتولة .. شارع الفجالة أمامى - والدنيا ضحى - سواد رهيب كالح .. أترنح ذاهل الخطى نحو بنسيون كنج فيليب .. أصعد السلالم أفتح الباب ليواجهنى .. منظرا لم أتوقعه أبدا .. الضابط السودانى سيف ، والفتاة الابنوسية « سامية » ثم مفاجأة وجود هذا العريض الطويل لابس الفرسان يوزباشى « رؤوف » .. بقايا مارى .. يقف أمامى فى تحفز متوتر وغريب !

« نحن بشر »

القاهرة ٤٢ - ٤٣

« رؤوف » ضابط الفرسان - وكانت المفاجأة لى أنه استأجر غرفة فى « بنسيون كنج فيليب » ومنذ اليوم أصبح نزيلا فيه !

أول مرة أراه أو يرانى .. وقد عرفته من صورته - ويا غرابة ما تتهشم الملامح الوسيمة الشامخة تحت ضربات العشق الخاسر المحروم ! .. غريمى فى حب « مارى » ! .. حامل المسدس المفتوح ؟ .. فهل لم تعرف ذلك « مدام موريس » صاحبة البنسيون ؟

فوجئت طبعا ودارت بى الأفكار ، فهل جاء يطاردنى ؟ .. كان وجهه شاحبا باهتا وملامحه ممسوحة .. قدمه لى « القائمقام السودانى سيف » وهو يشد ذراعى لأجالسهم ، فقد كانت أمامهم أكواب بيرة وأطباق حمص وفول سودانى .. والفتاة الأبنوسية « سامية » - ابنة سيف - منزوية عنها ووجهها كالعادة غارق بين دفتى كتاب ضخم .. اعتذرت فى ارتباك ، وقلت أننى جئت لآخذ شيئا من غرفتى ومضطر أن أخرج حالا .. بادلته النظرات ، وأدهشنى أنه يبدو كمن لا يعرفنى فهل هذا معقول !!

دخلت غرفتى وأغلقت الباب ، ولم يكن هناك شىء لآخذه أو أفعله .. محنتى الآن ودوار رأسى - وأبدا لن تغلب عليها محنة

جديدة - هى هذا القطع الصاعق المنقض فجأة لأقع من شاهق الأحلام ! .. هذا الغرق المؤثر السريع للبريئة الحلوة المتفتحة واسعة الآمال - « مى الصغيره » !

......

أخرجت من جيوبى هذا البريد .. خطابات كثيرة على عنوانها فى « آخر ساعة » ، ومعظمها تبدأ بالكتابة الكبيرة ، والأستاذة ، والنابغة ، والجريئة والثائرة .. رسائل غرام ، وغزل ، وإعجاب ، وافتتان ، ومراهقة ، ومعاكسة ! .. وأيضا احتجاج وتأنيب على هذا الأدب السافر الذى لا يليق بتوقيع فتاة أو امرأة .. ثم دعوات لإلقاء محاضرات ، والاشتراك فى ندوات ، وجمعيات خيرية ونسائية تسأل عن عنوانها ! .. ورسالة متحمسة طريفة أيضا بتوقيع « فاطمة عزت موسى » رئيسة الحزب النسائى ، تدعوها للانضمام فورا إلى قافلتهن ! .. يا إلهى ، لمن بات هذا البريد ومن يرد عليه الآن ؟

أنظر زائغ العينين إلى هذه الأوراق الطريحة أمامى فلا أرى فيها إلا ورقة امتحان تعلوها دائرة حمراء وفيها صفر من عشرة ! .. سقوط فاحش ، بل سقوط مخجل فى أول حصة من الامتحان البائس الذى خططت ودققت له ، ورسمت بل هيأت له أن يستمر سنة بل ثلاثا !.. أنا مشبع به وليس لى تنفس الآن سواه ، ولست أدرى بدونه كيف سوف أقدر أن أعيش غدا وبعد غد !

هذا الانكشاف السيئ المباغت ! .. المنظر البشع المجهول للمستهترة « مارى » ! .. وهى تسكر ، وتسهر ، وتتبذل ، وتتطوح مع اللهاة الساخرين ! فحول الجاثمين على بلاط صاحبة الجلالة !.. شعورى بالغضب والنفور والاشمئزاز ، بل بالذل والمهانة والندم ، وكأننى كنت من خلفها قوادا يقدمها لهم ! .. خجل وانكسار وفشل وسقوط ! .. سقوط وله أذيال ملحق .. ملحق منحة من أكاذيب

ماری .. ابنة عمها المسافرة فی السويس واسمها « انطوانيت » - هی می الصغيرة ؟ .. هی التی تكتب ؟ .. لن يعودوا وينشروا الا عندما تظهر انطوانيت هذه وتحمل لهم كتاباتها بنفسها ؟ . أين انطوانيت هذه ، وكيف أجدها ، بل كيف أقدر أن أؤلفها ، وهل يمكن لجبابرة آخر ساعة الأذكياء المتمرسين أن يعودوا ويصدقوا ادعاءات جديدة ؟! .. الأفكار والخيالات والمقترحات تطحننی ، فماذا لو قمت الآن وذهبت أقدم نفسی اليهم ، فهذا أنا هو يا سادة الكاتبة می الصغيرة ! .. ريفی جلف يتعثر فی أذيال منظره الخابی ! . كم سوف أصبح بينهم مسخا وأضحوكة .. أنا أعرف ضراوة هؤلاء الناس فی سخرياتهم !

......

قمت واقفا فلم أعد أطيق الجلوس .. ويجب أن أخرج كما قلت لهم ، فإلی أين الخروج ؟ .. « ماری » ولحمة الفرن تنتظرنی ، والفياسكا والكوتشينة ، فهل أذهب لاستزيد من جرعات العلقم مما فعلت وفعل هؤلاء الناس ؟ .. هذه الفتاة مازالت تتصور أن بوسعها أن تتزوجنی ؟ .. بل أن هذا الالتحام الأخير لها مع الأحداث - وتصورها طبعا أنها البطلة الحقيقية فی كل الأمور - قد أنعش آمالها فی أن أرتبط بها مدی الحياة .. حبال می الصغيرة تمسكها فی يدها وتربطنی بها .. نعم ، تنبهت وأرعبنی أن أی اقتراح الآن لملحق عاجل يمكن أن ينقذ مشروع می الصغيرة لا مفر أن تكون وسيلته ماری ! .. نعم لا فرار منها إلا اذا ألغيت المشروع كله فكيف أقدر ، فهل ألغی حياتی ؟

ملحق عاجل مثل ماذا ؟ .. « انطوانيت » هذه التی رمتها أكذوبة بل عقدة وحتی أعود وأحلها ؟ .. أحلها كيف ؟ .. نعم أن لها ابنة عمة اسمها انطوانيت .. رأيتها عدة مرات .. تقرأ وتكتب ، فقد نالت

شهادة الكفاءة بالعربي .. ولكنها جوفاء وفارغة وبلهاء .. وشامية غليظة وبلا قومية وتكره مصر ، وحلمها أن يتزوجها أى صعلوك انجليزى أو أمريكانى ويأخذها معه إلى بلاده .. لا . مستحيل فلن تنفع طبعا ، ثم ماذا كانت تقصد مارى حينما قالت تعال وعلمنى كيف أكون لك مى الصغيرة ؟!

هل تقصد أن بوسع مواهبها أن تصحح الأكذوبة للأباطرة إذا عدت ولقنتها الدرس بإجادة ؟ .. آخذ من تشبعى وأكدس فيها مثلا ؟ .. وإذا فعلت كيف أقدر أن أمسح تلك اللطخة البشعة التى وقعت وانتهى الأمر على الثوب الناصع ؟

أنا فى حالة دوار وتخبط وهذيان ويجب أن أخرج ، فهل أذهب إلى السينما .. أذهب إلى « نجيب » فى مصر الجديدة ؟ .. أذهب ، فإلى أين ؟ .. ثم هذا الطاووس المنتوف الريش بمنقاره المزعج المخيف « رؤوف » ؟ .. يقلقنى ظهوره المريب هنا طبعا ، ثم هذا الغموض من نظراته - حتى لو لم يكن يعرف أننى هو غريمه فلابد سوف يعرف .. ثم لماذا جاء ينزل هنا على بعد خطوات من مارى - وله كما أعلم شقة فى « منيل الروضة » يعيش فيها مع أمه وأخيه وأخته ، غير قصر الفيوم ؟ .. هل لديه خطة ؟ .. يقتلنى مثلا ؟ .. لماذا هذا الأهبل ، فهل يحل القتل شيئا من أمور الحب ؟

خرجت من الغرفة وجدت المنظر كما هو .. أوقفنى القائمقام سيف مصمما قبل أن أخرج أن أسمع منه نكتة سودانية .. رؤوف جالس ونظراته الثملة الزائغة مرفوعة نحو وجهى ! .. ينكش شعره ، وينفخ صدره ، ثم يجرع كوب البيرة الممتلئ فى جرعة واحدة وبطريقة جشعة ، ويهبط به فى عنف على المائدة فيتحطم وتتناثر شظاياه ! .. وبينما يساعد سيف وابنته فى جمع الحطام ، دق التليفون .. يظهر « زيتون السفرجى » ليرفع السماعة ، ثم علا صوته نحوى ينادينى -

مدموازيل مارى تطلبك ! .. اشرأب عنق رؤوف وكأنما مسته كهرباء ، وفى حركة عصبية راح يحرك رقبته ما بين منظرى ومنظر زيتون وهو يحمل سماعة التليفون ! .. أشرت لزيتون ضجرا أن يقول لها أننى غير موجود ، أو أحسن أن يقول لها لقد سافر فجأة ! .. قلت هذا ثم اتجهت مسرعًا إلى باب الخروج !

......

أدخل البنسيون والوقت بعد نصف الليل ! .. المكان هاجع ، ولمبة زرقاء ذاوية فى ركن الردهة ، ولا توجد إلا غرفة واحدة يظهر منها الضوء من خلال زجاج الباب المغلق - هى غرفة « رؤوف » ! .. سرت البرودة فى عروقى فتوقفت برهة أدير نظراتى فى الظلام وأتصنت ! .. أحسست أو تخيلت أن أكرة باب رؤوف تستدير فى بطء على يد تهم أن تفتح الباب ! .. تعجلت بخطواتى نحو غرفتى ، ودخلت وأغلقت الباب .. ثم عدت وأغلقته بالمفتاح ! .. هل أنا خائف ؟ .. لا فلست أعرف الخوف حتى ولو فى مجابهة خطر الموت ! .. ولكن ماذا لو معه مسدس حقا ويأخذنى غيلة ؟ .. بماذا أدافع عن نفسى ؟ .. أحاول أن أقنع عقلى أن مشاعرى عائمة فى بحور روائية مسرفة - يا شدة احتياجى الآن أن أغوص فى النوم !

خلعت ثيابى وأطفأت النور وتمددت على السرير طريحا مكدودا !

يا إلهى كيف قضيت نهارا قاحلا لافحا ! .. بدأته بأن اشتريت زجاجة الكيانتينى مع قراطيس من الفواكهة والهدايا ، ورسالة اعتذار لمارى وأمها ست وديعة بأننى أواجه مشاغل جمة وسوف أمر عليهم غدا ! .. مشاغل جمة ؟ .. من سينما إلى سينما ، ومن مقهى إلى مقهى ، ومن شارع إلى شارع ، أتسكع زائغ العينين ، متعثر الخطوات ! .. حمت من حول مبنى آخر ساعة ! .. غدا سوف يظهر العدد الجديد ، فهل أصعد لأسأل متوسلا هل فيه قصة جديدة لمى الصغيرة ! .. عينى

غاصة بالدموع .. تمشيت أمام يافطة « كلام الناس » فى آخر شارع المبتديان ! .. توقفت طويلا أمام هذا البناء الرهيب الذى بناه الانجليز « لدار الهلال » .. هل أطمع يوما فى حجرة من عديد طوابقه ؟ .. توقفت أحلم أمام « المصرى » فى قصر العينى ! .. تسكعت حول « البلاغ » ، و « كوكب الشرق » و « صوت الأمة » فى المنيرة ! .. تمشيت وتمهلت أمام « الأهرام » فى باب اللوق .. الأهرام وصالونه الشهير كل ليلة ! .. ثم « بار اللواء » ونجوم الجالسين .. « البشرى » و « محجوب ثابت » و « امام العبد » ، و « زهير صبرى » ! .. « توفيق الحكيم » بالبيريه والعصاة جالس على الناصية لمقهى « الريتز » تحت الأيموبيليا .. ها هو ومعه « مدحت عاصم » ! .. مشيت ومشيت .. ركبت المترو إلى مصر الجديدة فلم أجد « نجيب » ! .. عدت أتشرد وأضيع فى الوقت حتى يظهر العدد الجديد من « آخر ساعة » .. إنه يظهر فى محطة باب الحديد قبل يوم من توزيعه فى السوق .. « نسخ الأقاليم » ! .. لديهم ثلاث قصص أرسلتها مرة واحدة ! .. أنا يائس بعد الذى حدث أن ينشروا أى شيء .. ولكن بقية من أمل ، تهافت الأمل يا رباه ! .. اشتريت العدد ويدى ترتعش وبى رهبة أن أفتحه .. « كاريكاتير » صاروخان . الصاخب الملون على الغلاف ، وزعماء مصر الباشوات وأصحاب المقام الرفيع يرتدون ثياب الشحاتين ووقفتهم أمام سور السفارة البريطانية - وادونا وزارة لله يا أسيادنا !! .. وكما توقعت تماما لم تكن القصة منشورة ! .. مى الصغيرة غير موجودة ، ولا رائحة لها ولا كلام عنها !

......

ها أنا مستلق محملق فى الظلام ، تأخذنى القشعريرة من تخيل دبيب خطوات فى الردهة .. إنها ليست خيالا .. فالخطوات مسموعة فعلا ،

فهل هو رؤوف بمسدسه المفتوح ؟ .. أحس أن أكرة الباب عندى تتحرك ، وأن يدا ما تحاول معها ! .. قمت متوترا واجفا ، ولكن لم ألبث أن تراجعت ، فربما كلها تصورات بفعل الأوهام !

أحاول عبثا أن أنام ، كيف أنام ؟ .. اشعلت الضوء وعدت أستعرض عدد آخر ساعة .. عدد التشييع من جنازة مى الصغيرة .. ما أقسى هؤلاء الناس .. ما أغلظ قلوبهم وما أفحش تسلطهم ! .. عيناى زائغتان ولا تصلحان للقراءة .. أحاول أن أنام ، وأكاد أغفو ، ولكننى أعود وأسمع تحركا واضحا فى الردهة هذه المرة .. تحركا يحوم حول بابى ! .. أقوم متمردا نافد الصبر والغضب يأخذنى وأحسن أن أجابه هذا المعتوه .. لن يخيفنى رؤوف هذا وحتى لو كان فى يده مدفع !

فتحت الباب فى ضجة .. فتحته على المصراعين .. لم أجد أحدا .. تحركت أبحث عن « زيتون » حتى وجدته مستغرقا فى النوم ، وعبثا أحاول إيقاظه .. عدت أتمشى فى الردهة ونظراتى على غرفة رؤوف المضاءة والباب الموارب المفتوح .. اقتربت منها فقد اجتذبتنى فيها أصوات غريبة تصدر منها .. أصوات تشبه الأنين .. أنين يزوم مختنقا وفيه كركرة تنفس ذبيحة !

فتحت الباب ويا هول ما رأيت .. « رؤوف » منطرحا على السرير بثيابه ، وذراعه متهدلا ، وقناة من الدم جارية من عروقه المقطوعة تنزف على بلاط الغرفة .. يا إلهى إنه ينتحر ؟! .. صحت بعلو صوتى .. أيقظت البنسيون كله .. هرول الجميع فى ذعر .. بحثنا عن أربطة توقف النزيف .. الفتاة السودانية « سامية » هى التى بادرت سريعا فأحضرت الشاش وقامت بالربط حول القطع .. بحثنا عن طبيب فى العمارة .. طلبنا الاسعاف وبقيت واقفا بجواره حانيا متأثرًا يكوينى الألم .. وعيناه المنطفئتان ترفرفان على منظرى ومنظر سامية فى استسلام طفولى يائس وذليل !

......

مازلت فى « بنسيون كنج فيليب » .. وقد مضت الآن خمسة أشهر منذ انقطع حلم مى الصغيرة وانطفأ بريقه الخاطف ! .. توقفت « آخر ساعة » عن النشر ، و « مجلة الاثنين » أيضًا - وكأنهما كانتا على اتفاق لسحق لعبتى البراقة الصغيرة وتبديد لمعتها التى سطعت وبشدة على مدى عدة أسابيع !.. توقف الجميع عن النشر ، فقد ذاعت السخرية وامتدت السيرة فى الأروقة الصحفية عن الشريحة الشامية البيضاء الشقراء « مى » والتى تجيد الكتابة بساقيها .. نعم راجت النكت الذئبية الناهشة من الألسنة الماجنة .. وبقيت مجلة واحدة فقط تنشر لها ، بل وضح لى أنها تتشبث بالنشر لها فقد باتت « قصص مى الصغيرة » هى أروج مادة فى إعدادها !.. مجلة واحدة هى « كلام الناس » ، ولكنها فى حالة لفظ انفاس أخيرة ! .. فالمجلات الجديدة والتى يحاولها مصريون وطنيون كانت تموت بأسرع مما تولد ، فى الخنق الأريب من السوق المسيطر لصحافة الشوام واليهود .. ماتت كلام الناس سريعا مثل سواها ، وبهذا انطفأ آخر بريق من زبالة الأمل !

......

تلك الأشهر الخمسة وما حدث فيها .. فقد سئمت أن أعود إلى العمل فى « جنيفة » ! .. يئست من جدوى أى عمل ، فأنا لا أصلح إلا للكتابة .. وبالذات الآن تحت توقيع مى الصغيرة .. فقد كان تربصى وتفرغ طاقتى كلها أن أعود وأستعيد المسيرة بأية وسيلة وأية تضحية .. أنا مكدس ومشبع بها بل مربوط بها .. تسرى فى عروقى وتحتل كيانى وتملأ عقلى وحواسى .. ويا للفزع حينما حاولت ذات مرة أن أتمرد على توقيعها وشخصيتها ، كيف تلجم قلمى وانكسر فاشلا وذليلا ، فقد تبينت أننى من دونها معدم الأفكار والأسلوب تماما ، بل فى حالة خواء ! .. معى بعض الأموال التى يمكن أن تعولنى عدة أشهر .. وقد كتبت رسالة اعتذار إلى صديقى « الميجور كول » أبلغه أننى

سئمت جنيفة بل سئمت الحياة ! .. وحكيت له عن صدمتى القاسية من توقف النشر ، ثم رجوته لو يكلف أحدًا أن يحضر لى حاجياتى الباقية فى خيمة جنيفة ! .. تذكرت المجندة « بياتريس » خريجة الملجأ الوحيده الحائرة ، فكتبت لها أيضا !

......

علاقتى بمارى كل تلك الأشهر – ومع الحرمان الطارئ من الفقيدة مى الصغيرة – عادت جذوة الحمى التى كانت خامدة تتحرك وتتقد باللهفة على البقية الحية فيها ! .. توهمت هذا وارتعبت على نفسى ، فلم يعد لى من عمل كل يوم إلا أن أذهب وأقضى معظم الوقت بجوارها ، ملطوعا بجوارها .. وقت فارغ ردىء مضجر ، لم يكن يكسب نفسى إلا الانحطاط والانحدار !

ورويدا رويدا يئست الفتاة من تشتتى ووجومى ، وبدأت تدرك بحس أعماقها أن حبى الأكبر وعشقى المتيم هو مى الكاتبة والخيال ، لا مى الجسد والتحسس ! .. تحولت جلساتى معها إلى مجرد عواء ذكريات .. نحيب ذكريات .. لفظ أنفاس ذكريات .. أذهب معها إلى السينما وإلى الباتيناج وإلى المراقص وإلى الحفلات .. أو نمشى ونظل نمشى حتى ولو بلا كلام .. وباتت لها خلوات بنفسها لا أعرف أسرارها ! .. لم يعد يهم أن أعرف أسرارها فقد عجزت عن الصرف عليها بعد أن تبخرت كل نقودى فى أقل من ثلاثة أسابيع !

وبدأت أذعر من جائحة الاملاق التى أوشكت أن تقترب منى ..

كتبت رسالة « إلى محمود كامل المحامى » أطلب الحاقى بأى وظيفة فى مجلته الرائجة – « العشر قصص » – والتى من رواجها أصبحت تصدر فى الأسبوع الواحد ثلاث مرات .. ولكنه لم يرد !

ذهبت وطرقت على باب منزل « سلامة موسى » فى الفجالة .. أعرفه ولى جولة قديمة معه أيام كنت تلميذا فى « دمنهور » .. كتبت له

رسالة طويلة ذات مرة عن أننى معجب « بالمجلة الجديدة » وكيف تلهب خيالى وتحرك خلايا عقلى .. ودهشت بل ارتج من تحتى زلزال النشوة عندما رد على برسالة شخصية ، يقول فيها أنه أحس بصدق مشاعرى وقد أعجبته أفكارى وجدة أسلوبى ، ويدعونى أن أمر عليه عندما أزور القاهرة فى أى وقت فقد أصبحت صديقه ! .. تلك الرسالة من سلامة موسى يومها يا إلهى وما فعلت بى ! .. وذات يوم بعدها اكتشفت أن « صديقى سلامة موسى » واسمه مكتوب كرئيس تحرير على « جريدة مصر اليومية » ! .. قبطية وطائفية ، وكانت فى ذاك الوقت كاسدة ولا تقرأ إلا من قلة من الأقباط ، وأصحابها « أسرة المنقبادى » ومنذ سنوات كانت شعلة شعبية ووطنية تضىء الطريق مع « الزعيم زغلول » ، حينها كانت شعارا صادقا لالتحام الوحدة الوطنية ! .. أقول ، قرأت وأنا فى دمنهور أن سلامة موسى قد أصبح رئيسا لتحريرها – وفى تلك الفترة كان الزعيم القبطى الوفدى الشهير مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد قد أصبح هدفا للمعارضة عندما انشق بعض كبار أقطابه عن الحزب ، وحدث الشرخ الخطير فى الالتحام الوطنى مع حزب الأغلبية ، وانطلق الصراع فترامت على الجماهير سموم التعصب ، واندلع الشغب السياسى الخبيث ينقل حرائقه من الوطنية إلى الأديان .. كتبت مقالا وجدانيا خارجا من أعماق النفس أدعو فيه لعودة الوئام والالتحام بين طائفتى الأمة تحت عنوان « الدين لله والوطن للجميع » .. أرسلته لسلامة موسى ، وفوجئت بعد يومين فقط أنه منشور فى الصفحة الأولى يتصدره اسمى « المسلم » الذى فيه محمود وأحمد بالبنط الكبير ! .. كنت مازلت فى السابعة عشرة .. ألهبنى هذا النشر فاسرعت بمقال آخر ، وآخر ، حتى أكملت « ٤٠ مقالا » كلها وجدانيات وطنية وبالوقائع التاريخية عن تلاحم المسلمين والاقباط على مدى العصور فى الكفاح الوطنى .. مقالات تهاجم التعصب المقيت وتدعو للتسامح ، فكلنا مصريون أولا ، وبعدها كونوا

ما شئتم أقباطا أم مسلمين ! .. بعدها ذاع صيت تلك المقالات فى أرجاء الأقباط والمطارنة والجمعيات الدينية القبطية فقط ، أما أرجاء المسلمين فلم يحس بها أحد ، وكان هذا يقهرنى ويخبو بجذوة حماسى ! .. « سلامة موسى » وقد قابلته فى حينها عدة مرات ، فى البدروم المتصدع لجريدة مصر فى شارع الملكة نازلى .. وقد أذهلهم وأدهشهم صغر سنى .. ومن غرفة سلامة موسى بتلك الجريدة تسربت بدفع الأيادى بعض الوقت ، إلى مرحلة غريبة صاخبة ! .. لا أريد أن أحكى عنها الآن فإن لها مجلدا حافلا ومثيرا قد أكتبه ذات يوم ، ويا رباه هل سوف يقدر لى أن أكون كاتبا ؟!

......

« سلامة موسى » يسكن فى شارع الفجالة . وبالذات أمام « عمارة قرصاتى » التى فيها « بنسيون كنج فيليب » ، وله شقة فى الدور الأرضى تحوطها حديقة ذابلة ، تقع فيها مطبعته وإدارة مجلته .. دخلت عليه ، وكان يومها مكفهرا يائسًا ، فأمامه كمبيالات وديون وعقبات طبع ونشر وتوزيع - وإذا شئت أن اشتغل معه فلأتطوع مجانا بمثل مقالات جريدة مصر التى كانت كلها أيضًا مجانا !

هكذا انطلقت أتضور محروما بائسا من حول أسوار الحديقة لصاحبة الجلالة .. عينى لا تحيد عنها وابدا لا أرغب فى سواها .. أتضور حقا ، فقد بدأت أبيع من كتبى وثيابى ومقتنياتى .. تكومت أجرة عدة أشهر لم تدفع للطيبة « مدام موريس » . تدهورت أحوالى ولقد استسلمت تماما لهذا التدهور الذى أوشك أن يصل بى إلى أن أبيت جائعا أحيانا أو أفطر وأتغدى وأتعشى على الفول المدمس والعدس وأقراص الطعمية !

......

وفى تلك الأشهر أيضا .. « رؤوف » ، ويا غرابة ما يفاجأ البشر

بعجيب ما يخطط القدر .. فلقد شفى من حادث الانتحار الذى أوشك أن يفقد فيه حياته .. تمكنوا من إنقاذه بعد جهد هائل - وكما قيل - لولا الفتاة السودانية « سامية » لم يكن يقدر له أن يعيش ! .. شفى من « لعنة مارى » فى إعجاز سريع وغريب يشبه مفاجأة الروايات ، فإنه بعد أن خرج من المستشفى توطدت علاقته بالقائمقام سيف وابنته المنقذة ، وتعارفت الأسرتان وتبادلتا الزيارات فى المنيل وفى الفيوم وفى الفجالة .. المهم قفز هذا العجيب الساحر الذى اسمه « الحب » ليصنع الخوارق . وقع رؤوف وسامية فى وعائه العسلى اللذيذ القناص .. حدثت الخطوبة ، ومنذ أيام ودعتهم على محطة باب الحديد ، هو وصهره وخطيبته ، فى الطريق إلى السودان وعقد القران فى « كسلا » حيث تعيش أسرة القائمقام سيف .. فقد تمكن رؤوف من نقل نفسه إلى فرقة الفرسان المصرية المعسكرة فى البلد الشقيق !

......

وذات يوم قريب من تلك الأشهر الخمسة ..

وكان إملاقى وعسرى قد اشتد وتصاعد - تفتق ذهنى المطحون عن أمل أن أبيع « قصة سينمائية » ! .. كنت قد اتصلت بالمخرج السينمائى « محمد كريم » .. أشهر مخرج مصرى ، وصانع أفلام عبد الوهاب الذائعة الصيت - ويقولون أن القصة السينمائية يشترونها بمائة جنيه وأحيانا بخمسمائة ! .. يعنى هات الملخص لها والفكرة فقط فى حجم تسع صفحات فولسكاب ، واذا راقت سوف تجد فى يدك فورا « شيك » لن يقل عن مائة جنيه ! .. كلمته بالتليفون وقلت له أن عندى قصة سينمائية جديدة ، فسألنى عن اسمى .. ارتبكت وقلت له ، أننى أتكلم نيابة عن « الكاتبة المعروفة » مى الصغيرة « والتى نشر لها منذ مدة قريبة عديد القصص فى آخر ساعة ودار الهلال وسواهما ! .. تذكر أنه قرأ لها وأعجب بأفكارها ، وأعطانى

الميعاد لأحضر بها فى العمارة التى يسكنها بجوار كورنيش النيل فى « جاردن سيتى » ! .. القصة التى أعددتها وكدست آمالى فى انقاذ نفسى بها ، اسمها « عطر الجنة » وهى قصة حب ذات فكرة عصرية جديدة وتصلح - ياليت - لتكون ثالث أفلام العظيم عبد الوهاب ! .. لم يكن قد تبقى فى جيبى يومها إلا ورقة واحدة من ذات العشرة قروش وكان أملى كبيرا فى أننى سوف أخرج من عند كريم وفى يدى شيك المائة جنيه !

وقد قرأ « كريم » القصة .. وهو رجل مشتعل النشاط والحيوية ، وله شكل خالق كونى صغير .. أليس يخلق الحياة والشخوص من صنع يديه على شريط فيلم يبهر الناس لمدة ساعة ونصف وساعة ؟ .. أعجبته بعض القصة ، ولكنها تحتاج لمناقشة طويلة مع المؤلفة وجها لوجه .. اعتذرت له أن المؤلفة مسافرة وغير موجودة وأنها أنابتنى عنها فى كل شىء حتى فى المناقشة والاتفاق .. ومن حماسى ولهفتى كاد الرجل يكشفنى فاضطربت ، فقام يربت عطوفا على كتفى وهو يوصلنى إلى الباب ، فهو مستعد أن يتفاهم مع المؤلفة عندما تعود من هذا السفر وتعال معها !

خرجت من « عند كريم » يائسا حائرا مختنقا .. جلست على أحجار كورنيش النيل بجوار « فندق سميراميس » ، أحملق فى موج النهر شاردا ذاهلا زائغ النظرات .. وفجأة .. وجدت من يصيح باسمى من عربة جيب عسكرية - وكان هو - الميجور كول !

عانقنى فى شوق ولهفة - رغم أن الانجليز يستنكفون عناق الرجال للرجال - وتجمدت نظراته برهة على منظرى البائس .. ثم قال لى أنه استلم خطابى ولكن بعد أشهر من وصوله ، فقد كان مسافرا خارج القاهرة وعاد منذ أسبوع واحد فقط . وأنه حاول أن يعرف مكان إقامتى فلم يوفق .. أنه الآن فى القاهرة نهائيا .. وظيفته ومكتبه الجديد

فى « قشلاق قصر النيل » .. يشرف على النادى والمكتبة ومشتريات الضباط من ملابس وقمصان وأحذية !

كان متعجلا ، وقد عاد ينظر إلى شكلى البائس المنهار فى أسى ، وصارحته بأننى بلا عمل الآن .. طلب منى أن أمر عليه بالقشلاق فسوف يحصل على عمل لى .. ترددت وبمشاعر حقيقية قلت له أننى لم أعد أصلح لاداء أى عمل من هذا النوع .. لم يأبه بترددى ، وكتب ورقة تصريح وعليها توقيعه كى أقابله بها غدا .

......

وفى الصباح ذهبت . ادخلونى عليه ، وكان متربعا مبتهجا فى صالون فخم يطل على ساحة جناح هائل الاتساع والاناقة ، ومن حوله مكاتب تجلس عليها مجندات ممشوقات ثم أكشاك بيع براقة متناثرة ، وأمامها تقف « فتيات البيع » ساطعات المنظر !

بمجرد أن رآنى أمر بإحضار استمارة التحاق بالعمل ووضعها أمامى لأكتبها .. عزيزى الميجور كول ، وقد صارحته مرة أخرى - بعد أن أخذتنى رهبة المكان - بأننى مازلت مترددا ، ولا أعرف فسوف أفشل فى أى عمل ، بل ماذا أصلح هنا لأى عمل ؟ .. لم يكترث وسألنى عن آخر مرتب لى فى « جنيفة » فقلت « ٢٣ جنيها » .. أرغمنى أن أملأ الاستمارة .. سلمتها له . تصفحها ثم جرى عليها بقلمه يملأ خانات أخرى ، وسلمها لسكرتيرته « سيرجنت ميديث » لإنهاء الاجراءات ، ثم قام واقفا وتعال أعرفك بخلية ملكات عش النحل الذى سوف تعيش فيه كل نهارك من الآن .. هذه هى مدموازيل « جودى » .. « بيكى » .. « اثينا » .. « نانا » .. « لويزا » .. « دوللى » .. « سيلفانا » .. « ايلين » .. « فيكتورين » . كلهن موظفات مدنيات من عائلة فقراء الخواجات فى القاهرة .. من الساكينى ومن غمرة ، ومن الظاهر ، ومن بولاق ، والعباسية ، ومصر الجديدة .. لا توجد

بينهن مصرية واحدة ، فكلهن إما جريك أو شوام أو يهود أو مالطيات أو قبرصيات .. شابات مزهوات الشباب وذوات جمال جرىء وأنوثة تتلظى . نشيطات ومندلعات وروائحهن تثمل الأنف !

عرفنى بهن - ثم أوقفنى أمام « الخواجة ماركو » فى كشك الخزينة والذى سوف أشتغل مساعده ابتداء من اليوم - وأوامر كول له أن يعفينى من أى جهد - ثم سلمنى استمارة الالتحاق وفيها رقم مرتبى الجديد . يا إلهى .. انه « ثلاثون جنيها فى الشهر » !

« الأجـراس »

القاهرة ٤٢ - ٤٣ :

ومنذ شهرين ، وهذا هو منظرى فى عملى الجديد بقشلاق الانجليز فى قصر النيل .. فلاح يطل من ثنايا « الخص » على خلية غريبة سابحة من أنواع النساء البيض .. خصوصا فى فترة الغلق من – ٢ إلى ٤ ظهرا – حينما يهدأ المكان ، وتتحرر الفتيات من الثياب والأحذية وتوكات الشعر ، وينطرحن مكدودات من الوقفة بالساعات .. يتمددن على الكتب والكراسى والسجاجيد وحتى على البلاط .. يفردن السيقان ، ويفتحن البلوزات ، وتعلو أصواتهن بالأسرار والخبايا وسرف المعلومات والمغامرات عن غريب أمور النساء .. وأنا .. أنا الذكر الوحيد القابع فى كشك الخزينة الزجاجى ، أدعى أننى أكتب وأحسب ، بينما ألعق بنظراتى على هذا السوق الحافل من أنواع النساء .. غريبات النساء ، فكل واحدة منهن تمثل نوعا وجذوة .

« نانا » الأغريقية ، بعودها الفاره وعنقها الرخامى الطويل .. « جابى » اليهودية ، بمنظرها الغجرى المتفجـر .. فيكتورين القبرصية ، وجسدها الفواح تهتز به كشجرة تثقلها الثمار . « وبيكى » ، ودوللى و « سليفانا » . و « لويزا » ، و « ايلين » ثم

« السيرجنت ميديث » بوجهها الأحمر وشعرها الأصفر وياقوتة العين الخضراء .. طلائع صهيل غريب لفتيات عصر الحرب .. تمزيق الستار نهائيا بين الرجل والمرأة .. الحرية تنتشر إلى درجة المساواة فى المجون والجنون .. مشاعرى بينهن بل سباحتى بينهن ، دهشة واستطلاع وظمأ طبعا .. ظمأ إلى حصص استطلاع جديدة ورؤيات جديدة فى أنواع امرأة الحرب أو فتاة الحرب . ويا إلهى كم سوف تتغير الطباع وتنحسر التقاليد بعد إعصار تلك الحرب ، فهل سوف نتغير نحن هنا فى مصر .

« الخواجة ماركو » - رئيس الخزينة - وقع مريضا بضعة أيام - وهكذا كان يجب أن أجلس مكانه ، أواجه هذا الطابور الممتد الطويل كل صباح وعلى الوجوه غبرة الحرب وذهول الحرب . نجوم حرب هتلر وتشرشل وستالين وروزفلت ، من كل الميادين ، والقاهرة لهم محطة استراحة أو تموين .. جنرالات ، ومارشالات ، وميجورات ، وكباتن ، وصغار ضباط ، وأياديهم تحمل استمارات المشتريات ، وعليهم أن يمروا واحدا واحدا أمام الجالس على شباك الخزينة .. طابور طويل يعلن عن ديمقراطية الانجليز حتى فى سعرة الحرب ، فهذا هو « الجنرال أو كنلك » أمامى والمارشال سمطس أيضا ، و « الجنرال ديجول » الفرنسى بقامته الطويلة فى آخر الصف ! .. أشكال غريبة وأنواع صاخبة فمعظمهم مخمور ومترنح ، وبعضهم سخيف ومتعجرف ، وغيرهم ضحوك ولا مبال ! .. العالم كله أمامى .. طابور أمامى .. منظرى وياشدة الاضطراب خوف الخطأ أو التعثر .. ثم لهفتى وحرصى أن أعطيهم نموذج المصرى الجديد المتحضر . تمرست .. تمرنت ، فإنهم كانوا يخطئون كثيرا فى أنواع ورق الجنيهات المصرية ، حتى جرت يدى بينهم فى سهولة ، وأصبحت أليفا للمترددين ، يتلكأون من حولى ويسألوننى المشورة فى غير المبيعات ! .

وذات مرة - وكان « ماركو » قد طالت غيبته - شاغلتنى مخالب

تلك الخزينة فى حادث مرعب وعجيب ! .. يومها كنت مزدحما أمام فوج هائل من ضباط الطيران ، وكان أحدهم - وهو ضابط صغير - يحاول أن يستأذن ليسبق دوره فهو متعجل لموعد سفر .. رفض الذين أمامه أن يسمحوا له بل زجروه وأمروه أن ينتظم فى مكانه ، فسكت وهو يزوم محتجا ، وعلى ملامحه شكل طفل يوشك أن يبكى .. ولكن جنرالا مهيبا ضخما نظر إليه عطوفا ودفعه بيده ليأخذ مكانه .. هرول الضابط نحوى وهو يعتذر عن سوء سلوكه بأنه سوف يكون طائرا فى الهواء بعد نصف ساعة - هذا إذا لم تقابله « طائرات جورنج » فى أول الطريق .. كان قد جهز فلوسه وطواها على ورقتى الفاتورة ، فأسرعت أختمها له وسلمته نسخة الأصل ، بينما تركت النسخة الكربونية المطوية على الأوراق المالية تنزلق فى الدرج دون أن أفحصها .. والذى حدث بعد أن أنتهت وردية العمل فى المساء وأغلقت أبواب المكاتب والأكشاك ، والعادة دائما أن أكون آخر المنصرفين ، حتى أتمكن فأرتب الحسابات وأجمع الفواتير وأفحص الأموال ، ثم أغلق الخزينة لتكون جاهزة التسديد فى الصباح ! .. فوجئت بفاتورة هذا الضابط مطوية على سبع ورقات من ذات المائة جنيه وورقة واحدة من فئة الخمسين ! .. فحصت الفاتورة فوجدتها سبعة جنيهات ونصف جنيه - إنه دفع على كل جنيه مائة جنيه ! .. قفزت من مكانى مسرعا كمن أريد أن ألحق به .. كيف وقد مضت الساعات ؟! .. ثم « ميجور كول » قد انصرف ! .. وسكرتيرته « ميديث » أيضا . بل والجميع قد انصرفوا ، ولم يبق سواى أنا و « عم مدبولى » الفراش ، الذى كان واقفا متأففا فى انتظار أن أنتهى حتى يغلق البوابة ! .

حكيت لمدبولى وأنا منصرف عن حيرتى مع هذا الخطأ الفادح .. الـ ٧٥٠ جنيها تلك ، وصاحبها المسكين الطائر الآن فى علو السماء ! .. أنصت مدبولى وحملقته فى وجهى تعلن الدهشة لأننى أحكى

له عن هذا الأمر بسهولة ! .. مثل تلك الأخطاء كالعادة لا تحكى بل تخفى فورا فى جوف الجيب ! .. استعاذ بالله من الشيطان عما فكر فيه وصارحنى بأن « ماركو » يبنى الآن فيلا فى المعادى » من عديد أخطاء تلك الخزينة ! .. نظرت إليه فى عتب ، فهل نحن مثل ماركو يا عم مدبولى ؟ .. عاد الرجل ينكش شعر رأسه ويتمتم ولكن المبلغ كبير . إنه ثروة لك ، وكأنك لم تقل لى ! .. وبخته ، نهرته ، فلست لصا ولن أكون ! .

وفى الصباح عندما حضرت مبكرا تبينت أن أحدا لم يسأل عن هذا المبلغ .. أسرعت فقمت بتسديده - وعندما جاءت الفتيات وشاعت حكاية الـ ٧٥٠ جنيها التى دفعها الطيار الاسترالى الغلبان فى قميصين وكرافتة وبنطلون ، جحظت عيونهن النهمة فى عدم تصديق ، فأنت أنت الغلبان أيها الفلاح الساذج الابله ! .. ورحن يتندرن ساخرات ويطلقن نحوى تعليقات الدهشة والاستخفاف ، بطريقة أحرجتنى بل أخجلتنى ! .. يا إلهى - طباع فى الغريزة لم يعرفها ! .

أقشعر دائما من النظرة على درج الخزينة ، وأمامى الأكوام والرزم من مئات وآلاف الجنيهات .. أرتعب من شكل الفلوس الكثيرة وأتساءل فى دهشة عن تقسيمة هذه الحياة ؟ .. فإن ورقة واحدة من نوع تلك المائة التى أقلبها فى يدى ، أو أقل منها بكثير ، كانت قادرة ذات يوم على تغيير مصيرى وإكمال تعليمى فى المدارس والجامعة ! .. ومن أجل هذا بت أحتقر المنظر من تلك التى أذلتنى ! .. أحتقر وأكره شكل هذا المال الذى لا أدرى هل يوزعه قدر مقصود أم صدفة ضريرة ترميه أنصبة وحظوظا ! .. لا لست أحسد أو أحقد على نصيب جعلنى إبن فلاح كادح ومكافح وطموح ، تطاول فى جرأة أن يعلم أولاده فى المدارس ذات المصاريف ! .. فشل مع الابن الأكبر ، فلم ييأس مع الثانى ، وثابر ولهث مع الثالث الذى هو أنا - حتى لفظ أنفاسه شهيدا

قبل أن يكمل مشوار المعركة ! .. معركة حقا ، جيل الكفاح لهؤلاء الآباء الفلاحين الذين تسللوا من سراديب الطين بفلذات أكبادهم ليتلقنوا المعرفة وكرامة الحياة ، كى يأتى اليوم الذى قد يتأتى فيه أن يتمردوا على هذا الذل والضيم والقهر الذى هم فيه ! .

طردت من المدرسة طبعا ، فمن يدفع تلك الـ ٢٠ جنيه « المصاريف .. بل طردت من المدينة كلها ، فمن أين إيجار المسكن والطعام وكل الحياة ؟ .. لذت بعض الوقت ببيت شقيقتى الكبرى وزوجها فى « شبرا » وهما - فى جهاد أن يحصلا لى على مجانية الفقراء كى أستمر فى الدراسة - وها كم مائة شهادة فقر حقيقية ، ياذل نفسى وانتكاس رأسى وأنا أقدمها - ولكن المجانية كانت بالواسطة وكان فرسانها دائما ياعجبى من أولاد الأغنياء ! .. يا له من قهر شحن النفس بالاستنكار والتحدى ! .. يا له من ذل أجج فى الجوف نيران الغضب والتمرد ! .. عشت أتلطم فى القاهرة عدة أشهر ، ثم طويت نفسى أعود إلى قريتى ذليلا مندهشا ، أجلس على جسر الترعة وأحملق ! .. أحملق فى عزبة هذا الباشا البرنس التركى الذى يملك ٩٥ ٪ من حيازة أملاك القرية .. الـ ١٤ ألف نسمة لهم تنازل الخمسة فى المائة فقط ، وليأكلوا الطين وليبلعوا الزلط ويسفوا التراب ، فهذا قدر الله أن يكون غنى وفقير .. أطل غاضبا ومستنكرا على عزبة هذا الباشا وقصر هذا الباشا ومراتع هذا الباشا من ثنايا شجر السرو وأسوار الحديد ، وتأملى المعذب وتساؤلى الحارق هو عن تلك التفرقة الظالمة وبشاعة شيوعها .. حملقة ساعات أستدير بها نحو أهل قريتى الحفاة العراة .. هلاهيل اللحم والعظم والثياب .. الأوعية الهشة المريضة الذابلة .. مستسلمون ساكنون ، ورؤوسهم منكسة بدعاء القناعة والرضاء بمشيئة الله ! .

ولقد فكرت وقدحت ذهنى فلا يمكن أن تكون تلك مشيئة الله . فالله

خلق الكون لنا فائق التكوين والبهاء والنماء ، وأطلق مخلوقاته من بنى البشر - وبعد أن دس فيها أجهزة العقل والمشاعر كى أن تنظم نفسها بنفسها ! .. إذن فتلك التفرقة الفظة وهذا الظلم البشع ليس إلا أمورا بشرية مصنوعة .. صناعها طغاة ، أنانيون ، محتكرون ينتقلون بنا من حقبة ظالمة إلى حقبة أظلم ! صناع أشرار ولابد من مكافحتهم .. هذا التاريخ الذى قرأته ، ودائما لا تحل الأمور إلا ثورات يشعلها السخط ويؤججها الغضب .. وعيدان الكبريت لتلك الثورات دائما قلم يكتب ، أو فم يخطب ، أو يد تمتد بالسلاح ! . وبدفع الروح والغريزة فقد كانت لهفتى دائما أن أمتشق قلمى وأخوض به الميادين .. ومن أجل هذا وضعت نفسى فى تفرغ أن أشحذه وأستعد به لذات يوم يلوح فيه التحدى .. ومنذ الصبا المبكر ، بل منذ الطفولة ، أشعر بأننى أمتلك فى أجنحة نفسى فصولا تدق الأجراس إلى عديد حصص التأمل والمعرفة ! .. هكذا انطلق التحدى معى من ذل قطع التعليم ، فماذا تجدى تلك المدرسيات والبكالوريوسات وورق الشهادات ، وأمامى أكاديمية مفتوحة من أرفف مؤلفات العالم .. فكر العالم .. غصت فى بحر القراءة وتمرست على قفز الأعماق ، ورتبت لنفسى طريقة حصص قراءة ومراحل تأمل تمتص الرحيق من أى شىء أقرأ فيه أو أتأمل ! .. بات مسجدى الذى أتهجد وأتعبد فيه فى القاهرة هو « دار الكتب بباب الخلق » .. أصبح أصدقائى وأعزائى فى نواصى المدينة هم « باعة كتب الرصيف وعربات روبابيكا » الورق ! .. هذا أنا فى بعض رحلة القطار أحمل تذكرة التمرد والتحدى ... طرقتى الأخيرة المصممة على بوابات القاهرة الغليظة ... توغلى فى هذا الدغل المدهش من غابة التجارب .. أولئك النسوة ، وهؤلاء الانجليز والأمريكان وكل هذا الطابور الواقف أمامى كل صباح ، يتوهج بحضارة الطباع وكرامة الإنسان ، يبهرنى ويستفزنى ويحرك لهفتى ويا إلهى فقد شحنت وتكدست فمتى متى محطة الوصول . ؟

....

وفى « ميس الضباط » دعانى « الميجور كول » إلى - سهرة بارتى - يقيمها بمناسبة رحيل صديقه العزيز « بيرجر » إلى الجزر البريطانية ! .. ووجه الدعوة أيضا إلى فتيات البيع وأى صديقات لهن حتى من خارج العمل .. ثم سألنى فلماذا لا أحضر فتاتى أنا أيضا معى ؟ - يقصد مارى - وقد ضحكت ، ونبهته للمرة المائة بأنها لم تعد فتاتى ، ومهما رآنى معها فلم تعد فتاتى ! .

« مارى » ومازلت أراها يوميا بالطبع ! .. وتيرة انتظار أقطعها فى ملل وحيرة ، وما استمرارى معها إلا التحديق المتطاير ، أبحث به عن طرف الدوبارة الذى انقطع منى ومنها ، عن بالونة « مى الصغيرة » التى تطوحها توهة الهواء الآن ! .. ولقد جئت إلى تلك السهرة مع مارى .. كانت نشيطة وسعيدة ومنتعشة ، وكنت خجولا من منظرها المسرف فى التبرج والألوان .. يا آلهى فكم أصبحت غانية ! .. سهرة صاخبة متلاطمة ، تبادلنا فيها أنا وكول جلسة الموائد ، فقد لاحظت اهتمامه الشديد منذ رأى مارى ورقص معها ! .. انتقلت إلى مائدة « ميديت » ، فمنذ أسابيع أحاول أن أعلمها العربية ، وهى تحاول أن تستزيدنى من الانجليزية - ومسحة من تعلق جعلتها تشغف بى بعد أن حكيت لها بعض ما أحلم وبعض ما أكتب من أفكار قصص ! .. أخرج بها إلى المدينة أحيانا ، أو إلى السينما ، أو الباتيناج ، ولقد جعلتها تتعرف على بنسيون كنج فيليب ، وأحبتها بل عشقتها مدام موريس ! .. تسهر معنا وتطيل البقاء ، حتى بعد أن تنام مدام موريس ! .. وهكذا عندما لاحظت من بعيد رواج مارى بين الأيادى وخصوصا « كول » ، فما رأيك يا « ميدى » أن نترك هذا الصخب والهواء الخانق ، لنجلس فى شرفة الهواء الطلق مع مدام موريس وتقرأ لنا نبوءات الفنجان ! .

....

وكان اليوم التالى لتلك السهرة أجازة قضيته مع « صديقى نجيب » فى مصر الجديدة ..

وعندما عدت إلى البنسيون فى آخر الليل ، وجدت قائمة تليفونات تكرر فيها اسم مارى واسم الميجور كول ، ثم مع آخر مكالمة رسالة عاجلة مرحة تركها « كول » بأنه يقضى الآن سهرة سعيدة جدا فى بيت « حارة حبيب شلبى » مع الطانط وديعة أم مارى - ويستحثنى أن أسرع بمجرد حضورى ! .. ابتسمت مندهشا ، وضحكت مستغربا فعزيزى كول أيضا له اندلاعات الفنان ! .. و .. وأسرعت إلى النوم ! .

وفى الصباح عندما دخلت فى مبنى العمل دهشت وحملقت متعجبا ، فقد رأيت « مارى » واقفة بكشك المبيعات ، تتلهف لرؤيتى وابلاغى بأنها عينت منذ اليوم بمرتب « ٢٠ جنيها » ! .. قالت هذا وهى تضغط على يدى فى نشوة وحرارة ، وكأنها منحتنى صحبة كل النهار بعد صحبة ليل ضنين ! .. ولست أدرى لماذا تضايقت ونفرت بل تشاءمت ، فما تلك المطاردة القدرية الشقية من الحاح ما يحدث بينى وبين هذه الفتاة ! .

....

....

هذا هو الشهر السادس منذ قطع الدوبارة عن « بالونة مى الصغيرة » والتى مازالت تتطوح وتتقلب وتحوم فوق أسقف البلاط لصاحبة الجلالة الصحافة .. كل يوم يمر ، بل كل لحظة ينهشنى الفزع على مصيرى ، ويرعبنى أن تقلع المركب كل يوم وتتركنى نائحا على أرصفة الضياع .. وكل يوم يمر له حجم سنة تسقط من عمرى .. ولقد أمسكنى العذاب من قلة حيلتى وانعدام إمكانياتى .. تخبطنى اليائس وراء وسيلة الظهور .. هل أظل حبيسا فى زنزانة مشروعى الفاشل هذا ،

فلماذا وبعد أن أعيتنى الحيل لا أجرب أن أتمرد وأخرج سافرا وليحدث ما يحدث ! .

نعم . كان آخر قرار لى وبعد أن طحنتنى الحيرة أن أطرق على باب الضمير المهنى ! .. كتبت خطابا شخصيا مطولا للأستاذ التابعى ، أصارحه فيه بكل قصة مى الصغيرة من الألف إلى الياء .. أسجل عليه كل القصص التى نشرتها آخر ساعة وسواها ، وكيف وضح أنها لاقت الاستحسان والرواج من القراء ، فلماذا أحرم من فرصة أن أنشر ، وهل يجب أن يسخطنى الله لأتحول إلى فتاة تعجبكم وتروق لكم ، وما هذا الظلم المتعسف فى إهمال الأخذ بيد الناشئين ؟ .. خطاب طويل ، ويحمل التحدى لضميره وقلمه الذى تعلمنا منه ، وكما قلت له شجاعة الرأى ! .

انتهيت من كتابة الخطاب وأرفقت به « قصة قصيرة » جعلت عنوانها نفس العنوان الذى يكتب به هو « بعض من عرفت » – العنوان الذى يملأ به القاهرة أحلاما وسحرا وتحليقا ، فهو يروى فيه لقطات جذابة عن مغامراته العاطفية والملتهبة مع بنات السين ونساء التيمز وعذارى الدانوب ! .. الكونتس ، والدوقة ، والليدى ، والبرنسيس .. أوانى العسل ، وأشهى الرحيق يسكبها كل أسبوع فى الصفحة الثانية من آخر ساعة .. والناس تلعق بكل نهم اللذة والاعجاب .. قصتى هنا ووقائعها فى القاهرة .. وموضوعها « مجندة بريطانية حسناء » تشتهى لنفسها طفلا من عصر أمراء الفراعنة ، وعندما تقع على أميرها المنشود فهذه هى قصتها الغريبة معه ! .

غلفت الرسالة مع القصة ، وتوقيعى عليهما باسمى الصريح لأول مرة .. وخرجت أبحث عن صندوق البريد ! .

....

أحسست بالرعب عند أول صندوق بريد أقف أمامه ! .. أن ألقى هذا الخطاب فهذا يعنى إعلان الفشل النهائى لمشروع مى الصغيرة ؟! .. جبنت .. لم ألق بالخطاب بل استمررت أمشى وأتسكع بائسا حائرا ، وكلما هممت أن أتوقف أمام صناديق البريد الكثيرة التى تقابلنى احتجت إلى شجاعة أكثر ، فأؤجل إلقاءه إلى صندوق آخر ! .. أمشى وأمشى وكلما فكرت أن أتوقف أمام أحدهما ، أعود وألوى عنقى إلى صندوق آخر ! .. العتبة الخضراء ، ثم شارع الأمير فاروق ، ثم ميدان إبراهيم باشا . ثم شارع فؤاد الأول ، ثم شارع عدلى باشا ، ثم شارع سليمان باشا ، ثم ميدان باب اللوق ، ثم .. ثم أتوقف أمام صندوق البريد المعلق على حائط عمارة فارهة من ناطحات القاهرة الحديثة ! .. مازالت يافطة « مجلتى » التى كان يصدرها « أحمد الصاوى محمد » موجودة ، وكانت شهرتها - « الباخرة التى تسير » - توقفت عن الصدور بعد أن استهلكتنا لهاثا وانبهارا من خلفها ! .. « مجلتى » هذه كانت باخرة براقة ، ظهرت فجأة لتمخر العباب فى أرجاء الأحلام المصرية .. أول صحافة مزهوة بطباعتها الحديثة وفخارة ورقها المصقول وزهو الصور والألوان والرسوم .. وكل عدد فيه باقة من صور تتوهج لأحلى وأشهى بنات الصالون المصرى .. بنات الذوات والهايلايف بشعورهن المعقوصة ، وأكتافهن العارية ، ونهودهن البارزة ، وطراوة الابتسامة ، وسحر العيون والجفون .. يكتب فيها فرسان القلم : « توفيق الحكيم ، وطه حسين ، والعقاد » ، ونجوم جدد تتنازل من أعلى مقامات المناصب .. ومحفة عطر مطهمة وذات رياش يخفق لها القلب ويندلع معها الحلم والخيال .. تحولت « مجلتى » بالصاوى إلى نجم الأحلام فى السماء المصرية ! .. عاشق فرنسا والسوربون وليالى باريس ! .. كازانوفا العصر ودون جوان الجيل وروميو أمير العشاق ! .. مترجماته وكتبه الجواهر عن أفذاذ فرسان الغرام ! .. تدفق بنفسجى فى عيون وأفئدة الناس ، والصاوى

يمسك له عصاة الحاوى الماهر الأريب ! .. ولقد تعطف على الناشئين بالاعلان عن مسابقة لهم فى القصة والمقال والبحث والنقد - وكنت مازلت تلميذا ويتيما جديدا ، فاجتذبنى مغناطيسه القوى أن أطرق الباب على « مجلتى » تلك ذات ضحى ! .. أول مرة آخذ الشهيق فى أجنحة البيوت من بلاط صاحبة الجلالة .. فى يدى كشكول بائس المنظر ومنظرى معه أشد بؤسا .. حذائى المرتوق ، وبدلتى الكالحة ، وقميصى البالى ، وواضح أن الفقر الغليظ قد وشم بالختم الكاوى على كل مساحة من وجهى ومنظرى ! .. دخلت مترددا مرتجفا وانحنيت أمام شاب أبيض صغير - من سنى تقريبا - يشتغل سكرتيرا له ، فمن أوصله هذا المحظوظ إلى تلك الحظوة .. اسمه « سامى » - وكان مؤدبا ودودا خفف من حيائى بحماسه لكتاب كان يقرأ فيه - من خطب وطنيات « الزعيم الشاب مصطفى كامل » ، وقد أنصت له طويلا ومعجبا .. ولكن عندما جاءت الفرصة أن ينصت هو لى ، بادرنى بأنه غير مقتنع بجدوى اللقاء مع أستاذه الكبير ! .. تركت له الكشكول ، ورجوته أن يحاول ويختار منه أى قصة لدخول مسابقة الناشئين ! .. تلطف ووافق ، وبينما هو يهم بتوديعى ، فتح الباب عن جناح « الصاوى العظيم » ، لتخرج منه لفحة من عطر فواح ، عرفتها من صورها فهى الشهيرة ذات الجمال وبنت الذوات « أمينة البارودى » ، والصاوى يودعها بكل أتيكيت وأناقة الباريسيين .. التصقت بالحائط أحاول أن أخفى منظرى الزري ، حتى عاد من توديعها فتوقف أمامى وأمام سامى ونظر إلى شكلى ، ولست أدرى ماذا أضحكه ! .. قدم له سامى الكشكول وهو يهمهم مبتسما مشيرا نحوى بأننى أريد أن أدخل فى مسابقة القصة ! .. وبينما هو يقلب فى الكشكول لاحقته أقول له صادقا ومن القلب بأننى معجب بأسلوبه ولآلئ تعابيره ! .. ابتسم مغتبطا ، وربت على كتفى كأنه يمسح على ظهر جرو مشرد ، وتلطف يسألنى أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، فأجبته فى

فأفأة وتأتأة وثأثأة ، عن مدرستى وقريتى ولهفتى أن أكون كاتبا .. فعاد يربت علىّ ظهرى فى رقة وهو يدفعنى نحو الباب ، بعد أن أمر سامى أن يقرأ فى الكشكول ويبدى رأيه ! .

خرجت يومها وأنا أكاد أتطاير فرحا وأملا .. وبعد يومين أو ثلاثة - وكان العظيم الصاوى - يكتب أيضا عاموده اليومى فى الجبارة « الأهرام » وفى الصفحة الأولى .. أشهر باب صحفى على الاطلاق ، فوجئت منه بهراوة ثقيلة ظالمة تنزل فوق رأسى ، فقد روى عن لقطة لقائه بناشئ خيالى حالم من أولاد الفلاحين - وان لم يذكر اسمى - وأشفق عطوفا على جيل الناشئين الزاحفين من غيطان الريف وخيالهم أن يقودوا الوجدان والعقول ، فلمن يتركون الحقول ورعى الجاموس ؟! .

يا شدة التأثر يومها ، بل يا شدة القهر واليأس والغضب والجنون ، .. يأس أوشكت معه أن أعود إلى مذلة الفأس والمقطف والركوبة ، بعد حلم القلم والورق والمكتب ! .

....

صندوق البريد ، فى عمارة « مجلتى » .. ومرة أخرى أتشاءم منه بل أشيح وأستعيذ أعود وأمشى لأتوقف عند « آخر ساعة » فى عمارة بحرى ، فهل أصعد وأسلم الخطاب يدا بيد ؟ .. لا . وأحسن أن يكون فى البريد ! .

عدت أمشى فى اتجاه شارع قصر العينى .. الشارع الذى يجذبنى إليه بأقوى المغناطيس هنا مملكة النشر والصحافة ودور الأحزاب .. هنا بلاط صاحبة الجلالة الصحافة .

« ٣٠ » مجلة وجريدة متناثرة فى شقق وبيوت وقصور وفيلات .. تعبت من المشى .. كان يجب أن أحسم ترددى المعذب ، فتوقفت أمام صندوق بريد الجمعية الجغرافية الملكية ، وأخرجت الخطاب من جيبى ، ورفعت يدى لأسقطه فى الشق .. وفجأة .. فجأة ..

وجدت شابا يحملق فى وجهى ويمسكنى من ذراعى .. باسم ، وطويل ، ووسيم ، وأخضر العينين وممشوق القوام .. من ؟ . من ؟ . « حازم فودة » ؟ .. زميل النيل الثانوية ؟! .. ويالها من مفاجأة ! .. أنه يدير « مجلة سياسية وفدية » اسمها « الساعة ١٢ » .. يا إلهى ، لقد قرأت اسمه عليها فلم أصدق أن يكون هو ! .. تبادلنا العناق فى حمية وحرارة ، فكم تنافسنا ولعا فى الكتابة وحصص الأدب والشعر والانشاء ! .. تمشيت معه وذراعه فى ذراعى المرتعش .. يخفق قلبى بقوة وهو يقول أنه يعد عددا خاصا لمجلته عن « القصة القصيرة » ، ثم يسألنى فجأة سؤالا مباغتا غريبا ، وكأنما السماء تنشق لى فجأة عن سحر معجزة .. يسألنى فهل أعرف عنوان الكاتبة « مى الصغيرة » ، فإنه يبحث عنها له أسابيع لينال منها قصة لعدده الخاص المنتظر ! .

« المحطـة »

القاهرة ٤٣ - ٤٤

عندما سألنى « حازم فودة » فجأة - إذا كنت أعرف عنوان « الكاتبة مى الصغيرة » ، فهو يريد منها قصة للعدد الخاص الممتاز الذى سوف يصدره قريبا من مجلته الساعة ١٢ .. توقفت بل ارتعدت وشحب وجهى فلماذا يسألنى أنا بالذات ؟ .. هل يعرف ؟ .. كيف ؟ .. ومن قال له ؟ .. نظرت إليه مستطلعا فوجدت وجهه لاينبئ عن شىء ، فسألته مترددا وأنا أخفض رأسى لأخفى انفعالات وجهى - ولماذا تظن أننى أعرفه ؟ .. قال - لا أدرى فهو مجرد خاطر ، فأنا ، أعرف عنك منذ زمان أن لك الأنف الحاد فى تشمم الكتابة ومن يكتبونها ! .

أوشكت فى لحظة ضعف يائسة أن أقدم له نفسى فأنا هو « مى الصغيرة » .. ولكننى تراجعت سريعا ، فكم سوف تعلو سخرية ضحكاته ! .. ضغطت انفعالى وأجبته فى هدوء - نعم أعرف ! .. تهلل وجهه متعجبا غير مصدق ، وأدهشه أن الخاطر الذى ألقاه عفوا قد أجاد التصويب ، فقال متحمسا - إذن هيا نذهب إليها فورا ونتفق معها ، وياليتنا نحصل منها على صورة ننشرها مع القصة ! .. عدت أتفرس فى وجهه .. برىء تماما ولا ينم عن أى شك أو هزار ! .. أنها

إذن رمية قدر تلقى طوق النجاة فى آخر لحظة .. إنقاذ مى الصغيرة فى آخر لحظة .. استرددت نفسى .. ابتسمت .. ضحكت .. أخذته من ذراعه فى حماس - وعزيزى حازم ، ما رأيك أولا فى تناول فنجان قهوة فى محل « إيسافيتش » القريب هنا ، وتعال احك لى أنت أولا عن مفاجأة أنك الآن صاحب مجلة ؟!

....

الليلة عيد ميلاد صديقى « الميجور كول » - وقد أعد له السهرة مجموعة من أصدقائه وزملائه فى أبهاء « عوامة » أنيقة راسية على شاطئ النيل « بجوار كوبرى الزمالك » - وكان قد دعانى بل أشركنى فى الاستعداد لها بطريقة ، نريدها ليلة شرقية فنانة مثل ليالى « جنيفة السويس » ، وملعونة تلك الحرب ومن شنوها ! .. كما دعا أيضا كل فتيات البيع - وأولهن « مارى » وكل أسرتها بالطبع ! .. علاقته بمارى تمادت واستشرت ، ويخيل إلىّ أنها أصبحت منه إيغالا وتعلقا محموما .. أبدا لا شأن لى بهما ، فشئونى مع نفسى أهم وأكبر ! .

لقد رغبت أن تكون مفاجآتى لسهرة عيد ميلاد « كول » أكلة فتة شعبية - بكل التحابيش والتحاويج ، من صنع صديقى الكبابجى الشهير « أحمد العجاتى » بشارع فاروق ، يصحبها « أنجر » محشود بلحوم الكباب والنيفة المشواة ، وأطباق منوعة من سلطة الطحينة والطرشى البلدى الحريف - حددت لمواكبها توقيت الوصول إلى سهرة العوامة ، وكانت التكاليف باهظة وقاصمة - ٢٣٠ قرشا معلهش - .. ثم أيضا مفاجأة الليلة الشرقية الفنانة ، فقد دعوت معى مجموعة من أصدقائى وأصدقاء « نجيب » منهم الموسيقار الشيق العجوز « سامى الشوا » عازف الكمان الذائع الصيت ، ثم هذا المطرب الجديد « الكحلاوى » وكان قد بدأ يروج فى القاهرة بمواويله البدوية ، ثم راقصة البسفور الجميلة « عزيزة سامى » ! .. وهكذا مع

امتداد السهرة تحولت هديتى فى عيد الميلاد - طبق الأكل وطبق الفن - إلى كل السهرة .. الفتة والنيفة والكوارع التهمها الانجليز وبنات الانجليز ولعقوا الأصابع ! .. ثم كمان « سامى الشوا » - ولله الله عندما عزف عليه لحن « يا عزيز يا عزيز كبة تاخد الانجليز ! » وعندما فسرتها لهم ضحكوا وصخبوا وتسامحوا ثم مواويل الكحلاوى ، ورقص عزيزة سامى وكيف أبهجهم وأثملهم إلى درجة التطوح والتمرغ والصياح ! .

....

يمتد الوقت ومازالت السهرة مندلعة وصاخبة .. أتسلل إلى شرفة العوامة ، وكان القمر بدرا والنيل يتلألأ .. نسيم أبريل الرخى .. وأحاول أن أزن رأسى مما يموج فيه من أفكار بل من هائل الأفكار .. وما نشاطى فى تلك السهرة وزجى بنفسى فيها لأكون صانع معالمها ، إلا الاحتفال الخاص بنفسى .. انهاء فترة الاستجمام المرهقة البائسة التى كنت ضائعا فيها أحملق فى هذا الحبل الذى أنقطع من بالونة « مى الصغيرة » .. ها هو الحبل يعود يا إلهى متقطعا متهافتا ضعيفا ، ولكنه بات ممسوكا فى يدى .. هذا اللقاء الخرافى منذ ثلاثة أيام مع « حازم فودة » واتفاقى معه أن أبدأ النشر ! .

« مى الصغيرة » أصبحت محررة « فى مجلة الساعة ١٢ » ! .. تكتب كل أسبوعين قصة قصيرة ، ثم كل أسبوع « باب » للنقد والتعليقات - ولها كل الحرية أن تكتب ما تشاء ، فكل ما تكتبه سوف ينشر إلا ما سوف يشطبه الرقيب الانجليزى والرقيب المصرى .. والمرتب « أربعة جنيهات » فى الشهر - وهو مرتب يعلو عن تسعيرة المرتبات فى كل الشارع الصحفى ، والذى لا يزيد أبدا الآن عن ثلاثة جنيهات .. مع اشتراط أن يظهر الاعلان عنها فى « الأهرام » مرة ، وفى « المصرى مرة » يوم صدور كل عدد ، ويكفى أن يقال فيه « مى

الصغيرة » تظهر فى الساعة ١٢ .. هذا هو اتفاقى مع « عزيزى حازم » فى جلسة « ايسافيتش » التاريخية ، والتى أحسست معها أن مرحلة طارئة وهامة تطرق الباب على حياتى لتوقظ ما هجع وخمد من أحلامى البائسة ! .. اتفقت معه على البدء من هذا الأسبوع بالباب الجديد والقصة القصيرة ! .. مواصلة أكاذيب بيضاء منى ، أرتجلها وأختطفها وليغفر لى الله كل تلك الحيل المؤثرة البريئة ، وأنا أناضل غلظة هذا السور من حول بلاط حبيبتى المشتهاة صاحبة الجلالة !

....

لى ثلاثة أيام الآن منذ قابلت « حازم » ، وكان آخر كلام بيننا أن ، دعنى بضعة أيام حتى أتمكن فأقنع « مى الصغيرة » وأبلغها بالاتفاق ! .. مهلة تردد وتفكير ، أعطيتها لنفسى كى أقرر وأتأهب ، فالساعة ١٢ فى قطار الصحافة ليست إلا « عربة سبنسة » ، فما أدرانى لو تعجلت الالتحاق بها الآن أن أظل بقية حياتى قعيد المؤخرة الصحفية ؟ .. حلمى وتشبثى هو « آخر ساعة » مثلا أو « المصرى » مثلا أو « الأهرام » ، ياليت ، أو هذا الهرم الجديد الذى ينبئون أنهم يشقون له الآن جوف الأرض ليظهر فجأة ويصبح معالم ! .. « مشروع أخبار اليوم » ، وما يقال عن قرب ظهورها ! ... ترددى واهن ودلوعة وضعيف الإرادة ، بل تدليل خطر لأحلامى المتلهفة والمتلاطمة منذ زمان فى متاهة السرابات ، بحثا واكتشافا عن أية محطة يمكن أن أركب منها الاكسبريس الصحفى .. ولقد أبلغت « حازم » اليوم تليفونيا ببشرى موافقة « مى الصغيرة » على التحرير فى الساعة ١٢ ابتداء من هذا الأسبوع .. هكذا حسمت التردد .. وهذا أنا بسهرة تلك الليلة أنهى استجمامى وأفرك يدى - فمنذ الصباح المبكر سوف أستلم « مائدة كازينو البسفور الرخامية الناعمة » ، فى الركن الشاعرى الهادئ ، وأمامى فنجان القهوة الدسم ، وكوب الماء المثلج - وتعال ياقلمى المحروم خذ فرصتك وحظك ! .

....

مازلت سارحا مع النيل والقمر على سور شرفة العوامة .. نحن فى أبريل وربيع مصر الفواح يعبق ويسرى فى شعاعات القمر .. النيل والبدر فى اكتماله .. وآه يا بلادى الجميلة العريقة ، يا كنانة الله وفتنة الزمان ، متى تجمعين شعث نفسك وتراثك وتتأهبين لمستقبلك وطموحك ؟! .. من خلفى « الزمالك » وثم « بولاق » ، ثم « شبرا » ، ثم « روض الفرج » ، ثم « القناطر » .. ومن أمامى « أمبابه » ، وبعدها « بشتيل » ثم « أوسيم » ثم « المناشى » ثم برقاش ثم « القطا ، ثم أبو غالب » ثم قريتى الراكدة فى تابوت القهر والحرمان والمهانة . أهلى الغائصين كالدود فى الطين .. جسر الفقر الطويل الذليل قبلى وبحرى ومن ثناياه تطل فسيح المراتع والعزب والقصور والأملاك للبشوات والخواجات والاقطاعيين .. قريتى البائسة المحرومة ، وقد طالت غيبتى عنها .. بعدت نظراتى عنها .. وسوف يكسرنى الخزى إذا رمقنى بعض أهلها فى منظرى المزيف البادى هذا كأبناء الأغنياء اللاهين أو أبناء الخواجات الصاخبين فما أدراهم بأن كل هذا أكاذيب وأقنعة بمثل أكذوبة وأقنعة البريئة « مى الصغيرة » ! .. ردائى هذا ومنظرى هذا ووقفتى تلك ، مجرد مظروف يطوى رسالة مندوب من الفلاحين فى الوحل والظلام إلى أهل القاهرة فى الابهاء والأنوار .

....

القمر والنيل من سور الشرفة .. هيمان الاحلام بل سحر الاحلام .. نقرة الربيع على القلوب والمشاعر ! .. وأشعر أن جسماً دافئاً بضا يتسلل ويلتصق بى .. إنها « السيرجنت ميديث » ، السكسونية فاخرة الانوثة ، يجذبها منظرى السارح مع النيل والقمر .. كانت ثملة ونشوانة فاشتد التصاقها بى ، بل لفت ذراعها من حولى فى ضمة شغف أن تأخذ كل الجرعة من سحر المنظر وإغرائه .. كان

جسدى بارداً ، ورغبتى خامدة ، وأتمنى لو لم تتمادى بفمها الذى أخذ يتكور مستدعياً ومتلمظاً للقبلة .. ولست أدرى كيف شاء القدر أن تظهر « مارى » فى تلك اللحظة بالذات لترانا هكذا .. وتبدأ معنا مأساة السهرة ..

« مارى » وقد شربت كثيراً بحيث فقدت الصواب والاتزان - وهكذا ما كادت ترى منظرى الملتصق بميديث حتى اندفعت فى رعونة وهمجية نحو الفتاة وقد أخذتها الغيرة تشدها وتبعدها وهى تطلق هلوسة وهذيانا تريد أن تقول به أن هذا الرجل رجلى .. غضبت وثرت واستنكرت ، وزجرتها أن تفيق من خمرتها الثقيلة فلست رجلها ولست رجل أى امرأة ، ولاداعى لفضائحها فى كل مكان .. ولكنها صخبت واشتد هياجها ، وتمادت فرفعت يدها بالحقيبة تهم أن تضرب بها ميديث ، فلحقتها أمسك ذراعها وأنا أدفعها بعيداً ، فانزلقت قدماها ووقعت بجوار سور الشرفة .. قامت تبكى وتترنح وتصرخ ، وعادت تتجه الينا لتكمل المعركة وهى تتساند على السور .. ثم فجأة - ياللهول - تدحرجت كالحشية من فوق سطح العوامة لتسقط فى النهر !

وقامت ضجة الفزع والصياح .. هبت العوامة كلها لرعب الحادث .. وأسرعت أقفز لأنزل حيث سقطت فوجدتها محشورة فى الماء بين الشاطئ وجانب العوامة ، وهى تضرب بذراعيها فى صرخات هيستيرية هلعة مستنجدة !.. قفزت فى الماء حتى تمكنت فأمسكت بها ويداى تحاولان تخليص ثيابها من أسلاك قد انغرست فيها ... وبينما أحاول ذلك وقعت بكلتا يداى على منطقة من قاع الماء الغائض ممتلئة بشظايا الزجاج وأسياخ لها حدة المنشار ، فرحت أجرف الشظايا وأخلص الاسلاك بيدى حتى تمكنت ورفعتها لتتناولها منى الأيادى !.. ووقفت برهة لاهثاً مروعاً أتأمل هذا الدم الغزير الذى انبثق من جروح الشظايا والاسلاك فى يدى وذراعى !.

وذهبنا إلى « المستشفى العسكرى الكبير » بالعجوزة .. مارى فى حالة اغماء ، وأنا بالدم النازف الذى حاولت عبثاً أن أوقفه بربط المنديل !.. وتبين أن مارى لم يحدث لها إصابات ذات خطر إلا من خرابيش ورضوض خفيفة .. أما أنا فقد خرجت من المستشفى تلك الليلة ويداى تعلوهما رباطات لفائف كثيرة ولن تفك حتى تلتئم الجروح بعد أسبوع أو أسبوعين !.

......

هذه الفتاة المدمرة « مارى » وماحدث بسببها .. قدر صارم أن تعود بى إلى حصة التردد مرة أخرى .. أصابعى باتت سجينة فى تلك الأربطة فكيف أنفذ الوعد بالكتابة ؟.. وفى التليفون ، عزيزى حازم معلهش ، فمى الصغيرة تخلف وعدها فللأسف قد فاجأها المرض وليس بوسعها أن تنفذ الاتفاق إلا بعد أسبوعين .. صدم حازم وظن هذا انسحابا أو تراجعا ، وراح يعتب بأنه أستعد باخلاء الصفحات ، وجهز الاعلان للأهرام ، وتساءل فى شك إذا كنت أضحك عليه أم ماذا ؟ ولكنى أكدت له أنها سوف تفى بوعدها بمجرد انتهاء محنة هذا المرض الطارئ معها !

لى أيام وأنا حبيس حجرتى فى « بنسيون كنج فيليب » بيداى المربوطتين ، وأنا معهما عاجز عن فعل أى شىء !

« مارى » وقد شاع عنها منذ ليلة العوامة - بأنه كان منها محاولة انتحار لأنها مازالت تحبنى ! .. وتضخمت الإشاعة التى نفيناها بشدة طبعا ، سواء جاء النفى منى أو من مارى .. مارى تنتحر فهل هذا معقول ؟ .. الرجال فقط هم الذين ينتحرون حين يلقون بأنفسهم فى حمم بركانها .. ولكن عزيزى العاشق « كول » ماأشد إشفاقى عليه - بدأت نظراته المعاتبة الغريبة يوجهها نحوى ، وهمس بنات البيع من حولى ، ولفتاتهن المزعجة بحيث بت أحس بالحرج والسأم من العودة إلى قشلاق قصر النيل هذا !

....

يعاودنى القلق والتردد مرة أخرى ، من حول عودة الظهور لمى الصغيرة فى مجلة صغيرة حزبية مثل الساعة ١٢ !.. إنها واحدة من عشرات المجلات الصغيرة التى تتغازر فى السوق تحت أجنحة الاغداق من « حزب الوفد » الحاكم .. تتعيش من الوفدية .. لا بأس ولا مذلة أن تتعيش من الوفدية فكل البلد وفدية !.

« الوفد » فى قمة رواج الحكم وثباته .. « النحاس باشا » هو الزعيم الأوحد وقطب الجماهير بل هو ملك الجماهير ، « وسراج الدين باشا » هو ولى العهد اللامع ، والوفديون فى كل مكان هم الغطاء الوطنى والسياسى !.. والمعارضة مضغوطة بائسة فهى خلايا متأججة تتصايح فى شوارع مهجورة .

مجلة الساعة ١٢ خفيفة الوزن جدا .. لا ثقل لها البتة ولا لمعان فى هذا السوق الضاوى هادر الأنوار بل هى شاحبة وتوشك أن تضمر وتنصرف مثل سواها .. لقد ظهرت ساطعة ولامعة وجامعة ، ولها قافلة كتاب جذابون لمدة أشهر قليلة فقط ، ولكن السوق الجامح ماأسرع مالكمها لتنكسر وتتهاوى فى انكماشة الرصيف .. ولقد استأجرها « عزيزى حازم ؟ الوفدى جداً عن إخلاص وعقيدة أعرفهما فيه منذ الصبا - من صاحبها « الشامى » حائز الرخصة « وديع شبلى ».. ولعله فكر فيها أولاً كمشروع تجارى يمكن أن يبدأ به مستقبله ، فالصحافة إذا أخلصت ونجحت وضرب معها الحظ فهى رواج واغداق ثم ثانيا كمشروع سياسى يرضى به عقيدته الوفدية المقتنعة - فقد كان حزبيا متحمسا وبريئا !.

وعندما قابلته ، كانت أحلامه التجارية البريئة والشريفة قد خبت وتواضعت وسط طاحونة هذا السوق ، ولكنه استبقى لعزيمته وإرادته ،

حماسه الوفدى ليرفع به رأسه فى وجه هذا السوق المتغطرس المحتكر !.

لم يكن هناك ما يغرى باختلاف تلك المجلة عن بقية الكتاكيت الصحفية الصغيرة المصوصوة ، والتى تلتهمها دائما أفواه الصقور من صحافة الشوام واليهود والمخابرات البريطانية .. صف مجلات بائس يتضور ، مثل « التلغراف » ، و « المصرى أفندى » ، و « الشعلة » و « العزيمة » ، و « الصرخة » ، و « الصاعقة » و « الرأى العام » ، و « رابطة الشباب » ، و « الحوادث » ... الخ ... الخ ... لا جديد لديهم فى السياسة إلا أن النحاس هو الزعيم الأوحد ، وسراج الدين هو الوطنى الأسطع ، وملعون آباء وجدود « صدقى » و « محمد محمود » و « حلمى عيسى » و « مكرم » ، وبقية الأوعية من المطبخ السياحى المحشود ! .. لا جديد للقراء إلا القفش والتنكيت وغريب الأنباء من صالة « بديعة » و « ببا » وراقصات الحانات وأيضا أولئك الغانيات من طبقة بنات الهايلايف ونساء الصالونات ، وعن أسرار درية هانم ونعمات هانم وسوسن هانم ، وغراميات ومغامرات عائشة فهمى ، وتاتا زكى ! .. ثم القصص والمترجمات الراكدة ودائما لها مكان الهامشيات فى صفحات الاعلانات ! .. ولهذا خطر على بال « حازم » أن يقدم هذا الاختلاف من جذوة « مى الصغيرة » التى توهجت فجأة كما اختفت فجأة !

كانت القصة القصيرة فى ذاك الحين أو فى تلك الأشهر بالذات – وأقولها بلا ادعاء – قد دقت خاطف الأجراس لنفسها فى الساحة الخاملة الراكدة منذ لاحت تلك القصص البراقة ، أو تلك الشهب اللامعة .. الاثنتى عشرة قصة التى نشرت تباعا من دار آخر ساعة ودار الهلال تحمل اسم مى الصغيرة .. كانت مفاجأة تقليب وجرأة تجديد فى تقليدية القصة القصيرة وتحفظها الفاتر وقشرها المتهافت .. هيجت شهية القراءة فى الناس للقصة القصيرة ! .. نعم منذ مرقت

« مى الصغيرة » على السطح الراكد اهتز نهر القصة القصيرة وبدأ يأخذ الحركة والمجرى ، فهذا هو « حازم فوده » وسواه يتأهبون لإصدار أعداد خاصة عنها .. هناك قصصيون كبار وأساتذة رائعون يملأون الساحة طبعا . « محمود كامل » و « سعيد عبده » و « يوسف حلمى » و « تيمور » و « صلاح ذهنى » و « فجر » و « أدى » و « طاهر لاشين » - ولكنهم باتوا فى أوعية الهواية والتسلى بمثل الطعم الواحد .. نفس الطبخة التقليدية من مجتمع يتدارى بعورات نفسه ، ويتلفح بكثيف الثياب ليخفى الأورام والعورات من جراحات أعماقه ونزيف حرمانه ! .

هكذا مجلة الساعة ١٢ خفيفة فى الوزن جدا ، وتوزيعها هابط وتنافسها كاسد ، ولا أمل يرتجى فى أن تماشى العمالقة الكبار ، فهى بالنسبة لمجلة مثل آخر ساعة أو الاثنين ، مجرد واحد يركب البسكليت وعلى طريق المنافسة مع واحد يركب الباكار ! .. المجلة السبنسة والواقفة على المحطة « الهلت » ، وليس هناك من معالم إلا الرصيف ، بقايا الرصيف ، ولسوف أتوقف عنده فى انتظار أن يلمحنى أصحاب الجلالة عظماء المحترفين ، فهم خلية التأثير الكبرى .. هم أزرار الإضاءة لاشارات المرور .. نعم سوف أتراسل بذبالات ضوء تلك السبنسة مع أنوار « التابعى » و « أبو الفتح » و « مصطفى أمين » و « أولاد زيدان » و « أولاد تكلا » و « أولاد صروف » وبقية وجهاء البلاط الملكى الحافل - ولهفة ذات يوم أن يطلوا من الشباك على راكب السبنسة اللاهث فيلحقوه بقطارهم الفاخر ! .

وفى « كازينو البسفور » دعوت « حازم » أن يقابلنى ، وأعطيته أول قصة وعنوانها - « وداعا يا عشش الترجمان » ، و « أول باب » - وعنوانه « لو » .. جلست بجواره ، وتركته يقرأهما وقلبى يخفق برعشات الامتحان .. أغلقت عينى وحواسى كى لا أتتبع

ملامحه ، بل استدرت وأعطيته ظهرى كى أخفى اندلاع قلقى ولهفتى فربما يصدمنى بأنها ليست هى ! .. وأخيرا ، أخيرا - وجدته يهزنى من كتفى وعيناه تسطعان بفرحة نهمة ، ثم مد لى يده فى حماس لم يقدر على إخفائه ، يشكرنى ، يشكرنى ، ويا إلهى ياها من فتاة ، فأين كانت ؟ .. ولكن أين صورتها ؟ .. بل أين هى بنفسها ؟ ! .

أغمضت عينى مرة أخرى .. وتتواصل معى الأكاذيب والتمثيل الأبيض معلهش .. وعزيزى حازم يجب أن أصارحك فتعرف حقيقة المأساة عن هذه الفتاة .. أنها مشلولة منذ حادث تصادم وقع لها فهى لا تغادر الفراش أبدا ، ثم يفزعها أن يراها أى رجل غريب وهى بهذا الحال ، ثم ما جدوى أن تراها أو تقابلها وهذا أنت ترانى أمامك أؤدى المهمة ؟ .

ابتسم حازم وهو يغرس عينيه فى وجهى مستسلما ، وغمز بعينه يسألنى - حتى ولا صورة ، فقد سمعت أنها جميلة وشقراء ؟ .. قلت فى إصرار وأنا أهز رأسى ، حتى ولا صورة يا عزيزى حازم ! .. بقى يتفرس فى وجهى مفكرا وسارحا ، وأخذت تتسرب إلى وجهه الوسيم ابتسامة مريبة أخذت تتسع رويدا رويدا ، ويوشك بعدها أن يصارحنى بالحقيقة التى يحس بها - ولكنه سحب ابتسامته سريعا ، وطوى المقال والقصة فى عناية ، ووضعهما فى حقيبته ثم حيانى قائلا : وإلى اللقاء فى الأسبوع القادم ! .

« البـوابـة »

القاهرة ٤٣ و ٤٤

خطواتى تتهادى وتتردد فى شارع قصر العينى .

الساعة الآن الرابعة بعد الظهر - وعندى ميعاد فى السادسة فى مقر « مجلة الساعة ١٢ بشارع محمد باشا سعيد » ! .. لأول مرة سوف أدخل دار تلك المجلة ، فاليوم عيد ميلادها الثانى - وقد أعدت حفلة صغيرة لأسرتها مع الأصدقاء والزملاء يقيمها صاحبها « حازم فودة » .. ولأن لامعة الأسرة « مى الصغيرة » غير قادرة على الحضور ، فيتحتم - كما شدد حازم - أن أكون مندوبها الحاضر حتى ولو جلست بينهم صامتا بلا كلام ! .

....

نحن فى سبتمبر .. و « مى الصغيرة » تتربع الآن على شهرها الخامس فى حاشية من هذا البلاط الصحفى الصغير « الساعة ١٢ » . تتربع فيه بل تتألق .. « القصص واليوميات » ، ثم هذا الباب المثير الجديد « برج بابل » - و« رخا الرسام » كل أسبوع يتفنن فى رسم العنوان - البرج الشاهق ، وفتاة عصرية فاتنة تتسلق السلالم إليه ، وفى يدها « قلم » له شكل السونكى المسدد ! .

قلم له شكل السونكى المسدد طبعا - فالأعداء أمامها ولا

سواهما - هما « الفقر » و « الحرمان » ! .. نعم ، فماذا يكون أعداء بلادها فى جيل تمشيط الحرب هذا ، إلا الفقر الغليظ يغطيها ويطحن فيها من الاسكندرية إلى أسوان ، والطاحنون البشعون هم الاستعمار والفساد والاقطاع ! .. ثم هذا الحرمان الباهظ المكدس المرهق ، الرافض لأى تفتح أو تنفس ، والمزاليج على بابه وعليها سلاسل من قهر وكبت وعقد وغليظ تقاليد ..

فتاتى الفاتنة البازغة أصبحت ضجة صحفية ! .. باتت انتشارا وفضولا وإثارة ! .. طنينها يسرى يوما بعد يوم ، وعطرها المثمل يعبق ويفوح رويدا رويدا ، وبريدها المنهال يكبر ويتضخم أسبوعا بعد أسبوع ! .. بريدها ينهال ، وأنا شديد التوارى ، مصمم على التوارى ، وحازم يضعه بين يدى فى اللقاء الأسبوعى على المائدة الرخامية بكازينو البسفور مبسوطا ومنتشيا وحائرا .. توزيع المجلة آخذ فى التصاعد ، ولولا غلو الورق فى السوق السوداء لطبعت منها عشرات الألوف ! .. ولكن الحيرة معه كيف يرد على السؤال الصعب الذى بات ضغطا والحاحا بل مطاردة له فى كل مكان .. سؤال ، من هى « مى الصغيرة » ؟ .. أين هى مى الصغيرة ؟ ! .

عدة مرات يفاتحنى فى هذا الأمر ، ونهرب سويا منه وفى سرعة إلى أمور أخرى ! .. كلانا أنا وهو لا نريد أن نصل إلى حسم المصارحة فيه .. أنا أشدد وأغالى على أن مى الصغيرة موجودة وعندما تشفى سوف تظهر له وللجميع .. وهو يستقبل منى هذا التأكيد فى دهشة وحيرة بل يعتبره استخفافا بعقله ، فإنه يعرف ميولى وأسلوبى وطموحى للكتابة وهواية أقنعة التخفى منذ تختة المدرسة ، ولكنه يجارينى ويتراجع سريعا مع النجاح والانتشار الذى أصبحت تلاقيه مجلته منذ بدأت تنشر لمى الصغيرة فى أبريل الماضى ، وأبدا لا يريد أن يفجع نفسه أو قراءه بأية لطمة من صدمة أو مفاجأة قد تطيح بهذا

النجاح والانتشار .. ولكنه فقط يتعلق بشعرة هذا التأكيد الغريب منى ، فلابد إذن أن لمى الصغيرة هذه وجودا ما فى حياتى .. حب ، أو زواج ، أو قرابة ، أو أى علاقة جعلتها تتجسم بيننا وبين الناس ، فلماذا لا أصارحه ليفكر ويدبر معى ؟ .

والواقع - وكنت قد اتخذت لتلك المرحلة قرارا ملزما ولا تراجع أو تردد فيه - أن يظل طنين هذا التوقيع يحمل الهمس والتساؤل فى الساحة الصحفية لمدة ثلاث سنوات إن لم تكن أكثر ، فمادمت أنا الذى يكتب فماذا عاد يقلق أو يضير ! .. هكذا لن يغرينى أى استدراج .. لن تضعف إرادتى أمام أية لهفة .. أبدا لن أسكب جرعتى الغالية والباقية فى لظى هذا الجفاف ! .. نعم فالساحة الصحفية لأمثالى بلا قلب - طبقية ، وذئبية ، وغادرة . وهى أيضا بلا ضمير - فمن الممكن جدا - وفى لحظة خاطفة أن يتهشم هذا التمثال الجميل الذى مازال طريا وهشا فى يدى ، تحت سحق ضحكة ماجنة تقع قهقهتها فى أبهاء السخريات من بلاط العتاة فى صاحبة الجلالة ؟ .. بل ماذا يملك الريفى الحافى الذى يتعثر فى أذيال حيائه والمتشبث بل المستميت فى صون كرامته وكبريائه ، أن يفعل - إذا لفظه المجون الصحفى واللذع الصحفى بالطرد القاتل ، إلا أن يدير ظهره وينصرف تماما وإلى الأبد - مستسلما لهذا القهر الذى تطاول يوما أن يقهره ! .

وهكذا اتجه اقتناعى أن أدير أنا ظهرى لهم ، فمهمتى الآن أن أقنع رعيتهم الأعظم التى هى زبائن القراء أن يقتنعوا هم .. أؤسس قاعدتى فى أسواق زبائنهم .. أتقن تماثالى الجميل فى إحياء زبائنهم .. آخذ اللجوء لنفسى بل أطلب الحماية من شوارع وحوارى زبائنهم ! .. نعم اقتنعت أن لا حماية لى إلا من قارئ الصحيفة أو المجلة .. وبقدر ما أقنعه عن نفسى سوف يستبقينى بل سوف يستمسك بى .. أبدا لا رشوة ولا تسلق ، ولا تزلف ، ولا وصولية ، إلا أن أجتاز الامتحان مع

القارئ .. تلك هى وثيقة الأمان التى وضعتها حجابا تحت إبطى ولسوف أظل أعيش به ما بقيت لى حياة ! .

....

خطواتى مازالت تتهادى وتتردد فى شارع قصر العينى ..

ثلاث سنوات وهذا هو القرار ، أن أظل تحت قناع « مى الصغيرة » – ولكن لابد من حيلة لاجتياز تلك السنوات ! .

ولقد كانت لى محاولات لاهثة وهاذية لايجاد الموديل الذى أتقن عليه صياغة تمثالى ! .. محاولات فكهة أحيانا ومأساوية أحيانا ، تلاطمت معها حين أشركت معى فى البحث صديقى طيب القلب « الموسيقار سامى الشوا » ، وأشركت أيضا صديقى المحبوب « نجيب حلمى » – فهما الآن أعز من تبقى لى من أصدقاء ، بل هما باتا حياتى الخاصة .. « نجيب » – وكان نهرا صاخبا من التجارب – يرانى نصفه الشريف البرىء والمفقود .. و « سامى » – وهو بلا زوجة ولا أبناء – يرانى ابنا من زوجة يحلم بها دائما واسمها « مريم » ! .. صارحتهما عن مأزق « مى الصغيرة » .. الفترينة التى حصلت عليها فى المعرض الصحفى ومطلوب لها « المانيكان » .. تمثال الشمع الذى سوف أكسوه بباهر الثياب ! .. فتاة ولو تؤجرها بخمسة جنيهات فى الشهر لتؤدى دور مى الصغيرة ؟! .. ورغم خرافية الفكرة وفجاجتها ، إلا أن تخبطى من حماسى المؤثر أمامهما ، جعلهما يندمجان وينشطان معى لتنفيذ تلك الفكرة ! .

وذات يوم دق التليفون وكان « نجيب » يملى على عنوانا هو موجود فيه الآن ، ويطلب سرعة حضورى لمفاجأة قد لا تخطر لى على بال ! .

وأسرعت إلى العنوان ، وكان فى « شارع الزقازيق بمصر الجديدة » .. فيلا صغيرة من بيوت الشركة البلجيكية ، ومن حولها حديقة يمرح فيها كلب مخيف .. ويستقبلنى نجيب على الباب ليهمس فى أذنى ألا أفتح سيرة أى كلام عن الموضوع ، فمهمتى فقط أن أعاين

المفاجأة ثم بعدها نتكلم ! .. وتقدم منى صاحب الفيلا وهو عجوز كاريكاتيرى الشكل ، أبيض الشعر ، حاد الملامح ، وله شارب تركى مفروش على مساحة ضخمة من وجهه ، وصدره مفتوح ، والبايب ينفخ فيه من فمه .. قدمه لى باسم « العم القائمقام شكور بك » رياضى سابق وملاكم سابق ، ومصارع سابق ، وفارس سابق ، - فأسرع الرجل يقاطعه مقهقها ولاحقا أيضا ! .

وعندما جلست فى صالون ممتلئ برؤوس الثيران والماعز وعجيب المحنطات دخلت علينا فتاة ، يا إلهى ما أغربها من فتاة ، وكأنها فراشة ترفرف بلا صوت . وجهها نادر التكوين - ليس جميلا جدا ، ولكنه عذب التعبير .. وعيناها أيضا يا عجيب ما يختلط بهما من حدة ووداعة ! .

اسمها « بشرى » أو « بشر » كما يناديها الأب - قد سلمت على بطريقة قصم الظهر للملكات ، وقال نجيب أنها خريجة « الدلفراند » ولكن خطها فى العربى إذا أردت أن تجرب فهو أجمل وأحسن من خطك ! .. ابتسمت بشرى وطوت رأسها فى حياء ، ثم بتشجيع من أبيها طلب منها أن تطلعنى على أجندتها لأقرأ بعض ما تكتبه من الخواطر والشعر المنثور .. وقامت فى حياء وسلمتنى الأچندة بعد أن فتحتها على صفحة عنوانها « عندما يغرد البلبل فى الفجر » ! .. أقرأ فالخط جميل حقا وأسلوب الكتابة لا بأس ، ولكن يالها من فتاة غامضة فلماذا لا تقول شيئا ؟ .

واندفع الأب يتكلم فى أمور عديدة وبعيدة ، عن معارك العسكر والترك والمغاربة ، وعن « عزيز المصرى » الذى هو صديقه ويأتى لزيارته أحيانا ، ثم عن حرب هتلر وموسولينى تلك ، وكيف أن الحروب لم تعد شجاعات وفروسيات وبسالات بل أزرار يتلهى بها أطفال أشرار عابثون ! .

الفتاة تنظر إلى أبيها شغوفة ومعجبة ، وألاحظ نسخة من مجلة الساعة ١٢ موضوعة على مقعد قريب ولابد أن نجيب أحضرها معه ، أم ترى هى التى اشترتها ؟ .. واشتد تحرقى أن أسألها عن ذلك ، فقاطعت ثرثرة العجوز وأنا أستدير نحوها فهل تقرأ قصص مى الصغيرة فى هذه المجلة ؟ .. وأشار نجيب فى خفية ينبهنى إلى اتفاقنا .. ولكن الفتاة أسرعت تبتسم وتجيب على سؤالى بإيماءة من رأسها أن نعم . وتماديت أسألها رغم الحرج الذى قاطعنى به نجيب مرة أخرى ، فهل هى تكتب القصة القصيرة بمثل الشعر والخواطر ؟ .. ترددت الفتاة برهة ثم هزت رأسها فى وداعة بما يعنى أن لا ! .. ووقف نجيب فجأة ينهى الزيارة فى مرح فلديه الميعاد الهام فى البلد ويجب أن يصحبنى إليه فورا ! .. ووقفنا أنا وهى نتبادل الابتسام بلا كلام ، بينما انتحى الأب ونجيب يتهامسان سويا ! .. وعندما طال همسهما حاولت أن أتبادل معها الكلام ، فقلت لها أننى سوف أرسل لها مجموعة من قصص مى الصغيرة ، فهل تمانع ؟ .. وقبل أن ترد أخذنى نجيب من ذراعى يدفعنى نحو الباب ! .

وفى الطريق سألنى نجيب فى حماس – ما رأيك – ؟ .. قلت – رأيى فى ماذا ، فإنها لم تتكلم كلمة واحدة ؟ .. قال : وماذا يهمك من أن تتكلم فيكفى أنها تكتب ! .. استغربت قولته فقد أطلق بعدها ضحكة ظفر غامزة وعاد يقول : ميزاتها بل أهم ميزتها أنها لا تتكلم ! .. وعرفت أخيرا .. عرفت ويا شدة ما تأثرت واقشعر جسمى – بمفاجأة نجيب – أن تكون المانيكان لمى الصغيرة فتاة بكماء .. نعم فهذه الفتاة اليائسة ومنذ ولدت فهى بكماء ! .

....

وذات مرة أيضا – فى هزليات البحث عن موديل أو مانيكان – أخذنى « سامى الشوا » فى حماس إلى اكتشافه الجديد المذهل ..

والصدفة العجيبة أن اسمها « مارى » أيضا - شامية طبعا - ليس هذا فقط ، بل هى ابنة أديب ومن شجرة أسرة كلها شعراء وفلاسفة وأدباء ! .

وفى آخر شارع شبرا - بعد مخزن الترمواى - وأمام عمارة صغيرة ، أوقف سامى العربة ، ثم دخلنا من باب الدور الأول على شقة عصرية متوسطة الحال ، تعيش فيها أم وابنتها - التى هى الاكتشاف المذهل ! .

الفتاة جميلة وشقراء وفصيحة الملامح - ولها شكل « جوان بنيت » نجمة السينما - وذات عينين واسعتين وفم إذا ابتسم فالغمزة تنقر الجبينين ! .. أنها ابنة أديب راحل ولم يترك أدبه لأسرته إلا الفقر والعوز ، وكانت له شهرة فى ترجمة الروايات .. الفتاة رصينة ومتزنة ولا تبدو عليها شبهة من شقاوة أو دلع أو انحلال ولكن لست أدرى أى إحساس قد تملكنى فى أنها ليست خفيفة الروح ... ولكن هذا الإحساس انصرف عنى بعد أن تجاوبت معى فى الحوار عن أبيها ومؤلفاته ! .. واندمجت معها بل فرحت وفركت يدى ، فمادامت ابنة كاتب وأديب ولها هذا الطلاء العصرى الواضح ، فإذن هى المنشودة ! .

هذه الفتاة لها لقطة خاطفة مع الشهرة .. قصة حدثت لها منذ أعوام وكان يمكن أن يتغير معها اتجاه حياتها .. قصة عرفناها وتذكرناها - فقد كان مقدرا لها أن تقوم بدور البطولة فى أول فيلم سينمائى يظهر فيه « المطرب محمد عبد الوهاب » واسمه « الوردة البيضاء » من إخراج : « محمد كريم » . وقد اكتشفوها فى بحثهم المنقب عن وجه جديد ، واتفقوا معها فعلا ووقعوا العقد ، وبدأوا فى ترويج الدعاية ونشر الصور لها .. ولكن فى آخر لحظة ولست تدرى خفى ما حدث - فقد انصرفوا عنها إلى وجه جديد آخر ! .. هكذا لاح لها الحظ ذات

مرة ، ولكنها لم تتأسف على فقده فالتمثيل يجعلها تضطرب ! .

وعندما بدأنا نشرح لها المهمة - فنحن نحتاج لها هذه المرة لتؤدى الدور فى شوارع الحياة لا على شاشة السينما - ونظير مرتب خمسة جنيهات دائمة ، فوق المشاركة فى أى أرباح سوف تأتى على يدها . ولن يكلفها الأمر إلا أن تظهر أحيانا ، وفى مناسبات أو مقابلات قليلة جدا وغير مجهدة البتة ! .. وقد أنصتت الفتاة محملقة وساكتة بينما شردت الأم .. ولأنها أرملة كاتب ، فقد أخذتنا إلى انهماك وتدقيق التفاصيل بما حيرنا فى الردود والاقناع ! .. وانتهينا بعد حديث طويل إلى أن الأم والابنة لن يتمكنا من إعطاء الرد بالموافقة - إلا بعد أن يحصلا عليه من العم « سليم » كبير الأسرة والمقيم فى « حلب » ، وميعاده أن يزورهما فى خلال شهر ! .. وعلى مضض اتفقنا أن يكون هذا الشهر بروفة على أداء الدور .. يعنى لا مانع أن أزورهما وأتردد عليهما حتى ولو يوميا ، فهما دائما فى حالة وحدة وانزواء .

وبدأت أطرق الباب على شقة مارى شبرا .. أحمل الفاكهة أحيانا ، أو الأكل أحيانا ، وقد بدا لى أن حالتها معسرة .. ولمسا بساطتى وعدم أطماعى وبراءة نيتى فاختلطنا واندمجنا وسمحت لنا الأم بالخروج والتنزه والذهاب إلى السينما ! .. وذات يوم وقبل أن ينقضى الشهر ، طلبت الأم أن تختلى بى ، ووجهت لى قرارها الحاسم .. وبعد تفكير طويل .. فلماذا لا تأخذ مارى يا ولدى شريكا - ليس فى هذا الدور الصغير فقط ، بل فى دور الحياة كلها ؟ .. تقصد أن أتزوجها ؟! .. يا إلهى أتزوج ؟ .. لا .. لا . ليس فى نيتى أن أتزوج أبدا .. تجربة مارى الفجالة جعلتنى أقرر أن لا زواج أبدا أبدا ! .. وهكذا برد حماسى .. تراجعت عن مهمتى ، انصرفت يومها بلا عودة .. بل انصرفت نهائيا عن هزليات البحث عن موديل أو مانيكان ، ولأترك الأمور للحظ وللصدفة والقدر ! .

....

مازالت خطواتى تتهادى وتتردد فى شارع قصر العينى ..

تلك الأشهر الخمسة العجيبة من رحلة الحياة ، وصديقى الفنان القلق المحموم ، ميجور كول فى قشلاق الانجليز بقصر النيل .

وفى يونيو الماضى ضقت ذرعا من غيرته وشكوكه ، فطلبت منه أن أستقيل وأترك العمل ، أو ينقلنى إلى عمل آخر فى مكتب آخر غير هذا المكان الذى فيه « مارى الفجالة » .. لم أعد أطيق لعبة الغيرة الخطرة بينى وبينه ، تؤججها همسات فتيات البيع من حول علاقتى بمارى منذ حادث وقوعها أو انتحارها المزعوم فى ليلة العوامة تلك ! .

« مارى » أصبحت غراما صريحا لعزيزى كول يتندر به الجميع فى كل قشلاق قصر النيل .. وقد صارحته يوم أن فاتحته فى النقل بل وأقسمت له أن هذه الفتاة لم تعد تمثل فى حياتى أى تأثير إلا حرج وجودها الآن فى العلاقة الحميمة بينى وبينه .. وحتى كذكريات ، فصدقنى عزيزى الميجور هاريسون كول ، فقد تبددت تماما ولم يبق منها إلا الاستغراب والدهشة ! .. وقد أنصت ساكنا إلى محاولة إقناعى له بذلك وملامحه تضطرم وتضطرب . وبقى صامتا فترة طويلة ، ثم قال ، حسنا ، فلماذا لا تقنعنى نهائيا فيكون لك « جيرل فرند » صريحة نعرفها ونستريح ! .. دهشت بل ضحكت لأفكاره ، وعدت أقسم له أن فتاتى الحقيقية الآن لا سواها ، والتى أحلم وأنام وأمشى بها هى « مى الصغيرة » ! .. دق الأرض بحذائه عصبيا وهو يقول - ولكن مى الحقيقية وكما تعرف أنا وأنت هى مارى ! . أزعجتنى عصبيته فتماسكت ساكتا ، وظل هو صامتا ورأسه منكس ثم سألنى فجأة ، وكأنه يتوسل - أبظنك تحبنى بمثل ما أحبها ؟ .. ولقد أردت أن أكون أمينا فى الإجابة فرددت عليه السؤال بسؤال وقلت : هل أنت تحبها إلى درجة أن تتزوجها مثلا عزيزى ابن اللوردات وقريب الملكات ؟! ..

أعاد له سؤالى عصبيته الغريبة فاقشعرت جبهته وقال بطريقة التحدى - لم لا ، فهل تمانع إذا قلت لك أننى أفكر فى هذا الأمر فعلا وأتخذ له الآن كل الإجراءات ! .. ابتسمت مشفقا على هذا الشاب الراقى المتحضر المثقف ، وفى أعماقى خواطر تسخر وتتعجب ، فما نحن أمام هذا الحب إلا بشر من نسيج واحد .لا فرق بين حمى عاشق من بريطانيا العظمى وآخر من آسيا الصغرى ! .

لاحظ ابتسامتى فظننى أسخر ، فقال قد اشتد تشنجه - هل ترانى أمامك غبيا أو أحمق لأننى وقعت فى حب فتاة تمرغت فى أحضانك واحضان سواك ، ولكن أنت تعرف أنها طيبة وسيئة الحظ ، فما الذى يجعلك تسخر هكذا وتستخف بأمر إنسانى ترانى جادا فيه ؟ .

دهشت .. ارتبكت . فقد أعطانى ظهره غاضبا بل حانقا ، وتركنى فى حيرة من أمرى ، فهل يعنى هذا الانصراف منه بدء خصومة أو قطيعة ؟ .

.. ما أشد غباء الرجال حين يعشقون .. قطيعة ؟! .. ولكنه رئيسى وبوسعه أن يتمادى فيفصلنى ، وكرامتى أبدا لن تسمح فلماذا لا أبادره بفصل نفسى ؟ .. ولكن يا شدة الرزء من هذا الأمر فماذا يحدث بعدها ؟ .. الثلاثون جنيها تلك - وهى مرتب مدير عام فى مصالح الحكومة ، من أين أجدها ؟ .. بل إنها باتت لا تكفينى فى معمعة سخاء الصرف والاغداق والتكلفة على الفاخرة الباهرة « مى الصغيرة » ؟ .

وقبل أن أنصرف يومها .. فوجئت بالسير جنت ميديث « تضع أمامى قرارا وقعه كول ، بأن أستلم عملى الجديد ابتداء من غد فى وظيفة « أمين المخزن رقم ٣ » فى آخر الطرف من الضيعة الشاسعة المترامية ثكنات قصر النيل ! .

وعندما سألت « عم مدبولى » عن المخزن رقم ٣ هذا ووظيفة أمين تلك ؟ .. توقف جاحظ العينين مندهشا فإنها وظيفة هامة ومرغوبة دائما

تعنى أننى أصبحت أمينا على مخزن فيه محتويات بـ مليون جنيه ! .. أنه أهم المخازن وأشدها إغراء فى كل قصر النيل ، ودائما له ضحايا من أمناء وقعوا فى مطب السرقة منه ، وآخرهم « لازارديس اليونانى » – وهو فى السجن الآن – بعد واقعة ضبطه بلورى محمل بحرير البراشوت الغالى جدا ، وبدل أن يتجه إلى قشلاق الانجليز فى العباسية ، اتجه به إلى حوارى « السبتية » ! .. لورى حمولته عشرة آلاف جنيه ، وما أدراك بمائة لورى لم يقدر لأحد أن يضبطها قبل ذلك ! .

وقد ذهبت واستلمت هذا المخزن فى الصباح بحضور « سير جنيت ميديث » ووقعت على إقرار المسئولية وانصرفت .. لم يكن هذا المخزن كبيرا وهائلا كما تصورت ، فإنه فى حجم الجراجات المتوسطة ومبنى بالصاج ، ومن حوله أكشاك وحبال حراسة ، وفى طرفه ثلاثة أكشاك أنيقة خصصت لمكاتب الأمين وجلوس الموظفين .

الموظفون خمسة فقط – وفيهم فتاتان – فوجئت أن احداهما مصرية .. وكان مكتبها يلاصق مكتبى – وعملها المباشر معى – ويا غرابة ما حدث منى ومنها عندما تبادلت أول مرة حملقة النظرات ، بل دهشة النظرات .. سريان ساحر وسريع استوقف ذاكرتى يسألها ، فلابد أننى قابلت هذه الفتاة من قبل عدة مرات ؟ .. ولقد حكت لى بعدها ، أن هذا السريان ونفس التساؤل قد هز مشاعرها أيضا وفى نفس اللحظة ! .

اسمها « عزيزة » .. وأبدا لا يزيد سنها عن « ١٩ » عاما ! .. وجهها دقيق الملامح وكأنه منحوت من معدن سماوى نادر ، وفيه طفولة جذابة وجريئة تغريك لو تقدر فتفرك جبينها المتوهج المستدير ، ليخرج لك ابتسامة أحلى من ابتسامة الموناليزا الشهيرة ..

اسمها عزيزة .. ومفاجأة إنها ابنة فنان مسرحى عملاق كانت له

صولة وفحولة .. أبهجنى هذا بل أسعدنى جدا ، وهز قلبى بعد غربة كنت فيها .. كان العمل فى هذا المخزن سهلا وميسورا - خصوصا وأن عزيزة تعرف كل شىء فيه ، وتمرنت على كل محتوياته ، ولها نشاط يتفجر بالوثب والحيوية فى كل أرجائه .. نعم ، العمل سهل ومريح فى هذا المكان الحافل الشديد الثراء . إنه محشود بأغلى الأنسجة ، وأغلى الأدوات الكهربائية ، وثمين اللفائف والصناديق ، ومادمت لا تدبر أن تسرق فأنت فيه آمن وهادئ ومستريح ! .

وبدأت نهاراتى الرائعة والمحببة بصحبة عزيزة .. إنها فنانة وتجيد الرسم ، بل إنها درسته وتعمقت فيه وأصبح طموحها أن تكون ذات يوم رسامة مشهورة ، فما المانع وهى من نطفة أب عبقرى وأم خصبة المواهب والشخصية ! .. وطول النهار أقرأ لها وتقرأ لى .. أرسمها وترسمنى .. أسامرها وتسامرنى .. أصارحها وتصارحنى .. ونخرج سويا ، نتبادل الغداء أو العشاء .. عند « الشيمى » الكبابجى أو فى « رستواران الريجنت » ومعه الأكواب البنفسيجية من عصر عناقيد النبيذ - وهى مصممة معى بمثل خصال الانجليز ، فمرة أنا الذى أدفع الحساب ، ومرة أخرى هى التى تدفع .. وقد قهرنى منها ذلك إلى درجة الزعل والخناق فنحن فى مصر يا عزيزة .. ولسنا فى بلاد الانجليز الباردة ! .

« العتبـــة »

القاهرة عام ٤٣ و ٤٤

خطواتى مازالت تتهادى وتتردد فى شارع قصر العينى ..
أتمهل وأتوقف عند ناصية « قصر الأميرة شويكار » المبهر الرهيب .. أنه يأخذ التربع على رأس شارعين هما « شارع مجلس النواب وشارع محمد باشا سعيد » .. نظراتى تسرح على طوابقه ونوافذه وأبراجه . جدرانه المكسوة ببلاط الفيسيفساء البنفسجى الفاخر ، وقوائم أعمدته المطلية بماء الذهب ، بل أتصور أنها مصبوبة من الذهب الخالص ! .. والشجر السامق من حوله يهتز تحت شعاعات من شمس الأصيل ، فتبرق عيدانه وكأنها تحمل ثمارا من فصوص اللآلئ والجواهر .. ويا إلهى ما هذا الثراء الطافح الذى يعلن نفسه من قصر هذه الأميرة العجوز الشمطاء - وكل لياليها فيه سيولة من حفلات تسميها « خيرية » - من أجل الفقراء والمرضى والجوعى والمعوزين .. مياهها خمر ، وأكلها رقص ، ومرحها مجون .. سرب أميرات ونبيلات البيت العالى .. طوابير بنات الذوات والطبقة الراقية والهايلايف .. بارقات لامعات عاريات الظهور والصدور ، والرؤوس عليها تيجان وفصوص وأكاليل ... ثم الأمراء والنبلاء والبشاوات والبيكاوات والخواجات .. الاشناب المبرومة ، والكروش المتدلية ،

والرؤوس الصلعاء .. ومطهمون بنياشين البطولة وميداليات الفروسية وكأنهم خيول زاهية فى حلبات سباق الدربى الانجليزى .. ثم الشبان الفاتنون الجذابون يتثنون ويتبخترون بأعوادهم الرخصة الطرية ، والموضة شارب رامون نوفارو ، والبنطلون شرلستون ، والرقصة كاريوكا ، وفوق الرؤوس طراطير تطير ، وبدار نثر ، وأنغام تهيم ، وضحكات تفقع ، وخلاعات وشخلعات ، ولوتاريا ومزاد ، فكم تدفع فى القبلة الشهية التى تبرعت بها بنت الأكابر وسليلة المجد والعراقة آنسة ميمى وآنسة ريرى وآنسة زيزى .. وفى سبيل الفقراء والتعساء يهون البذل والعطاء ، ألا أونا ، ألا ديو ، ألا تريو ! .

....

أستدير بوجع نظراتى ، فقد أضاءت من خلفى فجأة على الضفة الأخرى من الشارع ، يافطة نيون خضراء عليها رسم العلم والنجوم وكلمة « المصرى » شامخة ومختالة فوق هذا المبنى القصير ، مبنى « جريدة المصرى » .. يخفق قلبى ويرتج كيانى ، فكأنها أضاءت نورا فى ظلمة نفسى ، بل تنتشى مشاعرى فأتصورها ذات يقوم قريب سوف تقفز فجأة وتثب فجأة ، لتعتلى قمة قصر شويكار هذا وغيره من قصور ! .

الساعة الآن السادسة - ونظراتى ترتفع نحو يافطة الشارع الذى وقفت عند أوله - وقد حان أن أحسم التردد فآخذ خطواتى فيه إلى حفلة عيد ميلاد « مجلة الساعة ١٢ » ! .

أتأهب وأستدير لآخذ خطواتى ، فهذا هو أول دخول وأول ظهور لى على العتبة من بلاط صاحبة الجلالة .. هذا هو شارع محمد باشا سعيد ، يا شدة ما أخذت الشهيق على البعد لأتنفس هواءه ، ففيه عديد المواقع الصحفية ! .

فيه عديد المواقع الصحفية ، فبعد خمسة بيوت فقط من بدايته ، توجد يافطة معلقة على بيت « مجلة روز اليوسف » ! .. بيت قديم

فسيح من دورين ، هالك المنظر ، ومستهلك المعالم ، ويا غرابة ما يتحول منظره فى أحلامى إلى دندشة قصر أبهى وأحلى بكثير من قصر شويكار ! .. صاحبة المجلة امرأة غريبة ، قصيرة القامة مستديرة الوجه ، مقوسة الأنف ، منحوتة الملامح ، ومنذ زمان تقتحم خيالى بجرأتها واندفاعها - ولعلها قبل « مى زيادة » هى إلهامى واقتباسى من حلم مى الصغيرة الصحفية والكاتبة ! هذه المرأة المثيرة - وعجبى كيف فى هذا العصر المجلود بالتزمت والجمود وفظ التقاليد ، تشق طريقها بل تخوض الميادين ويكون لها روح المغامرة فتعلو هامتها هكذا على هامات جبابرة « الرجال » ! .. من منصة المسرح ، وكواليس الأزبكية وعماد الدين ، وغانية غادة الكاميليا ، إلى قمم السياسة ، ومنصات الأحزاب ، وشرفات السراي ، وجان دارك الصحافة ! .. كانت آخر جرأة لها تأسيس « روز اليوسف اليومية » ورئيس تحريرها هو « العقاد العملاق » .. ولكنها لم تلبث أن ارتطمت بالخلاف مع « الوفد » - وكان الوفد وقتها جبلا - فانهال عليها وبعثرها شظايا .. مازالت تلم شعث نفسها ، فلم تفق من الصدمة بعد ! .

« بيت روز اليوسف » ، ولصق الحائط تماما ، هذا البيت الأشد قدما وتصدعا وعليه يافطة « مجلة الساعة ١٢ » الوفدية .. ناشئة وصغيرة مثل عشرات سواها يغمرها الأمان من عطايا الفتات الحزبى ! .. وإذا تمشيت من بعدها خطوات فى نفس الشارع ، فسوف تقابلنى يافطة هائلة براقة تحمل اسم « مجلة الصباح » كبرى مجلات الفن فى مصر ! .. والفن فى مصر وأهم معالمه الصحفية كباريهات بديعة ، وببا ، وفتحية محمود ، ورتيبة وانصاف رشدى ، ثم كواليس شارع عماد الدين وصالات روض الفرج ، ثم زعيق الأصوات من يوسف وهبى ، وچورچ أبيض ، وكشكش بك ، ثم تنافس الألقاب بين على الكسار وفوزى منيب - على من هو بربرى مصر الوحيد ، وصالة

عز الدين وزوجته مارى ! .. ثم الأزبكية ، ومطربة القطرين ، وأم كلثوم ! .. ولا مانع فالمجلة سمينة من مائة صفحة ولها تبذير ملحق مجانا من حكاية ورواية والثمن فقط « قرش أبيض » ! .. ولأنها فنية أيضا لا مانع أن تستدير بأنفها المستنشق على شارع كلوت بك وحى الدعارة فى « وش البركة » فكله من ذوى القربى وصلة الرحم - أخبار المومسات ، والخليلات ، والبلطجية ، ومغامرات القوادين بين العمد والأفندية ! .. لا مانع . لا مانع وخذ منها ما لا يأنف منه أنف « الشيخ أبو العيون » وأمثاله ، من كرابيج الحراسة على نواصى الأخلاق ! .. « مصطفى القشاشى » صاحب الصباح - كان مطبعجيا - وهذا هو الآن ثرى وصاحب عزبة وله عوامة وعمارة ! .. والعمارة تقع فى شارع محمد باشا سعيد ، ضخمة وفخمة والزجاج فيها بلور ، والرخام منها مبشور ، وفى الدور الأول منها فترينة مكشوفة تربض فيها آلات المطابع وتبين منها طرابيش المحررين ! .

ثم إذا تحركت خطوات أخرى من نفس الشارع حيث خط سكك حديد حلوان ، فسوف أتوقف مبهورا عند يافطة ضخمة بطول الواجهة وعليها اسم « جريدة البلاغ » ! .. يومية مسائية وصاحبها هو « عبد القادر حمزة باشا » .. باشا لأنه قطب وفدى وله جسم وشكل الباشوات ! .. وكانت للصحافة الوفدية تقاليد أن تستقل بنفسها وحرية رأيها أحيانا مادام الالتزام والشعار هو الوفدية وأن تهب لنجدة حزبها حين مباغتة الأزمات .. وفى الأيام الأخيرة انسحب حمزة باشا بالبلاغ رويدا رويدا إلى استقلال يوشك أن يعلن انسلاخه عن الوفد - وكانت تلك جرأة وبسالة منه ، بعد المقتل الذى مازال ساخنا من روز اليوسف اليومية ! .. وبدأت مقالاته واتجاهاته تجابه وتتحدى بعض افراط الوفد من ثقته المطلقة فى شعبيته ، وتلفت النظر من بزوغ الكرامة الصحفية فى الساحة ! .. نعم مقالات عبد القادر حمزة ولها صرامة المعلم الصحفى - ودرسه للناشئين إذا شاءوا - الصحافة هى

الصدق والمنطق والاقناع .. وليست التشهير والتهريج والخداع ! .. وكم تمنيت .. كم تمنيت لو هذه البلاغ تصدر صباحية لتملأ كفة الميزان مع « المصرى » ، فى ساحة الربا الباهظ من صحافة الشوام واليهود ، فقراء المساء خاملون أما قراء الصباح ففيهم كل الصحة والحيوية والانتشار ! .

....

شارع محمد باشا سعيد هذا ، وكم أرقتنى ليالى الغيرة البلهاء ، ومرسالى له منذ خمسة أشهر هو حبيبتى مى الصغيرة تتطوح بين الأذرع بعطرياتها القصصية وسهامها الراشقة ، وأنا فى الانزواء والانتظار يفتك بى القلق والخوف أن تذوب فى هذا الخضم الهائج ! .

قصص مى الصغيرة كل أسبوع ، - عطرية وجاذبة - نعم .. ولكنها مشارط تمزق الأستر عن هذا المجتمع الطبقى المنحل بكل بذاءاته وتهتكه وصفاقته وفجوره .. ترفع الأغطية عن فجاجته وتفاهته ، تزيل الأقنعة عن غطرسته وهيبته .. تفض عنه تقاليد المجاملة والاحترام والاعتبار ! .

باب « برج بابل » أيضا .. خواطر الأسبوع .. التعليق على أحداث الأسبوع .. ونوافذه الجريئة تتفتح على المصراعين بنداءات السخط والنفور ! .. رمى الألغام والبارود فى هش هذا الفقر ، والذل ، والجهل ، والمرض ، والاستعمار ، والطبقية ، والمهانة ! .. زمجرة أغلبيات نفد صبرها وحان أن يعلو صوتها ! .. دق الأجراس فى أجنحة الخامدين والمقهورين والمستسلمين ! .. برج بابل هذا - وكان يمكن أن يهشمه المتسلطون والحراس منذ أول دبيب له وأول خفق - ولكن فرجة المنظر . حيلة المنظر .. حمته وساعدته بل أفسحت الطريق - فالكاتبة فتاة حلوة شهية وفواحة ، تلين فتغمز باغراء أصابعها

أحيانا – وشومة الفلاح المنهالة منها تنزل على رؤوس المفتتنين فى طراوة غصن الورد ! .

....

أمشى فى شارع محمد باشا سعيد ..

أقترب من مجلة الساعة ١٢ .. خطواتى بدأت تتعثر ويلفها حيائى الريفى التعس ، فإذا كنت قد تمكنت من اتقان الخدعة على الورق ، فكيف أقدر أن أخفيها من ملامحى الحقيقية التى أبدا لا تقدر أن تكذب ! .. قلبى فى حالة خفقان شديد .. تأخذنى قشعريرة التهيب .. ألمح أمام باب المجلة بعض الداخلين وبعض الواقفين ، وبوكيهات ورد مسنودة على الحائط .

تقدمت فى خطوات بطيئة نحو الباب ، وتوقفت برهة أمام بوكيهات الورد لأقرأ الكروت ، فقد أرسلت واحدا باسم « مى الصغيرة » .. أقرأ اسمها المكتوب فترتعش أطرافى ويهتز وجدانى ، ثم أقرأ كرتا يحمل اسم « الفنانة زوزو ماضى » ثم آخر من « الشهيرة تحية كاريوكا » ! .. أمرق من الباب إلى الردهة وأتوقف أمام لوحة كاريكاتيرية عريضة كبيرة ألصقت بالدبابيس على الحائط .. الرسم للفنان « رخا » ، وفيه تحية لعيد ميلاد المجلة التى يرسم لها – وهو فيه قد رسم وجه « قرفان أفندى » الذى ابتكره شعارا للساعة ١٢ يمثل شعار المصرى أفندى فى آخر ساعة ، وقد اقتبس له الملامح من الصحفى العبوس دائما « محمد على غريب » ! .. والرسم يقدم « قرفان أفندى » لأول مرة ضاحكا بواسع شدقيه وهو ينحنى بالتحية لأسرة تحرير الساعة ١٢ ! – ويخفق قلبى بشدة ، ففى المقدمة من رسم وجوه الأسرة يلوح وجه « مى الصغيرة » بعودها الفاره وبقلمها المتشق وكما يرسمه رخا دائما فى صفحة برج بابل ! .

أتقدم وأدخل وعيناى تطلان على الغرفة المحشودة بالجالسين

والواقفين ، وقد غمرهم الصخب والضحك والضجيج ، وأمامهم « تورتة جاتوه » ، وأطباق سندويتش ، وبتى فور ، وفناجين شاى ! .

« حازم » صاحب المجلة يلحظنى فيترك الحلقة التى كان يتوسطها ويثب ليعانقنى مهنئا ومغتبطا .. عانقته واستوقفته فى توسل متلعثم أن يتركنى أجلس فى أى مكان .. وألا يقدمنى لأحد ! .. ضحك حازم مستهينا ودفعنى من ظهرى إلى الداخل ، لأجد نفسى فجأة وسط وجوه عديدة ومشهورة أعرف أسماء بعضها من صورهم ! .

قدمنى حازم لهم بأننى زميل دراسة هام وصديق عزيز ، وأغراهم عنى بالدعابة عن أننى « هارون الرشيد » فى مخيم الانجليز بقصر النيل . فكل النهار وعن يمينى عشر جوارى من أحلى حريم مالطة وقبرص والشام واليونان ، وعن يسارى عشر أخرى من فتيات بلاد الانجليز والفرنسيس والأمريكان ! .. تضرج وجهى احمرارا وحاولت أن أدفع عن نفسى عورة المنظر ، فيا شدة ما اضطرب وارتبك وتأخذنى اللخمة - رغم عتو ما جرى لى من تجارب - كلما جاءت سيرتى مقرونة بالنساء ! .. حملقوا وتصايحوا وانطلقوا بالقفش واللذع والتنكيت ، فلماذا لم أحضر معى ولو سربا خفيفا يلطف الجلسة من خشونة حفل الخناشير هذا ! .

وبدأ حازم يقدمهم لى - وخذ أسرة المجلة أولا : - « الدكتور طبيب سعيد عبده » رئيس التحرير - القصصى الشهير وصاحب المواويل ، التى تسقط الحكومات ! .. عرفنى به « حازم » ، فقلت له أننى معجب بقصصه ، مفتتن بأسلوبه وأنه بصراحة أشهى الكتاب إلى نفسى .. وابتهج الدكتور سعيد وشد على يدى ، وأحسست أننى رشقت قلبه بما قلت ، فقد أطلق ضحكة ناحلة وهو يضع يده متوددا على كتفى ! .. ثم « محمد عبد المنعم » أو « رخا الرسام » جسمه المكتنز ووجهه الطفولى وعيناه الباسمتان .. أنه أول رسام كاريكاتير مصرى

بعد « رفقى » و « صاروخان » .. ريشته السيالة تتدفق فى الجداول الصحفية ، فهو يرسم ثلاثة أرباع مجلات مصر الأسبوعية .. المؤيدون أو المعارضون لا يهم .. فرأيه السياسى الخاص بات يحتفظ به لنفسه فقد حاول ذات يوم أن يدس رأيه فى ثنايا رسم أورد فيه تعبيرا يمس شرف الذات من الملكية المصونة ، وكان نصيبه السجن عاما ونصف عام ، خرج منه أشد مرحا وأكثر دهاء ، ويكفى اختيار الرمز من « قرفان أفندى » ليكون شعار المصريين فى ذاك الزمان ! .. قلت له هذا فضمنى إليه فى حضن رحب ! .

العضو الثالث فى أسرة الساعة ١٢ - واسمه « فتحى الرملى » .. وجيوبه كما قال رخا سوف تجدها مكدسة بالمقالات من كل نوع ومن أى نوع ، معارض ومؤيد ومحايد وما شاء الاسترزاق أن يفرد قلوعه - ولكنه فى حقيقة نفسه ممسوس بالشيوعية فهو ماركسى لينينى . وله طموح أن يصبح زعيم البروليتاريا المصرية ، وقريبا كما قال سوف يرشح نفسه فى البرلمان عن العمال ! .. توقفت أمامه مبهورا أهز يده ، بل أعطيته نظرات القربى من ذات يوم فى الاسماعيلية الثانوية - حين دهمتنى أفكار الشيوعية ، وخصوصا بعد أن قرأتها عن « سلامة موسى » فجمعت عنها كتابا أحاول أن أؤسس فيه « يوتوبيا » جديدة لهذا الشرق المصرى الخامد ! .

عم « أحمد حسن » المندوب الأخبارى العجوز ، وله مصطبة حافلة فى كل مصلحة ووزارة ، ثم « صالح عرابى » ، محرر الشئون العربية وأى شئون أخرى تريدها المطبعة .. ثم « ميكى ماوس » - عبد الله أحمد عبد الله - فأر السراديب دائما فى كواليس الفن . يفطر عند « زينب صدقى » ، ويتغدى عند « زوزو ماضى » ، ويتعشى مع « الفاتنة كاريوكا » ، وكل ساطعات الصالات والشاشات والكباريهات يجرين من خلفه بمخالب القطط فيا شدة ما يضربنه بكعب الشبشب أحيانا إذا لم ترقهن لوامع أخباره ! .

هؤلاء هم أسرة الساعة ١٢ - الضيوف والجيران ، ومعظمهم من الجارة لصق الحائط بيت « روز اليوسف » .. فهذا هو العم « محمد على غريب » « قرفان أفندى » جالس أشد اتقانا مما يرسم رخا من بوزه الممطوط وتجاعيد السأم والنفور - من كل شىء حوله ! .. « إبراهيم خليل » - حنون الكواليس فى عماد الدين ومخيف الإدارة فى روز اليوسف ، فهو الذى يصرف ويحاسب ويعطى السلفة للمحررين ! .. ثم « على بليغ » الديك الصحفى الناحل العريان والمشرئب .. دائما بعرفه الملون وراء الأسرار والأخبار ! .

ثم هذا الشاب « إحسان عبد القدوس » ابن السيدة روز - وكم هو وسيم وحالم وخجول ! .. ثم سليط اللسان قبيح التحايا « صلاح عبد الجيد » ، وقد بادرنى يطلب سيجارة ! .. ثم أخيرا هذا الشاب الساكت المنطوى والذى جاءت جلستى لصق كتفه ، لم يهتم أن يقدمه لى أحد . فقدم لى نفسه فى تودد فاسمه - « محمد حسنين هيكل » ، وهو سكرتير التحرير فى روز اليوسف ..

....

جلست مأخوذا ملخوما ترفرف عيناى على الوجوه والمناظر ! .

اختلس اللقطات لنفسى وأطبعها فورا لتنتشر فى رعية مشاعرى .. أحاول أن أكون هادئا متزنا رصينا - ولكن عندما جاءت السيرة - عن مى الصغيرة - وبدأ القفش والفقس والرمى والتنكيت - يا إلهى كم التوى عنقى من ذبح الألم عن هذا اللذع الماجن الذى أنطلق .. طويت رأسى متماسكا ، وبرودة الخوف والخجل تسرى فى جسدى ، فقد بدأت الأنياب تنهش سيرة حبيبتى ، ويميل على « هيكل » وقد اكتشف انكماشى مثله - ويسر لى فى ضحكة هامسة وجريئة ، أنه يقرأ قصص هذه المدعوة « مى الصغيرة » عدة مرات ليعيش معها فى متع الأحلام قبل أن يستلقى وينام ! .

أخفضت رأسى .. ولم أتمالك نفسى فضحكت .. أخذنا نتبادل

الكلام ، ثم اندمجنا فى التعارف ، وعندما سألته عن عمره ، تبين أن الفرق بيننا بضعة أيام فقط .. ثم عن اسمه ، فلماذا أوقع نفسه فى مأزق الاسم من سياسى شهير وكبير وصحفى وأديب مثل محمد حسين هيكل باشا ؟ .. فتمتم ضاحكا - بأنه ربما يركب اسمه يوما فيصبح أشهر منه ! .. فضحك صلاح مقهقها وهو يعلق عليه بوصف لاذع ! .

لم يزعل هيكل بل بادله الضحك ، وكان واضحا أن صلاح له سلطة ونفوذ عليه فبمجرد أن استدار ليقول له همسا : - دعنا نخرج من هذا المكان فقد سئمت بوز « عمك غريب » وغلاسة « إبراهيم خليل » ، حتى قام وأطاعه فورا - بعد أن سألنى إذا كنت أرغب فى تسلل الانصراف مثلهم وصحبتهم ؟ .. فوافقت فورا - وأنا أحس بالميل إلى هيكل هذا بالذات ! .

....

تسللنا من الباب ، ثم بمجرد أن وصلنا إلى الشارع هرولنا نجرى قبل أن يلحظنا أحد ، ونحن نطلق ضحكات شبابية صاخبة مرحة ! .. وتوقفنا عند ناصية الشارع ، وكانت الساعة قد أصبحت الثامنة والنصف مساء ، فقال صلاح سوف أعزمكم الليلة على سهرة فى « الكيت كات » ، ولن نتكلف إلا مصاريف المواصلات وبقشيش الجرسونات ، فهيا كل واحد ينفض جيبه بما معه من رصيد ! .

اضطرم وجه هيكل بالخجل وهو ينظر نحوى - واعترف أنه ليس معه إلا قرش واحد قد استبقاه لتذكرة العودة ! .. أما صلاح فقد أفرغ جيب بنطلونه بطريقة البوهيميين وأبرز « ريالا » فهو مستعد للاستغناء عن نصفه ! .. وفى حرج شديد أخرجت لهم جنيها ، فجحظت عيونهما عليه فى دهشة ، وأسرع صلاح يختطفه منى مهللا - فبه يمكن أن نلف على كل صالات المدينة ! .

استوقفتهما عن مشروعهما هذا فعندى عزومة رائعة مفتوحة ،

ولا مانع أن يصحبانى إليها إذا اتفقنا .. دعوة من « بيكى » فتاة البيع عندنا فى قصر النيل ، والليلة حفلة خطوبتها للملازم الأمريكى « نورمان » - فقط يا بعد المشوار - فهو فى « ضاحية الزيتون » ! .

عانقنى صلاح فى حرارة وهو يدس الجنيه والريال فى جيبه - فتلك ميزانية المواصلات ذهابا وإيابا .. بينما تألق وجه هيكل فى بشر وراحة ، وهو يضع ذراعه فى ذراعى ، وعلت صيحة صلاح فى الشارع تستوقف التاكسى ، وإلى الزيتون يا أسطى ! .

« السلالم »

القاهرة ٤٤ و ٤٥

وتمضى الأيام والأشهر والسنوات ..

حرب هتلر لاهثة فى أنفاسها الأخيرة .. الغلاء يزداد .. أثرياء الحرب يتكاثرون .. الفقر والبطالة .. الطبقية والمهانة .. السخط والتمرد .. عيون الناس فيها تحد ولمعان .. جيل جديد يتحفز .. والقاهرة فى جوفها قلابة .. ! .

استأجرت غرفة بنسيون أخرى فى « باب اللوق » ! .. لا لم أترك بنسيون « كنتج فيليب » بالفجالة - فقط هذا البنسيون الجديد للراحة والخلوة ، وأنا معه لا أحتاج إلى مواصلات وما أتفه أجره .. فحياتى الآن فى دائرة لا تخرج عن منطقة الانتيكخانة حيث مكان عملى فى قشلاق قصر النيل .. ثم هذا الشارع الحبيب محمد باشا سعيد حيث مجلة الساعة ١٢ ، والتى أصبحت أتردد عليها يوميا وتأسست لى فيها قاعدة من أصدقاء جدد ، ومعارف جدد .. وعائلتى الجديدة وكلهم كتاب وصحفيون وفنانون ! .

....

ومنذ تلك السهرة فى ضاحية الزيتون - أصبحت لى عائلة صحفية حارة الأواصر - تجمعت أولى خلاياها من « صلاح عبد المجيد » و « محمد حسنين هيكل » ..

ففى تلك السهرة - ومن شدة البهجة والشبع والاستمتاع - سرت فينا دفقة من حب وصداقة ، فأعمارنا متقاربة ، ومستوانا واحد ، وأحلامنا شبيهة ..

سعدنا يومها بأنفسنا جدا ، فالسهرة خواجاتى . ونحن « أولاد البلد » ضحكنا على كل شىء وعلى لا شىء .. « وهيكل » يتضرج وجهه احمرارا كلما طلبته فتاة للرقص .. و « صلاح » انطلق مهرجا خفيف الروح .. و « أنا » - أبدو مزهوا وملخوما كالديك الأعمى بينما صديقات « بيكى » المتألقات المتحررات يكرمن جلستنا المنزوية فى الحديقة بعديد الأطباق والأكواب والزجاجات والمجالسات .. نعم ، تصاحبنا واندمجنا إلى درجة الولع - وكل يوم لنا لهفة أن نلتقى سويا - حتى لو تسكعنا فى الشوارع والمقاهى وعلى ضفاف النيل ..

« صلاح » لسانه ذئبى وتعابيره فاسقة ، واقتحاماته جريئة وماجنة - وقد اكتشفت بعد تعلقى به أنه ليس من نوعى أبدا ، ولن أكون من نوعه أبدا ، بل باتت الصحبة معه - بينى وبين نفسى - مخجلة ومحرجة .. ولكنه كان منتشرا صاخبا ، ودائما يبهرنى بحفرياته الكنوز فى سراديب القاهرة الفنية .. سهرات زكريا أحمد . وجلسات بيرم التونسى .. وحلقات الضحى والليل من شرفة « كازينو بديعة » .. وجلسات الريحانى ومقاهى عماد الدين .. اليوديجا ، والركس ، وبيت المهدى ، ونقابة العوالم ، وليالى « الزار » فى شقة « فتحية محمود » ! .

صلاح منتشر ويزهو أنه صاحب مدرسة فى الصحافة اسمها « مدرسة الصفاقة » .. مدرسة لا تخجل أن تسأل أرملة الزعيم المتوفى أمس عن خيانات زوجها الراحل ؟ .. أو تسأل « زيور باشا » البدين جدا فيما رأيه فى منظره عاريا أمام المرآة فى الحمام أحيانا ؟ .. أو تستقصى من زينب صدقى « فيقال أنها تستحم باللبن

والقشدة !! .. ثم أن له الدروس الخصوصية أيضا عن مدرسة اتسع انتشارها فى تلك الأيام اسمها « الفبركة الصحفية » .. وعلى أى مقهى وعلى أى رصيف يمكن أن تجلس وتحرر مثير الأخبار وتؤلف بارع الأحاديث دون أن تتعب نفسك فالفبركة أسهل ! .. مدرسة تعسة توزع الهش والقش فى ساحات اللامبالاة . وربما رضع عزيزى هيكل منها جرعات كثيرة قبل أن أراه وأعرفه ، فذات يوم وقعت فى يده مجلة أجنبية وفيها « حديث للكونت شيانو » عن موسولينى وإيطاليا والحرب ، فاختلى بها وكتب صفحتين عن مندوب المجلة من القاهرة وكيف سافر وقابل الكونت شيانو ، وشرب معه النبيذ ، وتبادلا سيجار الهافانا ومزة الكافيار ، وأدلى له بهذا الحديث المدوى الخاص والذى تنفرد مجلتنا القاهرية بنشره !! .. هيكل منطو دائما وله انكماش النمس تحت أى مطر أو خطر .. متربص لوثبات الفرص ، فطموحه حارق للوصول - مع تلك الصحافة - إلى أعلى القمم وبأى الطرق ، وكثيرا ما أرهقنى بوقفة الساعات أمام فترينة الانجلو والماشيست ، ويقلب فى المجلات والصحف الأفرنجية وأنفاسه تلهث لو يقدر فيشتريها كلها ، أو لو يسافر وينضم لبلادها .. أما أنا ، فمازلت قاطع تذكرة فى ظلام قاعة سينما أتخبط بحثا عن مقعدى ، ولا بصيص أمامى إلا هذان الصاحبان ! .

....

ومع عزيزة أو « موناليزا » كما كنت أغازل ابتسامتها الشفافة الدائمة ، فعلاقتى بها سارية وجارية .. علاقة هادئة وعاقلة وبلا اندفاع - فكلانا يطل على مستقبله - وآخر ما قررنا أن نفكر فيه هو هذا المخيف المرعب الذى اسمه « الزواج » .

فعزيزة - وثقافتها الانجلش كوليج - تراه احتكارا ومللا يقتل أى حب ، وصفقة خاسرة للمرأة يتحول فيها الرجل - وخصوصا الشرقى - إلى مستعمر ومبتز وطاغية ! .

أما أنا المتمرد على التقاليد .. الباحث عن كل جديد - فأراه حلا واحدا من مائة حل مفقود وتائه فى غياهب هذا الغموض .. علاقة عاقلة رصينة عفيفة ، غير تلك التى ألهبتنى وأذلتنى وأوشكت أن تصل بى إلى التلف مع النارية السادية الهوجاء « مارى » ! .. أبدا لم يخطر الجنس على بالنا .. اندمجنا فى باقة روح أريجها الفن والالهام .. هى تنشد أن تحترف الرسم ، وأنا فى الطريق لأكون عضوا فى بلاط صاحبة الجلالة ، وطموحها ذات يوم أن تنضم معى إليه كى ترسم قصصى ورواياتى فى أشهر وأكبر الدور والمجلات ! .

عزيزتى الموناليزا المصرية والعلاقة سارية ومستمرة ، - رغم أنها تركت العمل فى قشلاق قصر النيل منذ بضعة أشهر ، والتحقت بمبنى استعلامات الجيش المجاور ..

تركت العمل بعد واقعة مؤسفة عنيفة - سببها هذه الرعناء مارى ! .. فذات يوم فى فترة راحة الظهيرة ونحن فى المكتب سويا .. أنا وهى .. نتسامر ، وأحكى لها عن أخبارى ونشوة تنقلاتى فى شارع محمد باشا سعيد - وهى جالسة تنصت فى شغف وقد انهمكت تتسلى برسمى على شكل « مسحراتى » يدق بالطبلة فى الليل على بيوت شارع محمد باشا سعيد ! .. ونحن هكذا ظهر « الميجور كول » وفى ذراعه مارى ، يمرحان ويضجان ويفشيان غرامهما الصريح على مرأى من الجميع .. منظر ممض طبعا ، فهو حركات شغب واستفزاز من مارى حين يحلو لها أو تتصور أن تلهب ما خمد من غيرتى ،، أنها تراقب علاقتى بعزيزة بعين القطة الغضوب التى اختطفت منها مواليدها .. ويا إلهى فمتى يهدأ الاعصار من هذه الفتاة ؟ .. نزوات جموحها تلك فماذا تقصد بى أو ماذا تريد أو ماذا عادت تطمع منى الآن - أنا خاوى الوفاض حائر المستقبل - وفى يدها صفقة ابن لوردات ممتلئ وغنى وبراق ! .. لقد توقفت هذه الجارحة وراء ظهر عزيزة برهة تتملى

من الرسم ، ثم أطلقت ضحكة رنانة مستخفة عن بواخ المعنى من هذا الرسم .. وردت عزيزة عليها فى حدة بأنها أمور لن تفهمها ، ويجب أن تحترمها ! .. وانفعلت مارى فى غيظ وأكدت على أخطاء فى الرسم ، بل تجرأت فى حركة مباغتة سخيفة وأمسكت بالقلم تصحح أو تشوه فيه ! .

وهنا - حدث المنظر المرعب الغريب - من عزيزة .. تحولت فجأة إلى شكل لبؤة هائجة تتفتح منها الأنياب وتخرج المخالب .. خطفت ورقة الرسم من يد مارى ثم فى صيحة تشبه الزئير أمرتها أن تنصرف من أمامها فورا ، وإلا ألقت بما فى تلك المحبرة على وجهها وثيابها ! .. تراجعت مارى مذعورة فقد بدا منظر عزيزة المربد المنفعل على استعداد لتنفيذ هذا الأمر فعلا .. أدهشنى منظر عزيزة وسرت البرودة فى جسمى ، يا غرابة الخفى من أمور النساء حين تتحول نعومتهن فجأة إلى ضراوة وشراسة .. وقبل أن أعمل على تهدئة الموقف ، تحرك صديقى الأحمق « ميجوركول » ووجهه متقد بمثل قرص النار الأحمر نحو عزيزة وقد ضايقته تلك الاهانة منها لخطيبته ، وألقى الأمر على مارى بأن تظل فى مكانها فلا تخرج فهو الرئيس الذى يأمر هنا ! .. وبسرعة تحول المشهد إلى بارود وفتيل قد بدأ فاشتعل فعلا - فقد ظهر على كول أنه مصر على رد الاهانة لعزيزة ، وخيل لى أنه سوف يخرج عن تحضره فيصفعها ! .. قفزت أقف أمامه وجها لوجه ونظراتى حادة ، ومنظرى يقول له سوف أضربه طبعا لو فعلها ! .. ولكن عزيزة رفعت رأسها واختطفت حقيبتها وزعقت فيه بكبرياء - إذن فسوف أخرج أنا ! .. ولم تتمهل .. اندفعت خارجة ، بل اختفت فجأة بحيث لم أتمكن من اللحاق بها ! .

سئمت بعدها قشلاق قصر النيل هذا .. ضقت ذرعا بحماقات مارى .. يئست من تخبطات كول ، فكم جعله هذا الحب الشاذ سخيفا بل منفرا .

وغابت عزيزة عن عينى بضعة أيام - يا لهفة قلبى وحيرة عقلى وقلق نفسى من غيبتها تلك - .. اختفت عن أى مكان اعتدت أن أجدها فيه .. منظرها الغريب الذى فاجأنى فى طباعها ؟ .. هل هى غاضبة منى ؟ .. فماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ .

وذات يوم وأنا خارج من بوابة قصر النيل ، وجدتها واقفة تنتظرنى مع فتاة زميلة لها فى العمل اسمها « تماضر » اندفعت نحوها متلهفا ومتسائلا ومعاتبا ، فأعطتنى الراحة فورا من صفاء نظراتها وعودة الابتسامة الشفافة إلى وجهها الموناليزا المصرى الخلاب ! .. وأخذتها من زميلتها وعلى فمى مائة سؤال وسؤال من حول ما حدث وبعد ما حدث ، ولكنها وضعت كف يدها على فمى فى رقة فلا داعى .. أنها الآن تشتغل فى الاستعلامات ومرتبها أكبر ، وعملها أسهل ومهذب ومريح ولهفتها الآن أن ترى « فيلم استر وليامز الجديد فى سينما مترو » . - وهذه هى قد قطعت التذاكر وتعال حتى يحين الموعد نتمشى ، واحك لى أنت عن أخبارك وآخر قصة كتبتها ؟ .

آخر قصة كتبتها اسمها « لعبة المجد » .. صراع المناظر أو تمرد المناظر فى غابة الاقطاع والطبقية ! .. وآخر برج بابل كتبته عن العدالة الاجتماعية التى تحدث عنها فى جريدة الأهرام « دولة اسماعيل صدقى باشا » .. عدالة اجتماعية ؟! .. وتعالوا نطل على نوعها فى قصور جاردن سيتى والزمالك والشوارع مغسولة بالعطر والصابون ، ثم نأخذ النظرة على الأكواخ والعشش والوحل والبيوت الصفيح فى عشش الترجمان والدراسة والكحكيين !! .. تعالوا نمسك الميزان من « فاترينة عكاوى » وفيها - غويشة بالفصوص - وثمنها يشترى حى الشرابية برجاله وحريمه وأطفاله !! .. قفوا نأخذ اللقطات من رشاقة العدالة الاجتماعية ، بين العابرين والشوارع والأزقة والحوارى وثلاثة أرباعهن « حفاة » بلا حذاء أو شبشب أو حتى قبقاب ، أما الربع

الباقى فله تنحنى العدالة ويستريح منها الضمير وهم يختالون فى الحذاء اللميع وعليه غطاء من الجوخ والقطيفة !! .

« مى الصغيرة أصبحت يافطة كبيرة مرموقة فى الشارع الصحفى الصغير .. وأنا رسولها أو مندوبها أو فلأكن من أكون ، فقد خفت التساؤل رويدا رويدا بعد الاصرار المغالى منى بين خاصة الأصدقاء والزملاء على أننى لست هى .. حدث الاستسلام الباسم منهم فقد تحرجوا أن أغضب وأتركهم فيفقدوا الجذوة منى ، فقد أصبحت بينهم محبوبا ومرغوبا ومطلوبا .. خفت التساؤل بين الخاصة والقربى ، ولكنه لم يخف أبدا بل استشرى وتضخم بين القراء وغرباء الشارع ! .

يالها من حكايات .. يالها من نوادر ..

وذات مرة أعلنت الزعيمة - فاطمة نعمت راشد - عن تأليف حزب سياسى عن نساء مصر اسمه « الحزب النسائى الوطنى » سخرية طبعا ، وقد هرول الكاريكاتير الصحفى من ورائها باللذع والهزء ، فقد كانت للست فاطمة هذه تقاليع بمثل تقاليع الشيخ أبو العيون - الذى يطارد النساء العاريات على البلاچات ! .. وعن هذا الحزب وصلت الدعوة بالانضمام إلى الكاتبة « مى الصغيرة » ولأنها لا تقدر أن تنضم أو تظهر أو حتى تقتنع ، فقد ظهر لها مقال تسفه به ظهور هذا الحزب ، فهل ينقصنا فشل أحزاب الرجال ليمتطى الفشل أيضا ، أحزاب النساء ؟! .. ولقد انطلقت المعركة بعد هذا المقال ، فقد ردت الست فاطمة ردا قاسيا ، فردت مى أشد قسوة واندلاعا .. وتطايرت برقيات وخطابات التأييد ، بل مقالات منفعلة لمى الصغيرة تحمل اسم « أسما حليم » « وكوثر منصور » ونازلى فؤاد » و « حكمت أبو زيد » و « سعاد الرملى » ! .

....

لصديقه الحميم « حازم فوده » أبدا لا أمسك القلم والورق لأكتب أثناء وجودى فيها .. أحاذر أن يرانى أحد أكتب حتى ولو كان من أقرب الخاصة .. ورويدا رويدا تساهلت أمام « حازم » فأصبحت أختطف كتابة ما يطلب منى أمامه - فقط عليه أن يغلق الباب بالمفتاح والترباس ! .

سربت بعض القصص إلى الجارة « روز اليوسف » ولمعت فيها رمية قصة عنوانها « امرأة » .. بطلتها ولأول مرة من جرؤات القلم القصصى المصرى - « برنسيسة » من البيت المالك « أميرة شاذة لاهية ومنحلة ، تسلل خادمتها فى الليل لاصطياد فحول الرجال ، ولذتها بعد أن تبهرهم وتضاجعهم أن تسرق محافظهم وأسرارهم وتضعهم فى مأزق الفضيحة والابتزاز ! .. ثم قصة أخرى « لروز اليوسف » أيضا كان عنوانها : « أعاصير العزوبة » ، والاهداء فى برواز المقدمة من الكاتبة العذراء مى الصغيرة إلى عازب مصر الأشهر عباس محمود العقاد » .. ويومها ، يومها سأل « العقاد » واستقصى بشدة فلماذا لا تخرج « مى » هذه من محارتها فربما ينزلق هو عن صهوة عزوبيته فيتزوجها ! .

....

انتشرت « مى الصغيرة » وأصبحت فقرة دائمة فى صغير الصحف والمجلات ، من استفتاءات وأحاديث وأخذ آراء - فمثلا هل « عجزت القصة المصرية عن تموين السينما المصرية ؟ » .. وآراء مشاهير وأقطاب القصة مثل « محمود تيمور بك » ، و « إبراهيم رمزى بك » ، و « الدكتور سعيد عبده » ، و « المازنى » ، ووسطهم يتألق اسم القصصية الأديبة « مي الصغيرة » ! .. أو فى مجلة أخرى - « وهؤلاء القصاصون حينما يصفون منظرا واحدا » ! .. أو - « البطل الذى حقدت عليه أثناء كتابة قصتى » .. أو « هؤلاء الكبار يكملون قصة

ناقصة عنوانها « ليلة فى الجنة » .. أو « ربع ساعة مع مى الصغيرة » والسؤال لها فى « مجلة رابطة الشباب » عن « ماذا تفعلين لو أصبحت عضو برلمان ؟ » .. ومى الصغيرة أيضا فى « مجلة التلغراف » ، والسؤال لها مع « فاطمة اليوسف » ، و « منيرة ثابت » و « فاطمة راشد » وهل نجحت المرأة المصرية فى الاشتغال بالمحاماة ؟ .. ثم هذا المقال من صفحتين فى « مجلة الشعلة » وصاحبها « محمد على حماد » والعنوان : « هؤلاء القصاصون ورأى مى الصغيرة فيهم » .. « تيمور » ، و « سعيد عبده » و « يوسف جوهر » و « يوسف حلمى » و « صلاح ذهنى » و « محمود كامل » ، و « طاهر لاشين » ! .

وذات مرة أصدرت الساعة ١٢ عددا خاصا عن « السينما » وكان طبيعيا أن تشارك فيه ، فكتبت مقالا كان له الدوى والرعب والدهشة فى البيت الصحفى كله من وقع جرأته تحت عنوان « نجوم غير سينمائية » .. تضع فيه الزعماء ونجوم السياسة والأحزاب بلا ماكياج ، وبلا باشوية ، وبلا بيكوية ، وبلا صاحب دولة وسعادة وعزة .. - وتعال نشاغبهم بالقلم ، فما الفرق ، وبمثل ما نفعل مع الكسار وشرفنطح والقصرى ؟! .

« أحمد ماهر » ، وعبد الحميد عبد الحق ، و « فكرى أباظة » و « عبد الواحد الوكيل » و « مصطفى النحاس » و « اسماعيل صدقى » و « أمين عثمان » و « مكرم عبيد » و « الصوفانى » و « الرافعى » و « هيكل » و « حلمى عيسى » و « عبد الرحمن عزام » و « محمد محمود خليل » و « محمد صلاح الدين » و « توفيق دوس » و « عبد المجيد صالح » و « سنى اللقانى » و « فؤاد سراج الدين » و « حسن نشأت » و « عبد الفتاح يحيى » و « أحمد حسنين » .. و « أحمد زيور » و « البدراوى عاشور » و « رشوان

محفوظ » و « النقراشى » .. و « صليب سامى » و « فريد زعلوك » و « سيد سليم » ! .

هذا المقال .. ولو كان كاتبه رجلا لسحبته المباحث والمحاكم إلى السجون فورا ، أما وكاتبته فتاة ، فالغمزة والابتسامة والاستهانة تكفى ، ومهما سرح بعيدان الكبريت فى هش الحياة السياسية ..

وتماسكت بشدة عن انفجارات الغرور حين ظهر مقال فى مطلع العام وفيه يتنبأ الكاتب الذى هو « فتحى الرملى » ، بأن المستقبل لهؤلاء الخمسة .. أولا : « حافظ محمود » ، ثانيا : « إحسان عبد القدوس » ، ثالثا : « عبد المنعم حسن » ، رابعا : « مى الصغيرة » - والنبوءة عنها أنها سوف تصبح قريبا جدا من كواكب الأدب الإنسانى فى مصر - والخامس : « رمسيس يونان » فهذا هو خليفة سلامة موسى ! .

هكذا رسخت القاعدة من عائلتى الصحفية ، بل انتشرت وترعرعت .. وفى - البداية كما قلت - كانت أول البذرة منها هما : « هيكل وصلاح عبد الجيد » .. ثم أغرى منظرنا « سعيد عبده » فانضم إلينا ثم تبعه هذا المتألق بين السفارات والدبلوماسيات صديقى الجديد والحميم « رمسيس نصيف » ! .. ثم أسقطنا « صلاح عبد الجيد » فلم نعد نطيق ضجيجه وتبذله ونزواته ، واشتد تآزرى وتحالفى مع « هيكل » ، فهو معى يتغدى ويتعشى وأحيانا يفطر ! .. ثم « رخا » ، و « بيرم التونسى » ، ثم « محمد على غريب » ، ثم « زهدى الرسام » وهو دائما يختال فى الشوارع متشنجا وعصبيا برسومه الوطنية ، ولا يهمه البنطلون المرقع والحذاء الهالك وهلاهيل ما يرتدى من خرق أو ثياب ، وزمجرته فى وجه من ينقده أنه يمثل الأربعة عشر مليونا حافى وممزق ومملق ! .

ثم تقلصنا من هذا الصخب فأصبحت مجموعتى الخاصة - والتى بت لها الوقود والجذوة - هى كهلنا الطبيب الفنان الدكتور سعيد ، والنمس

المنكمش محمد هيكل ، والمانشيت الدبلوماسى الرشيق رمسيس نصيف .

عائلتى الجديدة الخلابة ، خميلتى التى آوى إليها .. وكان تصنتى معها بل خفق قلبى ، على هذا الدبيب الذى بدأ يعلن عن قرب أن يرج الأرض الصحفية .. التوأمان اللامعان « مصطفى وعلى أمين » يعدان لظهور « أخبار اليوم » قريبا قريبا ! .

« الـزلـزال »

القاهرة ٤٤ - ٤٥

طرحت نفسى على السرير فى « بنسيون كنج فيليب » .. محملقا يأخذنى الأرق فالساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل ، ومن النافذة فالظلام بهيم .. الفجالة هاجعة تماما .. المدينة كلها ساكنة إلا من دقات الساعات .. عينى على النتيجة الكرتونية المعلقة على الحائط .. نظراتى نحوها ضريرة فقناع مى الصغيرة يكبس وجهى .. تشتد لفائفه من حول وجهى .. مازال أمامه سنتان قبل أن يرفع .. منذ خططت لهذا أصبح الأمر وثيقة واتفاقا .. ولكن يا ذعر ما توشك أن تضعف ارادتى منذ أيام ويدى المرتجفة تتحفز أن تفك الأربطة ! .

....

دبيب زلزال زاحف يرج الأجنحة فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة - من قرب ظهور « جريدة أخبار اليوم بقيادة التوأمين مصطفى وعلى أمين » ! .

« التوءمان مصطفى وعلى أمين » - ولهما خلقة عملاقين ، وشكل مصارعين ، ووهج جماهيرى ينتشر ويروج ويملأ الآفاق .. تركا « دار الهلال » فى مظاهرة تشبه الانقلاب - فقد هرول من خلفهما ولاء رعية كبرى من الكتاب والصحفيين والرسامين فى تلك الدار ،

ولحق بهما رعية أكبر من الكتاب والصحفيين والرسامين فى كل البلد ، واختارا أطول عمارة فى شارع قصر النيل واحتلا الأسطح العالية منها – وارفعى قامتك يا كل مصر لتطول القامات الطويلة من جدد أولادك ! .

« مصطفى وعلى » شابان ارستقراطيان يلهبان الخيال ، فأبوهما سفير ، وأمهما صاحبة عصمة وسبطهما من « باشا مصر الأعظم سعد زغلول » ، ومهدهما بيت الزعامة الشريف المنيف .. نشأتهما أخذت نواصى الحضارة جنوبا وشمالا فهذا نال الشهادة وعاد من أمريكا ، وذاك نالها وعاد من بريطانيا العظمى ، ولهما سنوات صحفية خفيفة منذ التحقا بـ « مدرسة التابعى » ، ليتخرجا فيها سريعا ألفوات وأوائل ويملآن الساحة والمرح والنشوة والحرارة ، وأيضا التدليع الجماهيرى والتهشيك الشعبى ! .

مصطفى وعلى – إثارة ، وشطارة ونجومية تأخذ بالألباب . سرعة الوثب لهما – فى عيون الجيل – مذهلة بل ساحرة . والجماهير الحائرة تفرك الأعين عليهما فى دهشة واستغراب ، فهما يهاجمان الفقر والذل أحيانا وكأنهما تربيا على طبق المش بالدود فى « قرية وردان » ! .. ويهاجمان الطبقية والمهانة أحيانا وكأنهما من مواليد حوش بردق وعزب الصفيح ! .. ويلهبان الحزبية والزعامات أحيانا وكأنهما يمسكان عصاة النبى موسى تشق لهما ولقرائهما البحر والصخر ! .

مدرسة التابعى الكهلة ، تلد مدرسة جديدة شابة وثابة ومشاغبة .. لا تخاف ولا تأبه بجبابرة البلاط الراسخين من ملوك صحافة الشوام واليهود ، فهل هم إلا أصنام من جاهلية مصرية حان لها أن تتهشم وتكنس .. نعم مع بدء ظهور أخبار اليوم ، بدأ ذعر السوق الشاميهودى خوف انتقاله من صحافة الأغراب إلى صحافة الأبناء .. ودائما كانت لهم القدرة السهلة أن يطيحوا أو يذيبوا أى اقتحام على احتكار دولتهم .. لديهم أسلحة القتل دائما من توزيع أو إعلانات أو

مؤامرات فى خفى الكواليس .. أما هذه المرة ، فقد بدأت شواربهم المبرومة تهتز فى ارتعاشة العجز والحيرة - فهؤلاء الجدد - تساندهم عاطفة قومية عارمة .. حفاوة شعبية تهلل لهم بل وتحميهم ! .

....

الشارع الصحفى وأنا أمشى فيه خافق القلب لاهث الأنفاس ، يأخذنى هذا الدبيب تحت أقدامى وهنا الزلزال فى وجدانى ! .. القلق والحيرة وتطاير الأفكار مع ابن الفلاحين بالغ الحياء ، وهو يتلهف على فرصة أن يجد المقعد معهم .. الفرصة مع هؤلاء الجدد المتألقين اللامعين .. الكل يهرول نحو أرض الذهب الصحفى .. ناشئون وقدامى ، فالمستقبل لها .. وأنا أتماسك بنفسى والاغراء يلوى عنقى على ضجيج الانتشار ورواج الالتحاق بالدار الجديدة .. أتعثر بأفكارى فهل هى الفرصة أن أصارح « رخا » أو « مأمون الشناوى » - وقد أصبحا لى من أعز الأصدقاء - فأرجوهما أن يتوسطا لى عند التوءمين .. يتوسطان ؟ .. لا .. لا .. لقد ألغيت الواسطة من مشوار حياتى ، ولن أبدد عقائدى سهلا فلابد أن هناك وسائل أحسن ! .. ترى هل أقدر أن أتجرأ مثلا ، فأستأذن من حيائى الريفى البائس هذا ، وآخذ نفسى إلى التوءمين ، وهاكم ثمرة إثارة يا ملوك الإثارة .. مى الصغيرة ولها الآن ضجة كبيرة .. محبوسة فى حى النشأة نعم - ولكن ها هى على استعداد للانطلاق على أيديكم ما شئتم أن تبقى أو ترفع القناع ! .

لا . لن أقدر أن أفعل هذا أو ذاك ! .

تنقلات وتأهبات سريعة وغريبة تغمر الشارع الصحفى ! .. « دار الهلال » تعلن عن استيراد مطابع جديدة بأفخر الألوان ! .. « الأهرام » تسمن صفحاته وتسخو تجديداته ! .. « المصرى » له شعبية الشارع اليومى وتجربته ، ولا يأبه بالمزاحمين الصغار ! .. « صحافة الوفد » تطل من الشبابيك فى ضجر وسأم فماذا يعنيها ! ..

« صحافة الأحزاب والمعارضة » تأخذها تقلصات الحرقة واللهفة أن يبين أى جديد ! .. « الصحافة المستقلة » تهرش رأسها وتفكر فماذا بعد ؟ .. دكاكين الشارع الصحفى الصغير قنوعة بأحوالها المستسلمة فمم يأخذها الخوف أو الذعر ! .

ضجة انتقال ليست من « الشاميهودية » إلى « المصرية العصرية » فقط - بل من مدرسة التابعى القديمة إلى مدرسة خريجيها الألفوات ! .. تنقلات من آخر ساعة ، فكامل الشناوى يترك رئاسة تحريرها وينضم متفرغا لأخبار اليوم ، و « التابعى » السائح المرفه فى « كابرى » ونجم حاشية النزهة مع « الملكة نازلى » تنشر له باذخ الصور وهو يرفع الملكة الأرملة الضحوك اللعوب بذراعيه من زحلقة الجليد - وعلى وجهه ابتسامة مختالة تستدرج لنا الهمس والطنين والتباهى ! .. التابعى تصله الأنباء هناك عن الانقلابات التى تجرى فى دولته فلا يأبه ، فهو الامبراطور الخالد وبوسعه أن يعود فى أى وقت ليهش الصغار والرعاع عن تطاولهم على عرش مملكته .. انه لا يأبه ويعطى تعليماته تليفونيا أن يدير آخر ساعة حتى عودة صديقه « الدكتور سعيد عبده » ! .

تنقلات ، وسعيد عبده يأخذ معه « هيكل » من « روز اليوسف » إلى « آخر ساعة » ويعود « إحسان » - الذى كان فى خصام مع أمه - من « آخر ساعة » ، إلى مجلته « روز اليوسف » .. و « رخا » يفزع العشرين مجلة التى كان يرسمها بأنه سوف يكف عن المعاملة بعد أن تفرغ لأخبار اليوم .. « المازنى » و « الصاوى » و « توفيق الحكيم » و « العقاد » يوقعون العقود بأرقام مرعبة .. إشاعات عن النصف مليون جنيه التى دفعها « الملك » و « أحمد حسنين » للتوءمين كى يطيحا بالوفد و « مصطفى النحاس » ! .. أو الثلاثة أرباع المليون التى دفعها « عبود » ليرسخ إعلاميا من سيطرة اقطاعيته الصناعية التى ترامت معالمها من « دمياط إلى الأقصر » ! ..

أو « أم كلثوم » التى أودعت ذهبا ومصاغها ضمانا لقرض كبير من بنك مصر ! .. إشاعات وإشاعات .. ومنها من يصارح ويؤكد أخيرا - ولا مليم ، فالتوءمان خاويا الوفاض وما اعتمادهما المغامر الأهبل إلا على هذا الحافى العارى الساخط المحروم الذى اسمه « الجمهور » ! .

....

وفى مساء « التعيين لصديقى الدكتور سعيد عبده - يشرف على تحرير « آخر ساعة » .. وصديقى « محمد حسنين هيكل » يمسك « السكرتارية » بمرتب صاعد وثابت هو ستة جنيهات ! .. وكان الاتفاق لى معهما أن نحتفل بالمناسبة فى أى مكان ، وعلى حساب سعيد الممتلئ طبعا .. وقد جاء الاحتفال فى تلك الأمسية رائعا وبلا قصد ، عندما قابلانى ومعهما دعوة من « النجمة البازغة زوزو ماضى » ، فالليلة تقيم سهرة عيد ميلادها فى شقتها الواسعة الفاخرة بشارع الملكة نازلى بجوار « غمرة » ! .

السهرة تتوهج بالنجوم والكواكب .. مزدحمة ونشوانة ومتألقة .. مجتمع غريب صاخب ، يموج مع بعضه ، ولا يسأل إلا عن هناء ليلته ، فغدا يوم آخر ! .. وقد أخذنا لأنفسنا ركنا منزويا للنقد والتأمل ، فمتعتنا فى أى مكان - ومنذ أشهر - أن نكون سويا كل ليلة ونجد جديدا نطل عليه أو ننقده ! .

صديقى . « الدكتور سعيد عبده » يلعق ريقه ، بينما نجمة مسرح الريحانى الشهية « ميمى شكيب » تخب أمامه فى لحمها الأبيض الفاخر ، وتستحلفه فى تثنى الغوانى أن يعيد على مسامعها مواله الصاعق الشهير عن « حلمى عيسى باشا وزير التقاليد » ، هذا الذى كان قد أصدر قرارا يلغى به « معهد التمثيل المسرحى » ، فالتمثيل انحراف ومجون ! .. وبصوته العصفورى الناحل انطلق سعيد ينشد لها كل مواويله . بينما عزيزى الخجول هيكل يمسح بعينيه المتلمظتين على خمائل العنق والأكتاف والنهود .

صديقاى البريئان الممتعان يمرحان - صوت وصورة - مع من التف حولهما من نجوم وفاتنات ، وأنا شارد وبعيد فحرمانى أكبر من كل هذا بكثير .. لهفتى وحرقتى منذ بدأت تلك التنقلات الصحفية ، إلى إشارة الأصبع الذهبية الساحرة من مولاتى صاحبة الجلالة وطريقة أن تأمر لآخذ مقعدى ، كيف بالله فى بلاطها الخاوى من أولاد الفلاحين ! .

عينى تميل على منظر صديقى الدكتور سعيد ، فكم هو بسيط وودود .. وفى أعماق نفسى وقبل أن أعرفه - يلهب خيالى بأسلوبه الراشق المختال ، وقصصه الخلابة ، ومواويله القاصمة ، ومقالاته الفريدة ، وأى شىء يكتب فيه فله عطر يتميز ! .. ها هو بجوارى ، وكتفى لصق كتفه فى حالة صداقة أخاذة .. إنه ريفى مثلى ، ولكنه ليس من طبقتى ، فهو طبيب وأستاذ جامعة ورئيس تحرير ، ولابد أن لأبيه أرضا وأملاكا ، وإلا فكيف دفع مصاريف الطب الباهظة ؟ .. إنه يكبرنى - أنا وهيكل ورمسيس - بعشرة أعوام تقريبا - ولكن طباعه الفنانة قادرة دائما أن تذيب فارق العمر ، بل إنه يبارينا أحيانا فى المرح وشطط المآزق ! .. ورغم حبى له وانبهارى به فقد كان يفزعنى منه مقدرة تطويع القلم - فهو يجيد الكتابة عن الوطنية إلى درجة الالتهاب ، ولكنه فى قرارة نفسه يستخف بجدواها .. يهاجم وله مخالب فى مواويله الحزبية ، ولكنه بعدها يتمسح معتذرا فما هو إلا محترف ! .. أسقط رأيه السياسى فى بئر غائرة ، فهو اليوم فى المجلة الوفدية ، وغدا فى المجلة المستقلة ، وربما بعد غد فى الجريدة المعارضة ، فمادام النشر بلا توقيع ، أو حتى أحيانا بتوقيع ، فما هو إلا قلم يأخذ أجرا ! .. نعم كان يفزعنى بتلك الضحكة العصفورية المستخفة كلما تشجعت وأبرزت له بعض الخفى من تربصاتى فى أمور الكتابة للناس .. أحلامى الجياشة فى وطن له كرامة بمثل وطن هؤلاء الانجليز وهؤلاء الأمريكان وهؤلاء الفرنسيين ! .. إحساسى الواثق بأن مصر - بعد حرب هتلر - تقف على شرفة تغيير هائل وجارف .. وتعال أراهنك

عزيزى وأخى الكبير على أن « فاروق » هو آخر ملك ، وأن الانجليز هم آخر استعمار ، وأن هش تلك الأحزاب وتلك الزعامات سوف يصبح وقودا لمرحلة تحرق كل شيء ، وإن الاقطاع سوف يرتعد من مفزع مصيره فيصرف نفسه بنفسه ، وأن رايات الأغلبيات سوف ترفرف ذات يوم عاجل وقريب على ساريات هذا البلد الذى هذا هو منظره فقد نفد صبره وأوشك أن ينفجر كبته ! .

تفزعنى ضحكته الهازئة المستخفة ، ففيها مرارة إنسان بدأ مثلى ثم بعد عديد التجارب تراجع .. كمن وقعت عليه صدمة كبرى من تلك المثاليات والوطنيات ومازال فيها .. ولعلنى كنت ألاحظ تلك الصدمة الغامضة وانتشارها فى ملامح هذا الجيل كله .. عدواها فى الطباع الصحفية .. كلهم مصابون بها حتى الناشئة الجدد ، محترفون ولا شيء أكثر .. مؤجرون ولا التزام أكثر .. محترفون جدا وملتزمون جدا ، وتذاكرهم قطعوها واستراحوا ، فهم ركاب أكسبريس فاخر ومريح يأخذهم سهلا وهينا إلى محطات أهل الزهو والأنامالى .. ركاب قطار فاخر وسريع ، وممنوع أن تفتح الشباك والإرماك تراب الفقر والبؤس والهزال والمذلة والهزيمة من ثلاثة ألف قرية تبدو كأكوام الطين والقمامة حول النهر البائس .. ولقد حيرتنى تلك الصدمة وعذبنى البحث عن سبب استمرار سريانها ، فهل هى رضاع الاستعمار ، أو التربية منذ المهد فى الصحافة الشاميهودية ؟ .. أبدا ، فمنذ جيل قريب لاحت الوطنية المصرية فتية يافعة ، وانتفضت الشعبية تقتحم قلاع الصحافة والسياسة ورغم أنف أى استعمار وأى شاميهودية ، فهل يكون السبب هو انكسار النفس منذ صدمة الفشل من ثورة ١٩ ؟ .. ومن قبلها صدمة الفشل من ثورة عرابى ؟ .. ومن بعدها صدمة الفشل من ترهل حزب الأغلبية وتحوله إلى محاسيب وأنساب وأصهار وشلل قمصان زرق وسواها ؟ .

تلك الضحكة الهازئة المستخفة - كلما كشفت الستر عن ريفيتى

المتربعة - لم أكن أسمعها من صديقى الطبيب المصدوم سعيد عبده فقط ، بل كانت تواجهنى من أرجاء الأجنحة كلها .. تستوقفنى بل تكسفنى وتستخف بطموحى وأهدافى ، فأضم نفسى على نفسى فى انطواء الخجل والدهشة .. حتى « هيكل » ، وعندما كانت تتضام رؤوسنا ليأخذنا الهيمان مع طموح المستقبل فقد كان الحلم الأكبر له مثلا مثلا - لو يكون موجودا ومعه كاميرا ليأخذ اللقطة والنبأ من لحظة يقرر القدر فيها أن ينهار هرم الجيزة الأكبر - أعوذ بالله يا ساتر ! - فيكون هو أول من يحمل المانشيت والصورة لصحف كل العالم ! .. وكثيرا ما كنت أشمئز منه وأخاصمه لحركات جديدة تعلمها ويوشك أن يصبح فيها أستاذا .. حركات جديدة أو موضة جديدة اسمها « المقالب » انتشرت وراجت فى تعامل الأرجاء الصحفية ، وأخذوها على أنها مباريات أعماق رياضية ، فالسمك يأكل السمك .. ثم هذا التلفيق الذى استمرأه وأدمنه من « الفبركة الصحفية » وخداع العناوين وتمويه الأخبار وتسريب الإشاعات .. أعاتبه أحيانا ونفترق متخاصمين - ولكن نعود دائما والذراع فى الذراع يجمعنا ولع من حمية صداقة وشباب .. نعود وهمسه التراضى فى أذنى .. كن أنت ولأكن أنا .. - ودعنا لا نناقش أمورا نختلف فيها ، ومن قبلها ناقشها ومارسها من هم أعظم منا وقد أكدوا أن الصحافة احتراف حياة خاصة .. تفرغ حياة خاصة بمثل تفرغ السيرك ونجومه من حيوانات وبهلوانات !.

....

سهرة زوز ماضى ممتدة .. « اسماعيل يس » يلقى منولوجاته .. « الكحلاوى » يغنى جديد بدوياته . « كاريوكا » ترقص .. « عزيزة أمير » وزوجها « محمود ذو الفقار » .. « أنور وجدى » و « حسين رياض » و « ميمى شكيب » و « سراج منير » و « حسن فايق » .. « إلهام حسين » و « محمد أمين » و « وداد حمدى »

و « حسن إمام عمر .. » و « مصطفى وعبد الشافى القشاشى » و « ميكى ماوس » و « السيد شوشة » و « ليزولين » .. « زينب صدقى » و « أحمد بدرخان » و « روحية خالد » .. « سعاد مكاوى » و « عباس كامل » و « إبراهيم ناجى » و « زوزو حمدى الحكيم » و « لولا صدقى » و « عزيز عثمان » و « بشارة واكيم » و « حسين فوزى » .. « سليمان نجيب » و « قاسم وجدى » و « حكمت فهمى » و « عبد العزيز محمود » و « فتحية أحمد » و « محمد كريم » و « صالح عبد الحى » .. سفرجيـة من « جـروبى » ، وهدايـا من « السرجـانى » ، ولفـائف من « شيكوريل » ، وباقات ورد من « على باشا إبراهيم » و « حفنى باشا محمود » و « الخواجة » « مزراحى » والخواجة « بوللى » .. ويسكى . وكونياك ، ونبيذ ، وشمبانيا ، وخراف مشوية ، ودندى محمر ، وبقلاوة ، وتفاح ، وروائح سجائر حشيش ! .

مجتمع مخملى باذخ المظاهر ، مرتفع الصوت ، هائل الصيت ، فلا نجومية فى مصر المعمورة إلا للسياسيين والصحفيين والفنانين ! .

أخفض رأسى .. أفر من حسرة التأمل ، فإن مجموعة صاخبة من أخبار اليوم الجديدة ، قد ظهرت تتمختر مختالة وكأنهم ديوك الصحافة الجدد ! .

« الحديقــة »

القاهرة ٤٤ و ٤٥

صديقتى العذبة « عزيزة » وصداقتنا سارية فى محفة من رقة وعفة وحنان ! .. واحة ظليلة فى هجير لافح .. قناة ماء سلسبيل فى متاهة جرداء .. أحكى لها عن طحن أفكارى ، وعتو قلقى ، ولظى حيرتى بل لهفتى وحرقتى وراء مظاهرة الضجيج من ظهور أخبار اليوم ! .

هذا الإعداد النشيط المسرف لمائدة « صحافة مصرية » لاطعم فيها للشوام أو اليهود .. لا مقاعد فيها للشوام أو اليهود .. وفرصة لو أتيحت لى فى هذا العرض الباذخ أن أرفع هذا القناع الذى يكبلنى من « مى الصغيرة » ، بل إنها الفرصة لهم يا رباه ، فأين مقاعد الفلاحين ، بل كيف جودة الطعم المصرى بلا فلاحين ؟ .

واضح أنها سفرة عصرية أنيقة ، ولها أتيكيت الشوكة والملعقة والسكين ، وبريق الفراك والسموكن والبوبيون ، والمعازيم هم أهل الصفوة والصقل واللمعان من صالونات القاهرة والاسكندرية فقط ! .

كيف غفلوا عن مقاعد الأغلبية وهم يقولون أنهم من جذور نبتها ؟ . هل هو اجتذاب البداية من سطوة الاحتكار الارستقراطى فقط وبعدها يشمرون الأكتاف ؟ .. هل هى لفافة الأعداد الأولى فقط

وبعدها يفضون الحوائج الشعبية ؟ .. يا دهشتى فماذا يكون القصد من هذا الظهور الطبقى حتى بيننا نحن بسيط المصريين ! .

....

أحكى لعزيزة والجلسة لنا على ضفاف النيل من شاطئ « روض الفرج » وقد علا صوتى دون أن أدرى صاخبا ومحتجا بل اغرورقت معه عيونى ! .. تميل بكل الرقة والدعة والحنان وتغلق بيدها على فمى وفى عينيها عتب علىّ طفولة شبابى ، فأى فرصة تلك التى سوف تضيع - وقارب مى الصغيرة - والحبل فى يدك يمخر بك العباب فى فسيح قادم الفرص ؟ .. ظهور أخبار اليوم هو بداية الشرخ من تهشم سور اللا مصرية ، وأنتظر بعدها عبور عديد القوافل ! .. ثم أنت مازلت فى مقتبل العمر فأى فرصة لك تتوقع أن يصنعها سواك ؟ .. فرصتك بيدك أنت ، وهى أن تظل تنمى من مواهبك ومما منحه لك الله وتستمر بالثقة فى نفسك - وقل يا صاحبى البرىء الطيب فأنت لست من هذا الرعيل - وتذكر ما تردده دائما أمامى من أنك ابن أغلبيات نائمة لم يوقظها أحد بعد .. كن أنت من يوقظ فيهم .. هكذا دع قاربك يأخذ المسيرة بين خلجانهم ، وتماسك واصمد ومهما كانت الأنواء فسوف ترسو ذات يوم على الشاطئ المنشود ! .

« عزيزة » وأشعر أحيانا أن فى خصوبتها « الأم » المصرية الصبور العريقة « الملهمة » وعمرها من عمر هذا النهر ! .

هدأت .. تماسكت .. ظهر - عدد أخبار اليوم الأول ، - وكان حافلا محشودا مبهرا ، وله بذخ الشكل من « باشا فخم ومثير » خلع بدلة التشريفة بنياشينها البراقة ، ودخل فى ثياب « المصرى أفندى » البسيطة الفقيرة بسبحته المدلاة ذات الشراشيب ! .

....

أدرت ظهرى وعدت أفرك يدى على حديقتى الصغيرة فى مجلة

الساعة ١٢ ! . انسحبت من مرحلة القلق والحرمان حول كبير الحدائق ! .. ثبت قناع مى الصغيرة فوق عنقى ، وعزمى أن أكمل له المشوار فى حمية أشد ، ولهفتى أن أسترد ما تخيلته قد ضاع وتطاير من ضعف إرادتى على طول تلك الأسابيع التى شردت فيها وفكرت أن أفض القناع ! .

الحمية والعزم دائما أجدهما فى يسر وسهولة كلما جلست وأمسكت قلمى لأكتب ! .. « قلمى » هذا العجيب المحير ، ومهما حاولت تفهمه فهو جديد وماكر وغير تقليدى .. ابن من ؟ ! .. أبدا فلا يعطينى أسراره . فهو فى كل نشوة يفاجئنى بالخبايا مما يدخر ! .. والنشوة له لا سواها أن يمتشق حريته وانطلاقه وسيادته وكبرياءه .. ويا فزع ما أحس دائما - فهذا أنا أصارح نفسى - بأننا مختلفان بل بعيدان .. بل أنا غير لائق له وغير قادر عليه .. بل يا جنونى أحيانا حينما أتسلل بنظراتى عليه وهو يجرى على ورقة الكتابة ، وكأنما يد أخرى غير يدى هى التى تحركه وتدفعه .. روح أخرى تتقمصه ، وما أنا لها إلا الأصبع التى تضغط له الأزرار ! .

عدت إلى حديقتى الصغيرة - تغمرنى النشوة من حماس تجويد الزرعة فى كل ما أكتب على صفحات الساعة ١٢ .. أحاول مزروعات جديدة ألذ طعما .. فاكهة جديدة أشهى مذاقا .. مغرية ، وشهية ، ورخيصة ، لمن يتصادف ويتوقف عند حقلها .. ظهور أخبار اليوم يسرى بالانتعاش والصحصحة فى أرجاء الخمود الصحفى . يدفع بالتنافس المتأجج الساخن إلى الشوارع والميادين . والتنافس دائما إذا أطلق له العنان فلن تقدر أن تكبح جماحه ففيه سر التطور .. هكذا لاح عصر الجرأة الصحفية .. بصيص خفيف متردد منه يطل من ثنايا جرؤات أخبار اليوم وقد اقتبسته منهم ، وجعلته وهجا بل فنارا أستدير به من أسطح حديقتى الغارقة فى الظلمة والانكماش ! .

فى القصة القصيرة ، فقد أصبحت « مى الصغيرة » جرس مدرسة

جديدة – يدق وينادى على مواهب الناشئين ، ويغرى بسهولة قفز السور ومجانية الالتحاق . فقط والتساؤل فأين له البوابة والمبنى ؟ .. وفى النقد و« السياسة » والمجتمع « فهى صفارات إنذار تتلاحق من شارع محمد باشا سعيد ، وتدوى وتنذر وتثير الرعب ، عن زحف الأغلبيات ودبيبها المسموع فى الطريق . فقط والتساؤل من يسمعها من دفنة هذا البدروم ؟! .

تحولت الساعة ١٢ إلى نسخة أسبوعية من مشهيات مى الصغيرة وبرامج منوعاتها .. تضخم بريدها واستفحل إلى درجة الدعابة منها كما نشرت فى برج بابل ، فهى تطالب مصلحة البريد بحصة من مبيعات الطوابع ! .. وانهمرت الرسائل من قبلى ومن بحرى .. طرقات من تنفس الحرمان والضياع . تفجر الحرمان والضياع .. أغلبيات مقهورة تفض كبت نفسها على العتبة الجريئة .. شباب حائر يلهث بأنين همومه وبائر طموحه ويحوم من حول الينبوع الناحل المتدفق .. ثم « رسائل غرام » من معجبين ، ومدلهين ومتيمين – ويا طرافة الملامح – من ريفيتى الخشنة وهى تستحى وترتبك وتحار أمام نوع هذا الانهمار .. وكل يوم غريب الأنواع من خطابات بنفسجية وفيها قلب ينزف وبه سهم مرسوم بالدم الحقيقى وزهر جففته الدموع ، وقطرات على صفحات تتندى بالعطر الفواح .. جيل الحرمان يا قلبى يتضور جوعا وتلطما ، خطابات غرامية ملتهبة ، وعروض زواج من عمال وفلاحين وتلاميذ وأفندية وبيكوات . وعجيبة تلك الخلية النشيطة من شباب « اليهود » المراهق .. من « غمرة » و« العباسية » و « الأزهر » و « شبرا » و « بولاق » و « السكاكينى » .. أنهم ألفوا جمعية اسمها « عشاق مى الصغيرة » .. وقوائمها أولاد وبنات ، مثل هذا المثابر اللحوح « سيمون جاك » و « بنوا يوسف منشة » و « شمعون يعقوب الياهو » .. ومن الفتيات أيضا « سلطانة إبراهيم داسون » ، وأختها « متاتيا ، ثم « فيكتوريا كوهين » ! .. يلهثون وراء قصص

مى الصغيرة عن « البنت ايستر » البائعة على الريون فى « شيكوريل » أو « الحلوة مارسيل » بائعة تذاكر « سينما تريومف » .. أو « ليزا » بنت مدام كارل صاحبة البنسيون بعمارة عدس ! .. أفردت بابا فى صفحات المجلة عنوانه « القراء الطيبون » ، تحول من ركن فى صفحة ، إلى صفحة كاملة ، إلى ثلاث وأربع صفحات .. وبهذا الباب فى تلك المجلة الصغيرة ، بدأ التكريم الشعبى والانحناء للقارئ .. فقد كانت التقاليد للصحافة ، فالرسالة إذا لم تكن هامة جدا ففورا إلى سلة المهملات ! .

تكاثرت علاقاتى وصداقاتى فى الأرجاء الصحفية ! .. « إحسان عبد القدوس » أصبح صديقى الحميم وتساؤله الدائم المتلهف عن جديد القصص عن « مى الصغيرة » وشوقه الذى يصارحنى به أن يقدر فيكتب القصص ذات يوم بمثل ما يقرؤها وتلهبه فى الساعة ١٢ ! .

« صلاح عبد الجيد » - طيب القلب ، رغم أى شىء ، يستعيدنى دائما كلما بعدت أو نفرت منه .. يجذبنى إلى أركان فى الكواليس ، سفلية وغريبة من قيعان القاهرة الفنية والصحفية .. جلسات تدخين الحشيش ، وموائد القمار ، ودوائر النميمة ، والهجص والهذر ، والمقالب .. أتفرج ولا معارضة ، فما جدوى المعارضة ؟ أتزود لنفسى شخوصا ومدادا .. أما العدوى منها فلا . عندى لها دروع تحمينى من كرامة وكبرياء واختلاف ! أخذت أتردد على « نادى الصحفيين » فى شارع قصر النيل بصحبة « مأمون ورخا » .. أرافقهما وهما يلعبان الشطرنج ، وعينى تملأ نفسها من الجالسين الكبار على بقية الموائد .. علاقاتى كثرت . وانتشرت أيضا بشباب « الوفد » يتردد دائما على الساعة ١٢ .. « ياسين سراج الدين » و « اسماعيل عبد المولى » ثم « حمدى ثابت » و« عبد اللطيف أبو النصر » و « رشاد رمزى » -

وهؤلاء الثلاثة يشتغلون فى الرقابة الصحفية .. وتزلفى الدائم بل توسلى لهم أن يخففوا الوطء من الشطب والحذف عن كتابات « مى الصغيرة » ؟ .. أما « اسماعيل عبد المولى » فهو شاب صعيدى صاخب متأجج يحمل لقب زعيم اتحاد الطلبة الوفدى بجامعة فؤاد الأول ! .. أما « ياسين » فهو ولى العهد الزاحف وراء شقيقه الأفخم المثير اللامع فؤاد باشا سراج الدين ! .

« ياسين » و « اسماعيل » وبقية الصحاب ، حاولوا أن يأخذونى إلى المراتع الوفدية ، وتعال يا أخى وقابل فؤاد باشا ثم خذ منحة القبلة من يد النحاس باشا فماذا ينقصك أيها الشعبى لتكون وفديا مرموقا ؟ .. ولقد رفضت دائما .. تهربت دائما .. فمنذ انقشع سحر الزعامة من وفاة سعد زغلول ، ووفديتى الغريزية قد تسربت وتبخرت وتحولت إلى وطنية يتيمة راقدة فى الجوانح ! .. علاقاتى وتنقلاتى انتشرت وكثرت فى أرجاء البلاط من صاحبة الجلالة الصحافة - وإن بقيت تتحدد وتتركز فى مجموعاتنا الرباعية الفريدة ، « سعيد عبده » و « هيكل » و « رمسيس » و « أنا » .. بل فى أغلب الأحيان هيكل وأنا فقط ! .. يعجبنى طموحه .. يأخذ بلبى ، بل يفتننى وكأنه يهيم فى عوالم ساحرة سوف يأخذنى إليها معه ذات يوم قريب .. أنا وهو نجوب الشوارع .. نتسكع أو نحلم أو نتشاجر أو نتصافى ، يقرأ لى ما يكتبه أصحح له الأسلوب والتعبير .. يشجعنى أن أصحح له ، فقد كان واضح الافتتان بأسلوب مى الصغيرة ، ومهما تدارى ، فقد سرت فيه العدوى مثل كثيرين سواه ! .

« آخر ساعة » فى عمارة بحرى ويدير تحريرها صديقى المتمرس « سعيد عبده » ، ويساعده فى السكرتارية « هيكل » ، ومعهما طقم المحررين والكبار والصغار طبعا ، ويافطة النيون الخلابة تطل على ميدان الاسماعيلية الفسيح ، واللقاء لنا يوميا .. وأنا أرفض دائما أن

أصعد إليها فى شقة المجلة .. أرهب أن أصعد إليها وعقدتى الطفولية المذعورة منذ ذاك اليوم البعيد الحارق ، وأنا أحوم حولها مترددا منهارا ، وفى جيبى رسالة ذليلة للتابعى أفشى له السر عن « مى الصغيرة » وأستعطفه أن يلحقنى بآخر ساعة ! .. عقدة مضحكة طبعا ، فقد مزقت الخطاب يومها بعد ظهور « حازم فودة » ولكنى أبدا لم أمزق قشعريرة الذكريات من ذاك النهار ! .. كان انتظارى لها دائما أما فى « ايسافيتش » ، أو فى « أسترا » ، أو واقفا أحملق فى الميدان القاهرى الكبير الذى يطل على قشلاق قصر النيل .

آخر ساعة ورغم ظهور أخبار اليوم وسفر التابعى الدائم ووتيرة تحريرها الذى لا يتجدد .. رغم هذا مازالت هى الأم والصدارة والقيمة فى الصحافة الأسبوعية .. يكفى مقال التابعى السياسى بقذائف تعابيره وخفايا أسراره . ثم تلك الحلقات القصصية الرائجة التى يرسلها من مراقده الملكية بعنوان « بعض من عرفت » وفيها ما يلهب الخيال من مغامرات وغراميات ونفائس تعابير .

ولكن أخبار اليوم أخذت تمتص الكثير من جاذبية التابعى الصحفية .. الاثارة والشطارة ، والنجومية ، والفهلوة ، والتقليب السهل فى كواليس السياسة وغير السياسة .. امتصت الجاذبية ، ولكنها لم تمتص الرسوخ والقدم والعراقة من آخر ساعة .. ظل التابعى يديرها بطريقة « لاسلكى ماركونى » .. من عواصم يتمختر فيها فى معية الملوك والباشوات والأميرات والاغوات ، والتعليمات المشددة والمخيفة له – وحتى يعود أن لا تغيير ولا شطط من تقليعات صحفية .. هكذا صديقى المصدوم الغامض سعيد عبده يتثاءب فى روتينية تحريرها وإدارتها ، بينما عزيزى الصغير المتأجج « هيكل » يحاول بقامته القصيرة أن يجد الفرصة ليطل من أبراج قلعتها .

....

صديقى « ميجور كول » تتواصل علاقته مع مارى .. ودهشتى عن هذا الادمان العاطفى الذى يستولد الدود فى النفس فى أى نفس ، فيفتك بالعقل والادراك فيها ، بل يلغى مستوى الحضارة والثقافة منها .

تسلطت عليه « فتاة الفجالة » الأمية الهوجاء .. ركبته تماما وكأنه لعبة حصان خشبى فى يد طفل عابث . يغير لغيرتها ، ويحنق لغضبتها ويخفض رأسه ذليلا مستسلما أمام شطط نزقها .. تسلطت عليه تماما ، فقد نقلها بكل أسرتها من الحارة المسدودة فى شارع حبيب شلبى ، إلى شقة واسعة بالانتيكاخانة فى عمارة جديدة ، بها تليفون ، وفريجيدير ، وكل مباهج الأثرياء .. أغرقها هى وأهلها بالمال والهدايا .. حجزها عن العمل فى قشلاق قصر النيل ، فإنها أصبحت خطيبته ، وإن لم يوثق ذلك رسميا بعد فى انتظار موافقات متعددة يجب أن يحصل عليها .. حجزها عن العمل ، بل حجز هو نفسه عن أى انشغال إلا مارى وأهلها ، والشقة وأحوالها ومصاريفها .. أصبح حائرا عصبيا متوترا يتحاشانى ويتحاشى نظراتى إليه ، بل بت أنا الذى أتحاشاه وأحذر من غيرته الرعناء أن ترتطم بى ! .. تلك الشقة فى الانتيكاخانة - ولم أذهب إليها إلا مرة واحدة فقط ، ولمدة خمس دقائق خاطفة فى عيد ميلاد الصغيرة « روز » شقيقة الخطيبة .. وقد اعتذرت يومها متعجلا بدعوى أصدقاء فى انتظارى وقوفا فى الشارع .. خمس دقائق فقط ، انصرفت بعدها عندما لاحظت مارى تسكر ، وتتنمر أن تبدأ فتتحدى وتتباهى ، ومن حولها أسرتها والمنظر الباذخ لهم كمن ابنتهم قد تزوجت ملكا ! .

وذات يوم بعدها بأسابيع - تأبط « كول » ذراعى فى مودة وأنا منصرف معه من بوابة قصر النيل - وكان يبدو مهموما ومختنقا .. وسألنى وأنفاسه تزفر إذا كنت أقبل أن أسهر معه الليلة ؟ .. وقبل أن أرد سارع يقول : - وحدنا بلا مارى ، فإنها سافرت مع أمها إلى الاسكندرية !

....

وعلى مائدة منزوية وبعيدة فى « الميناهاوس » - تحت سفح الهرم - وبعد أن جرع عدة كؤوس ويسكى ثقيلة بلا ثلج ولا ماء - بدأ يهذى بكلام صاخب وغريب عن باهظ الثروات والأموال التى تضيع هدرا فى سفاهة تلك الحرب ! . تلك الأموال والثروات التى تبددها قنبلة واحدة وتلك البضائع والمعدات والأحمال الغالية التى تغرقها غواصة صغيرة . وكل جنون الانفاق هذا على دخان يتبخر فى هواء ، وبارود يذوب فى البحر أو فى البر أو فى الجو ! .. معسكر « جنيفة » الذى كنا فيه ، فهل تعلم مثلا أن غارة ألمانية قد دمرته تماما منذ أيام .. مسحت منه حتى المعالم والجدران ولم تبق إلا الشظايا والركام ، فهل هذا معقول ؟

ثم ازداد هذيانه فراح يدق على المائدة بقبضة يده وهو يقول ويحلف أنه وبحق يسوع المسيح ، بات حلال أن يسرق لصوصكم من المخازن المشحونة بكل غال وثمين بدل أن يفنيها دمار تلك المعارك ..

نعم أنا لا أسميهم اللصوص ، بل الشجعان والعقلاء وأنا احبذهم وأتضامن معهم بل أتمنى لو أشجعهم ! .. ثم .. ثم ألقى ورقته الأخيرة والتى من أجلها رتب هذا اللقاء .

صديقى ميجور كول - يصارحنى بغتة عن عملية قد رتب لها وخططها وقرر تنفيذها ، لنقل شحنة لورى من صفقة صناديق معدات وقطع غيار ثمينة ، من المخزن الهام الذى أشرف على محتوياته ، وسوف تصلنى استمارة الصرف منه ، وما على إلا أن آمر بشحن اللورى ، وعندما ينتهى ويخرج من البوابة ، فكل المطلوب منى هو ألا أدرج تلك الاستمارة فى الدفاتر ، بل أعيدها له ليمزقها وينتهى الامر بسهولة !!

أنا أنصت له ذاهلا وقد تلجم لسانى وانحبست أنفاسى ، وهو مستمر فى عرض خطته ، وفى حماس وحيوية أفاق لها من سكرته . فالشاري موجود والتلميحات أفهمها - فهو من طرف مارى ، ومن أجل هذا سافرت إلى الاسكندرية ، والصفقة سوف تعود علينا

بـ « ١٥ ألف جنيه » سوف يكون نصيبى منها « ألف جنيه » والباقى له ولمارى طبعا !

أفض صمتى وذهولى فأنطق ، بماذا يا إلهى أنطق ؟ .. وياللدهشة .. ياللهول عزيزى الميجور هاريسون كول .. صديقى الأخلاقى العريق الشريف ابن اللوردات والأسياد . قف . قف جدا . فأنت تشن غارة فجائية ورهيبة على قلاع فى نفسى أحتوى فيها لك الصداقة والنبل والاحترام .. قف .. قف جدا .. فقد أخطأت النظرة والاختيار فلست لصا وأبدا لن أكون !

أمسكت يده ونظراتى عليه استهوال وعدم تصديق ، ثم حيرة وعطف وإشفاق .. سألته هل تلك أول مرة يفكر فيها فى هذا الأمر أم سبقتها مرات ؟!

صدم من ردى وشحب وجهه ، وتقلصت خلجاته ، ثم لاك لسانه الملتوى وهو يرد متخاذلا ومصارحا بأنها أول مرة ولكن .. استوقفته عن ولكن تلك فهنا الفخ لك ولمستقبلك ولمصيرك حتى ولو أمام نفسك .

عزيزى كول ، وقريبا سوف تنتهى الحرب وتعود إلى الحياة بين أهلك ، وتعود للتدريس على طلبتك ، فبأى ثوب لهم سوف تعود ؟

هل بثياب اللص أم ماذا ؟

صارحنى وهو يوشك أن يبكى بأنه لم يعد يهتم .. إنه لايصدق رفضى السهل هذا وهو يستعيدنى فيه . فهى حقا أول مرة ولكن تصميمه ألا تكون آخر مرة ! .. وعندما لمح الاصرار والصرامة على وجهى ، بدأ يبكى فعلا ، وصارحنى بأنه مأزوم جدا وفى ضائقة مالية طاحنة لم يعد يتحملها .. مرتبه الشهرى كبير نعم ، ولكنه لم يعد يكفى أسبوعا واحدا .. ومنذ أشهر وهو يستقطع سلفيات ويستدين من زملائه ! . ثم أسرته بصراحة لوردات نعم ، ولكن والبقايا معدمة ، ولاثروة له ولا

أملاك من قصر قديم وآخر الأنباء عنه أن قنابل هتلر قد دمرته ولم تبق منه الا الاطلال .

عزيزى كول .. لا .. لن أفعلها .. ولابمليون جنيه .. قل ماشئت فلن يخطر على بالى ولا للحظة أن أفكر فى أمر مثل هذا - وحتى لو كانت فلوس إبليس فلن أفعلها . قمت .. انصرفت .. تركته يتخبط فى الدهشة والذهول !

« الشـــارع »

القاهرة ٤٤ - ٤٥ :

عدت تلك الليلة لأحملق فى سقف غرفة بنسيون كتج فيليب بالفجالة ، وأستعيد المنظر الذى مازال يلهب أفكارى !

المائدة المنزوية تحت الشجر الغليظ فى حديقة الميناهاوس الرملية وعليها زجاجة ويسكى ومزات ، وأمامى إنسان انجليزى يعب منها ويتطوح ! . صديقى « الميجور هاريسون كول » واعجابه الانسانى المتحمس بلصوص المعسكرات عندنا ويريد مثلهم أن يجرب ! .. لديه خطة سرقة سهلة بسيطة ويعرضها على ! .. صفقة الـ ١٥ الف جنيه ولى منها الألف ! .. يريد أن يجرب ويشركنى معه ؟! . أستعيد المنظر ونظراته المنهزمة الحانقة نحوى عندما أبيت ورفضت . انكماشه الذليل الذاهل أمام شكلى الممتعض المترفع .. نصحى له بل زجرى ألا يفعل ، فإنها سقطة أولى وبعدها تكثر السقطات .. ولكن - هل يمكن أن يكون قد اقتنع وتراجع ؟ .. لا أظن .. إنه فتيل وقد اشتعل وأنا معه الآن فى دائرة خطر !

....

أحملق فى سقف الغرفة والباب مغلق بالمفتاح - فياشدة ما أحس باليتم والوحدة فى شوارع القاهرة الصاخبة ، أما هنا فدائما عندما

أغلق الغرفة فرصتى ومعبدى ونجواى واعترافى واستقبال رعاياى ! . أحملق الليلة فى سقف الغرفة ضجرا محتجا على هذا الأمر الطارئ التافه الذى يعيق نشوتى عن فرص الفكر والتحليق والكتابة .. ولكن الامر حاسم ويجب أن أتخذ فيه القرار .. صحبة العمل مع الميجور كول لم تعد تنفع بل يجب النجاة فورا من خطرها الواقف !

مشكلة طبعا بعد أن تحديت ورفضت .. تفكيرى ومهما غاص فى دوامات البحث عن الحلول . فأسهلها على خاطرى الآن أن أترك وظيفة قشلاق قصر النيل هذه ، بل حان أن أحسم المرحلة فأترك وظائف جيش الحرب الانجليزى كلها ! .. مرتب الـ ٣٠ جنيها ثروة شهرية نعم ، ولن أجد مثلها ولا حتى ربعها فى أى مكان - فأين الوظائف فى هذا البلد المملق ، والعاطلون يملأون المقاهى ويزفرون فى الشوارع .. وماذا بوسعى أن أصنع إذا انقطع هذا الايراد فجأة وليس عندى أى مدخر ؟ . وكيف أجارى صداقاتى التى تكاثرت فى الشارع الصحفى - وبعض جاذبيتى أحيانا - هى أن يدى مسرعة دائما إلى جيبى كلما تطلب الأمر صرفا أو عونا ؟ . أسئلة متلبكة عويصة طرحتها على نفسى كثيرا من قبل ، ودائما كنت أتسلل هاربا منها فى صبيانية دلوعة لامبالية ، فمسئوليتى أن أفكر وأكتب فقط ، أما أن أعيش فتلك مسئولية من خلقنى فى هذا العالم الغامض الصاخب المتلاطم !

....

هكذا أسئلة كثيرة لن أستغرق فيها إذا ماقررت أن أحسم الأمر ، وهذا أنا ولا مفر لى من الحسم .. لقد بات يرهق عقلى ومشاعرى منظرى الخابى المتسلل وأنا داخل أو خارج من بواب جيش الحرب الانجليزى فى قصر النيل .. العمل برىء وشريف ولامؤاخذة فيه ولا شبهة . فهو مجرد وظائف بسيطة خلفية تسند حربا مشنونة وبعيدة ..

وهناك مثلى الآلاف من الشبان المصريين وغير المصريين يملأون إدارات المكاتب والمخازن . وهم مجرد تروس فى آلة هادرة تهرس بعيدا عن أراضيهم .. ولكن .. مهما كان الشكل فأنا أشتغل مع الانجليز ورغم أية ورقة معاهدة تحالف ووثيقة استقلال فهم فى رشقة العين والمشاعر لمرهف المشاعر الوطنية مثلى .. مناظر بغيضة من اعداء ومستعمرين !

حقا مسحت الحرب تأجج العداوة أوقفت الصراع ، فأصبحنا لهم حلفاء ومساندين ، بل ومشفقين أحيانا على مايهدر من نزيف دماء الملايين من أبنائهم فى الميادين .. بتنا لهم أهم محطة تموين .. أصبحنا لأولادهم المحاربين فى عراء الصحراء وريد حياة .. بل ربما نحن من خلفهم الآن فى حماية من أن تباد القاهرة الغالية العريقة فى سعرة تلك الحرب مثل ماأبيدت مدنهم لندن وبرلين ! .. كل الحياة المصرية - أفلام وفن وصحافة وسياسة وطباع شارع تهرول منجدة ومأمورة تلبى مطالبهم .. فلوس الحرب وسيولتها المتدفقة على قحط الشرق الأوسط - وهنا ينبوع الصرف من القاهرة .. لاليست القاهرة هى التى تصرف من لحمها فماذا لديها تلك البائسة غير الشظف والاملاق ، ولكن هم الذين يصرفون على أنفسهم ونحن من حولهم نلتقط وافر الفتات ! نعم فلوس جيش الحرب الانجليزى ردت الرمق إلى مصر التى كان يسفح فيها الفقر والقهر والانهاك .. ردت الروح لطوابير ملايين الفقراء والمعدمين الذين التحقوا عمالا بالمعسكرات .. وبعد الجوع والعراء والحفاء ، هاهم يتناولون أجورا ويجدون مسكنا وثيابا وطعاما .. ولأول مرة يعرفون شكل الجنيه فى اليد . واللحم فى الطبق ، والمخدة تحت الرأس والبطانية فوق البدن ، مصر كلها تشتغل لحساب جيش الحرب الانجليزى ، من أول الملك فاروق الذى يتاجر فى التوريد لهم ، ويعزم صفوتهم فى صالونات وخمائل قصر عابدين .. إلى النحاس باشا الذى يظهر معهم واسع الابتسامة وذراعه فى أذرع

زوجاتهم .. إلى « العقاد » وأيضا « طه حسين » وبقية أرباب الفكر المصرى وأقلامهم مسلطة ضد الفاشستى موسولينى والنازيست هتلر دفاعا عن ديمقراطية الانجليز والحلفاء .. إلى بقية البلد فى أى بقعة فى البر والبحر .. فى الريف والمدن .. وفى أى مكان تراه العين قبلى وبحرى تجد الانجليز والعمل مع الانجليزى وكل الفلوس مع الانجليز ! .. طلائع أثرياء الحرب بالمئات بل بالآلاف .. باعة الخيش . وتجار الخردة والتبن والعلف والقمامة يتبوأون مقاعد الأثرياء ويضعون الساق عل الساق وبعد القبقاب فالحذاء شمواه والخواتم تملأ الاصابع ، والركوبة بعد البغلة والحمار هى البويك والبكار !

التليفونات والمواصلات والسكك الحديد وكل المرافق وراء جيش الحرب الانجليزى .. الصحف أيضا ومبنى « دار الهلال » الجديد الفاخر هذا ، والاعتراف الصريح لنا فقد بناه الانجليز لأولاد زيدان من أجل تلبية المطلوب من مطبوعاتهم ومنشوراتهم .. « الأهرام » لها لقمة الكواليس الضخمة ، « والمقطم » عميل صريح ورائج ، و « المصرى » وكل صحف الوفد تماشى وتجارى وتؤيد وتأكل على مائدة الحلفاء طبعا .. وحتى الجديدة أخبار اليوم فقد دخلت حلبة الدعاية بفروسية أقلامها من مانشيتات وغريب حكايات ومثيرات .. والقارئ لايسأل ولايتوقف ، فعينه مفتوحة مجانا وفى شهية أكبر على قراءات شغوفة وصريحة ومدهشة من ملمس مليون مجند أوروبى وأمريكى هاهم فى شوارعه وعقر داره !

....

نعم ، ورغم كل هذا التجييش العام فقد بات المنظر يرهقنى ويذلنى وأنا داخل أو خارج من بوابة جيش قصر النيل .. كأننى أحمل رائحة نجسة للعابرين فى الطريق !

حقا ومنذ أول مرة التحقت فيها بمعسكر « جنيفة » فى أرض

القنال ، أمسكنى الفزع الوهم بأننى خدشت بل لطخت ثوبى الوطنى الناصع إذ أضم نفسى إليهم ولو كموظف صغير مهمته أن يرتب الورق أو يسجل الأرقام أو يضغط على الآلات الكاتبة ! .. خيّل إلى أنها سوف تبقى وإلى الأبد وصمة فى تاريخ حياتى .. عار وسوف يلاحقنى ويلتصق بى أنا الوطنى المرهف المتأجج المتباهى بعراقة وكرامة منبته .. أجل قضيت فى البداية أياما حارقة طاحنة وأنا أعقد المحكمة لنفسى فى القفص من خيمة جنيفا تلك .. ولكن - رويدا رويدا خف اللظى عندما بدأت أتحسس الاختلاط الطبيعى مع مفاجأة تلك البيئة واغراء هذا المجتمع .. حضاريون ومصقلون ومثقفون ومتفرقون ومهما كانت همجية الحرب التى يتلاطمون فيها .. العدل والنظام والمساواة وكرامة الإنسان هم قبل الحرب فى أول القائمة من الخدمة والتعامل .. بدأت الاقتباس منهم بان أعاملهم بمثل مايعاملون أنفسهم ، بل حاولت فى حمية الغيرة من تألق طباعهم أن أبرز لهم دفين الراقى والعريق من كنوز الاخلاقيات الريفية المصرية فينا إذا عاملتها ندا بند .. رويدا رويدا أتانى الاقناع بل الالهام إنها فرصة القدر لى أن أنضم إلى تلك البيئة فألتحق بهذا المجتمع فيعوضنى عن قطع دراستى الثانوية .. نعم أخذتها منحة تعليم مجانية وسخية لأكمل مارفض الفقر والقهر أن أكمله .. تحولت إلى تلميذ نشيط ومجتهد وجد نفسه فجأة مقيدا فى أكاديمية هؤلاء الناس .. حضارة هؤلاء الناس ! .. حضارة وقد جعلتها الحرب الضارية تتعرى عن قشورها فهى واقعية بلا زيف أو خداع .. فرصة الاندماج فى حياة هؤلاء الناس .. توغلى المستكشف فى أرجائهم .. تواصل النظر من ثقوب الابواب على حياتهم الخاصة ورفاهية ماهم فيه من وزن وكرامة .. منحة حضارية وسياحية وثقافية وعمق تأمل وتقليب وجدان - أتانى كل هذا اغداقا سهلا ! .. نعم أحس أن تلك الاعوام الثلاثة قد عوضتنى عن قطع الدراسة وأننى تنقلت معها بين مدرجات الكمبردج والاكسفورد . وخطبت وصحت فى

الهايدبارك ، وتنزهت فى الويست اند والبكاديللى ، وحضرت الحفلات مع اللوردات فى قصر باكنجهام ، وعشت وثبا ومرحا فى الخلايا اتغذى من دسم هذا المجتمع الذى يقول العالم أنه الشبع الحضارى والقمة التى لاتغرب عنها الشمس !

أحس أن تلك السنوات الثلاث قد قفزت وصعدت بى إلى شهادات من بكالوريوسات كثيرة وليسانسات كثيرة - اعظم بكثير من تلك التى مازال زملائى فى الثانوية يتخبطون فيها على عتبة شهادة البكالوريا ! . وأبدا أبدا لم أرتعب على نفسى أن تصيبنى العدوى من أوبئة طباعهم .. حضارتهم الاستعمارية دست فيه العنصرية والغطرسة والمادية والاستعلاء .. ثم هذا الاغراق التعيس فى الخمر والشذوذ والغرور .. أبدا لن تمسنى العدوى فمصريتى لهم متربصة وجلدها أصيل وسميك وأبدا لاينفذ منه إلا مايروى عطشى للثقافة والحضارة والمعرفة ! .. نعم نعم وبهذا الأخذ والاقناع صمدت وصعدت فهذا هو العام الثالث لى فى أكاديميتهم - وبوسعى الآن أن أبزهم وأتفوق - فماذا يكون هذا المشهد الذى جرى الليلة منى امام ابن اللوردات الفاخر إلا أصالة وحضارة أقوى وأرقى وأشمخ !

هكذا تشبعت واكتفيت من أكاديمية السنوات الثلاث تلك .. ولعلنى من شدة الشبع والامتلاء فأنا قادر الآن وبلغتى العربية السهلة ، أن أكتب القصة القصيرة الانجليزية والامريكية والفرنسية . لقد نشرت فى الساعة ١٢ منذ أسابيع قصة عنوانها « الشقراء فى اجازة » تدور كلها فى شوارع وحوارى وبيوت لندن ! .. بل قبلها أيضا قلدت قصة بقلم وأسلوب كاتبهم الاشهر « برنارد شو » تدور وقائعها فى أحياء الايست آند الانجليزى ، وكل من سمعها منهم اندهش وراجعنى ولم يصدق ! تشبعت واكتفيت بل بت أضجر من حماقاتهم ونزواتهم ، فلم يعد يلصقنى بهم إلا تلك الـ ٣٠ جنيها شهريا .. وحتى تلك النقود كنت

أتناولها وكأنها لاتخصنى ، بل هى التكلفة المرصودة لمشوار مى الصغيرة وتنقلاتها وطرقاتها الحارقة على أبواب اللهفة للمستقبل .. نعم كنت أؤكد لنفسى دائما وأعودها على أن هذا المرتب سوف ينقطع فى أى لحظة . وكل يوم أصحو وعلىّ أن أواجه الأمر الواقع ولكن الأمر الواقع - ياحيرتى وقلقى - هو أننى يجب أن أصرف وأعيش وإلا مت جوعا وجفافا فى هذه المدينة الانانية ذات القلب الحجر !

....

وفى الصباح .. ولم يكن « كول » قد حضر إلى مكتبه بعد - توقفت عند « سيرجنت ميديث » وارهاق الأرق يبدو على وجهى بالشحوب والاصفرار .. وضعت ورقة الاستقالة تحت يدها بلا كلام .. قرأتها فى دهشة ثم أقطبت وتجهمت وتفرست فى منظرى فما السبب ؟ .. قلت لها وأنا أحاول أن أبدو متماسكا بأننى فى طريقى للتفرغ للصحافة ، وما كان عملى هنا أو هناك إلا مرحلة تمهيد مؤقتة ! .. راجعتنى فى اهتمام ولكنى صمدت أمامها مصمما فهزت رأسها مستسلمة وضمتها إلى الأوراق حتى يحضر كول !

لم يحضر كول فقد أبلغ أنه مريض ، وقالت لى أنها سوف تستبقى الاستقالة حتى يعود .. ثم قامت تمشى معى فى تودد ، وصممت أن أتناول الغذاء على حسابها فى « الميس » !

« ميديث » فتاة طيبة وذكية - واحساسى منذ عرفتها رغم نزوات شبابها - أنها تحب رئيسها كول فى صمت وتكتم .. وقد استدرجتنى الى الحديث عنه وهى تشركنى فى أساها عن هذا الاحتراق الذى هو فيه .. الاضطراب الذى هو فيه - وهل كل هذا بسبب هذه الفتاة مارى ؟ . حسنا فالقيادة غير موافقة على هذا الزواج الاحمق فلماذا لايحسم الأمر ؟

استدرجتنى « ميديث » فضعفت إرادتى وحكيت لها بصراحة عما

حدث امس .. الطيش الخطير الذى وصل إليه عزيزنا كول ! .. وقد أنصتت مروعة ومفزوعة وشاردة ، ثم عندما وصلت الى مشهد الرفض ونصحي له ، عرتها الدهشة وتخضب وجهها بخجل المقارنة ! .. عادت تحاول أن تراجعنى فى أمر تلك الاستقالة ، ولكننى توسلت إليها أن تكف عن ذلك .. إنه قرار حاسم فى حياتى فأرجو ألا تثبطى من عزيمتى فيه ! .. قالت - حسنا سوف أعرضها ولكن القانون أن تنذر قبلها بخمسة عشر يوما ! .. صدمت وارتبكت فقد كانت لهفتى أن أخرج اليوم حرا منطلقا من بوابة قصر النيل تلك - ولاحظت صدمتى وحيرتى فصعبت عليها ، وقدمت لى الحل على شكل ورقة طلب بإجازة مرضية .. وعندما وقعتها قالت إنها سوف تتصرف فى توقيع الطبيب الذى هو صديقها ، ثم أكدت أنها سوف توالى الاتصال بى تليفونيا عند مدام موريس !

خرجت يومها والذى حدث - وقبل أن ينقضى الاسبوع الذى انزويت فيه تماما - كلمتنى « ميديث » تبلغنى أن أحضر غدا فالأمر هام !

وعندما ذهبت .. فوجئت بالخبر الهائل والخطير عن سفر ميجور كول الفجائى .. لقد صدر أمر نقله إلى « سنغافورة » وطارت به الطائرة أمس ولا عودة له بعد هذا إلى مصر ! .. وعندما تلاقت عيناى بميديث كانت عيناها مغرورقتين بالدموع وهى تسلمنى رسالة تركها كول وفيها يقول إنها الحرب الملعونة ياصديقى !

فوجئت بالنبأ فجلست حائرا متأثرا ، وكانت ميديث تراقبنى بنظرات حزينة ولم تقل شيئا .. وبعد فترة سألتها عما تم فى أمر الاستقالة فابتسمت فى ذبول وقالت - بل اسألنى عن العلاوة فقد أصبح مرتبك منذ منتصف هذا الشهر - ٣٥ جنيها !

صحت فورا وبلا تردد وكأننى أمنع عن نفسى خطرا من ضعف

إرادتى – أبدا أبدا أيتها الكريمة وأتوسل إليك فأنا مصمم على تغيير مجرى حياتى .. لقد رتبت نفسى على تلك الاستقالة !

وبعد مناقشة طويلة لم أضعف فيها .. ودعت اللطيفة الطيبة ميديث ودعت قشلاق قصر النيل .. طويت صفحة صديقى الميجور كول وكم أنا آسف له !

....

طويت صفحة صديقى كول وكم أنا آسف له – ولكن كان ينتظرنى عند بوابة قصر النيل هذا اللغم الباقى الذى اسمه « مارى » – فبمجرد أن عبرت البوابة وجدت شقيقتها الصغرى « روز » تنتظرنى فى لهفة وذعر وبكاء .. « مارى » فى المستشفى القبطى الآن . إنها انتحرت وتموت ، وقد أرسلتها أمها فلابد من حضورى !. وبلا إرادة ، فلم أقدر حتى أن أتردد ، ركبت معها التاكسى إلى المستشفى ، وحكت لى فى الطريق كيف هاجم البوليس الحربى أول أمس شقتهم فى الانتيكخانة ، واستولى على كل ما فيها من حاجيات وهدايا وثياب وأموال كول ، وقبضوا على مارى ، وحققوا معها فى السجن الحربى . وبعد تحقيق طويل أفرجوا عنها . فخرجت منه لتغافلنا وتدخل إلى حجرتها وتغلق على نفسها حتى سمعناها فى شخير لفظ الانفاس ، فقد ابتلعت زجاجة كاملة من أقراص الاسبرين الانجليزى .

....

عندما دخلت إلى المستشفى وكانت غاصة بأهل مارى وأقربائها – قابلتنى الأم فى لهفة وامتنان وكأننى النجدة لها .. وتعال انظر ماحدث لنا .. نحن الولايا والبنات وماحدث لنا .. وعلى صوتها الذى بدأ يعلو نشيجا وولولة ، فتحت مارى عينيها واستدارت ورأتنى .. وفى حركة غريبة وغير متوقعة اكفهر وجهها ، وارتجفت بالغضب ، وانطلق منها الصياح بأنها لاتريد أن ترى وجهى .. أن أخرج حالا من أمامها –

فأنا السبب فى كل ماجرى لها ! .. أحرجت ودهشت وغمرنى الخجل والارتباك أمام الحاضرين ، وكان الطبيب واقفا فأشار لى أن أخرج تهدئة لها .. تحركت وقد بدأت أفيق من اللخمة والارتباك إلى الغضب والسخط والنفور .. أنا السبب ؟ .. أى هراء تهذى به هذه المجنونة ؟ .. ولاحقتنى الأم خلف الباب وأمسكت بيدى فى استعطاف وتوسل فإن هذا البوليس الحربى تركهم على الحديدة .. وتلك الشقة سوف يتركونها فورا بالطبع ولكن ، تكاليف المستشفى لمارى ؟ .. إنهم يطالبونها وهذه هى الفاتورة بـ ١٢ جنيها – فليس معهن الآن المليم الواحد ! .. لا رجل بجوارها .. لا أحد ينجدها .. ومارى صدقنى تحبك . لاتأخذ بكلامها فصراخها هذا لوعة حب .. انجدنا بسرعة أرجوك !

ويا غرابة السرعة والسهولة التى امتدت بها يدى بالنقود .. خرجت متعثرا حائرا مهموما – وذعرى تلك الجنيهات القليلة التى تبقت فى جيبى وقد أصبحت من اليوم بلا عمل .

....

لقاءاتى مستمرة مع الحميمين « سعيد عبده ، هيكل » ثم بقية الصحاب والأصدقاء فى الشارع الصحفى . كتاباتى فى الساعة ١٢ تتصاعد حرارتها وتزداد اندلاعا .. بلاط الصحافة من حولى مازال يعيش فى الرجفة والاهتزاز بعد الزلزال من ظهور « أخبار اليوم » .. « التوءمان مصطفى وعلى أمين » تطول قامتها وتعلو منها الهامة – وقد كتبت مسجلاً أتساءل بل أتباهى فأين من هو أشهر منهما الآن فى البلاد المصرية ؟.. سطوع حزب جارف جديد أعضاؤه هم القلم والورق والمطبعة والأحبار .. إنه يكتسح أمامه عتيق الأحزاب .. عصرية صحفية ، واقتباس أوربى أمريكى ، وطموح دولى ، ونقلة حارة مغامرة مؤثرة للقارئ المصرى ، تحاول أن تلبسه بدلة الفراك وقبعة التوب

هات ومعلهش قريبا سوف نجد الحذاء اللميع لقدمه الحافى !

أمسكت عن الصرف بين الصحاب .. يدى تتلجم على فتحة جيبى الخاوى .. لم أقل لأحد أننى أصبحت بلا عمل وبلا مرتب وبلا نقود .. أهرب من لقاءات أشتهيها وسهرات قد اعتدت عليها وأحاول عبثا أن أجد الطريق إلى تلك المنحطة المذلة النقود ! .. كلمت « حازم فودة » أن يرفع من أجر « مى الصغيرة » عن كتابتها ، فدهش واستغرب وتعجب ، فقد اعتاد منى التهوين من أهميته ، وكثيرا مارآنى أدفع ثمنا لإعلان فى الاهرام عن « مى الصغيرة اليوم فى الساعة ١٢ » .. دهش واعتذر عن مقدرته إلا من زيادة الجنيه الواحد فقط .. شكرته وانصرفت !.. ثم انزويت بنشيط الوسط الفنى صديقى « عبد الله أحمد عبد الله » وعرضت عليه أن يحاول بيع قصص مى الصغيرة للمنتجين السينمائيين !.. ذهبت إلى مكتبات الفجالة وشارع محمد على ، وفى يدى الدوسيه الممتلئ مما ظهر من قصص مى الصغيرة لعلهم ينشرونها كتابا .. اعتذروا جميعا فمن يطبع القصص الآن ، ثم ماذا يجدى أجرها التافه ؟.. استلمتنى فى قسوة وفظاظة . وبسرعة قدرية غريبة – اشهر الإملاق تلك .. بدأت أستدين من ناس بعيدين عن الصحافة !.. وبالربا والرهن أحيانا أبيع ما لاحاجة لى به ، بل حتى ماأنا فى حاجة له من ثياب ومقتنيات !.. ابتعدت عن عزيزة !.. أخذت أتهرب من لقاءات هيكل وسعيد عبده ورمسيس ومأمون ورخا وصلاح وإحسان .. وكلما سألونى عن السبب تواريت وأنا أطلق ضحكة سخيفة فجة يبللها الخجل بأننى ومى الصغيرة فى خلوة غرام مع كتابة رواية طويلة !.. ياهذا الفقر – وفى كل مراحلك معى أتلذذ بتعذيبك لى بل أفخر – فدائما أمرق وأنجو منك بلا مذلة – أما تلك المرة فأنت تقتل رمقى الباقى من رفيقتى وحبيبتى وآمالى مى الصغيرة !

وذات يوم مباغت وغريب وكنت أجلس وحدى بمقر الساعة ١٢ بشارع محمد باشا سعيد فوجئت برجل أصلع ضحوك يطرق الباب

ويسأل عن عنوان الكاتبة القصصية مي الصغيرة !..

إنه المخرج السينمائى الصاعد « أحمد ضياء الدين » وفى يده عقد مكتوب باسم مى من صورتين بالكربون ، كى تكتب له حوار فيلم عاطفى غنائى جديد تقوم ببطولته مطربة تونسية جاءت تبحث عن الشهرة فى مصر اسمها « حسيبة رشدى » ومعها الممول - ويقوم بالبطولة أمامها المطرب « محمد صادق » !.. مفاجأة أذهلتنى بل اقتحمتنى وزلزلتنى ، فبعد خمس دقائق من تعارفنا وتفاهمنا واتفاقنا ، خرجت معه فى شارع محمد باشا سعيد لنختار جلسة التوقيع واكمال التفاهم فى حديقة « فندق شبرد » بجوار جنينة الازبكية ! !

سلمنى ملخص القصة وهو من صفحتين .. حاولت عبثا أن أقرأ مع رجفة المشاعر التى تملكتنى وأحاول إخفاءها ، ثم سلمنى العقد المكتوب بالكربون وقد وقعت عليه بصفتى الوكيل عن مى الصغيرة « ثم وقعت ايصالاً عن قسط الـ ٥٠ جنيها من أصل العقد وقيمته ١٥٠ جنيهاً ، وكانت ورقة واحدة كبيرة ، وضعتها فى جيبى مع ورقة الـ ٥ القروش الوحيدة البالية التى تبقت معى !.. وعندما انصرف « ضياء » صفقت للجرسون فكم كنت جائعا ، وهات من الأطباق سكالوب بانيه ومعه المحشى ، وكباب وطرب وكفته ومعه الطحينة ، والحلويات مهلبية وبقلاوة وعيش السرايا بالقشطة . فعلت هذا ثم قمت نحو كابين التليفون أدق على الثلاثى « سعيد ورمسيس وهيكل » والعزومة يافتيان الليلة على حسابى كيفما تريدون وأينما تشاءون وخذوا المعلومة منى فأنا الليلة فى ثراء أغا خان !..

« الصالون »

أكلت وشبعت ودفعت الحساب .. ٧٦ قرشا لا مانع ، فاليوم لى بهيج !

جيبى منتفخ بفكة ورقة الـ ٥٠ جنيها ، تلك التى استبدلها لى هذا الجرسون المتعاظم فى مطعم فندق شبرد ، وكومها أمامى ورقات مهلهلة من ذات الجنيه الواحد !.. أتهادى نازلاً على سلالم الفندق والساعة الآن الرابعة ظهرا ، والقاهرة فى مطلع مايو تودع الربيع وتستقبل دفئا منعشا لذيذا ، ونشوتى الملهبة الآن أن أمنح نفسى شيئا فوريا يسعدها بعد أن صمدت ومرقت من أشهر الفقر والقهر والحيرة والانكماش ! .

نظرات جرسونات وزبائن مطعم شبرد على مظهرى الخابى كانت تقرص لقمتى .. قاعة المطعم مهيبة رهيبة وكأنها صالون الاستقبال فى قصر باكنجهام الامبراطورى .. السقف البلورى ، والنجف الضخم كالشجر المقلوب ، والمرايا التى تلف وتدور ، وكل تلك الارستقراطية الجارفة التى تغمر المكان !.. المائدة التى كانت بجوارى جلس يتصدرها « الماريشال الكسندر قائد الجيش الثانى فى الصحراء » ، وعلى يمينه البرنس بول ولى عهد اليونان ، وبرفقتهما ضابطان آخران يجلسان وكأنهما تمثالان من رخام .. وفى مائدة أخرى قريبة فعينى تأخذ النظرات

على ثلاثة باشوات ضخام عظام هم : « عبد الجليل أبوسمرة » ، « عبد المجيد صالح » ، و « يوسف صيدناوى » .. وفى مائدة أخرى ترفرف نظراتى فى لهفة وفخار وأنا أرى « فكرى أباظة » أحد أبطال خيالى وهو جالس بشاربه الهتلرى ، والسيجار فى فمه ، والمارتينى بين أصابعه وأمامه امرأة أربعينية متفجرة تضاحكه فى دلع وتدلل ، وترميه بورق الورد من فازة المائدة ، وبجوارها « غلام » لابد وأنه ابنها - يلتهم ويلعق مايوضع أمامه من أطباق .. وعلى مائدة بعيدة ألمح النجمة السينمائية » راقية ابراهيم « وبجوارها جنرال امريكى فارط الطول وبادى التجاعيد ، يتهامسان ويضحكان ويبدو أن لها دالة عليه .. أغلبية الموائد ضباط حرب كبار - بعضهم يقطن فى الفندق ، وبعضهم ينزل فى إجازة ميدان ، وبعضهم يحلو له التواجد فى أبهاء الفندق العريق الذائع الصيت .. أتأمل وأختلس النظرات وأبدو فى مائدتى المنكمشة لصق الحائط بمثل « قط هزيل » ينبش عن بقايا العظم واللحم فى سلة نفسه !.. أحاول إخفاء الحذاء القديم الذى بدأ يتفرطح ، وأضم أطراف الجاكتة التى بدأت تكلح .. أنا متطفل ومقتحم طبعا على تلك الأماكن وهؤلاء الناس ، ولكنه التحدى المؤدب الساكت الذى أحاول به ترويض حياتى فى هذه المدينة الطبقية المتقلبة المخادعة فماذا يكون البهاء لهؤلاء الناس إلا من فخارة مظاهرهم وانتفاخ جيوبهم !

أتهادى نازلا السلالم . جيبى منتفخ ، ونشوتى الملهبة حقا أن أمنح نفسى شيئا فوريا يسعدها .. أكتسى مثلا ؟.. طبعا فتلك لهفة أفكارى الآن وإلا فكيف يقدر لى أن أواصل الصراع من خوض تلك الغابة التى توغلت أقدامى فيها ؟ .. وكان « صديقى نجيب » قد حكى لى عن محل فى « شارع المدابغ » اسمه « قصر فكتوريا » ، بوسعك أن تدخله فلاحا فتخرج منه أميرا .. فيه الكسوة من كل شىء .. الحذاء ،

والقميص ، والبدلة ، والحمالة ، والكرافتة ومنديل الزينة ، ماعدا الطرابيش طبعا - فالمحل للخواجات !

أمشى متمهلاً إليه .. والشوارع ومعالمها الكاكى والأصفر ، وضجيج المرور الحربى .. عساكر ، وعربات ، ومصفحات وجيب ، وموتوسيكل ، ولوريات مشحونة ، وطوابير أسرى من الطليان والالمان يتفرج عليهم المارة فى دهشة واشفاق !.. شارع سليمان باشا وقصر النيل ، وفؤاد الأول ، وابراهيم باشا ، والمناخ ، والمدابغ ، تتلاطم بالزحام والندرة أن تجد وجها مصريا !.. عينى على يفط الاسماء والاعلانات والعناوين . فلا توجد كلمة واحدة عربية .. لاقراءة من اليمين أبدا .. لى عشر دقائق وأنا أتربص أن أسمع كلمة أو نداء بالعربية لغتنا ، أبدا أبدا - حتى بائع الصحف فى تلك الشوارع يأنف من حمل الصحف المصرية ، فالذى عنده مجلات وصحف أجنبية .. ويوشك رعب التراجع أن يأخذنى فأنا مقتحم على أمكنة عائلية خاصة بالأجانب أصحاب الامتيازات !.

لم يكن معى سجائر ، فتجرأت أن أدخل محلا شجعنى أن البائع فيه له بشرة مصرية سمراء .. طلبت منه علبة سجائر بحارى وكبريتا ، فهز رأسه فى أنفه فهو لايفهم .. كررت له مطلبى بصوت واضح - بالعربى طبعا - فصححها لى بالانجليزية ورماها كما يرمى العقب .. « لاباس » البقال وزميله « كورتثوس » ها هما أمامى وذات مرة أحرجنى « صلاح عبد الجيد » أن أشترى من عنده البصل والبطاطس فقد كنا فى طريقنا لإعداد ورقة لحم فى الفرن نأكلها فى بنسيون الانتيكخانة مع بعض الصحاب .. يومها ياخجلى ولخمتى ، فالبقال الرومى لايعرف كلمة بصل أوبطاطس ، فهل هذا معقول ؟ .. وقد تعبت حتى أفهمته مطلبى البسيط فنصحنى وهو يردده بالفرنسية والرومية أن أطلبه بلغة مفهومة أو معروفة !.. أضواء النيون تسطع

بالاعلانات فى عز الظهر .. أفيشات وفترينات ومعروضات فى كل مكان ، ولكنها لا تناديك أيها المصرى فهى لاتشعر بوجودك بل صياحها بالفرنسية وهتافها بالانجليزية وترحيبها بالرومية أو بالعبرية !.. مضضى ودهشتى وسخط نفسى أن تلك مدينتى وعاصمة آبائى وأجدادى فمن وضع هؤلاء الناس على أرضها وجعلهم يتحكمون ويحتكرون .. بل كيف حلت لهم الحياة هنا ولهم بلادهم التى يفخرون بجمالها وحضارتها وزهو الحياة فيها ؟ .. سهولة الكسب طبعا !.. سيولة الاستنزاف طبعا !.. مصر البقرة والمرعى لهم الزبد واللبن ، ولنا القش والروث .. الحياة للأجانب فى مصر راحة ما بعدها راحة .. امتيازات ، والقتل مجاناً للوطنيين إذا أتاك المزاج .. لا ترهقك ضرائب أو التزامات أو تجنيدات أو مسئوليات .. لايهمك مايحدث لهذا البلد من محن وكوارث فما شأنك فليس الوطن وطنك !.. لايهم أن تعرف من هو رئيس الوزارة أو حتى من هو الملك ، فأنت فى القمة سلطان نفسك !.. أوانى اللبن والزبد يحلبها العبيد المصريون وكفاهم لعق الطبق ثم غسله !.. وأخيرا قف ياهذا السخط الطارئ على نشوتى المتلهفة فهذا « قصر فيكتوريا » أمامى .. لم أتمهل .. لم أتردد .. تجرأت واقتحمته والتذكرة فى يدى رزمة الجنيهات المنتفخة فى جيبى ! .

....

خرجت من المحل وأنا أتألق فى جاكتة كحلية من صفين بأزرار نحاسية براقة آخر موضة تفصيل الصالون الانجليزى .. وفى الجيب العلوى منديل الزينة الأحمر مثلث وهرمى .. ثم كرافتة فضية بها تعاريج ذهبية .. والبنطلون صوف رمادى شارلستون .. والحذاء شمواه بلا رقبة ولا رباط ! .. دفعت مبلغا رهيبا التهم ستة جنيهات كاملة - لا بأس ياقاهرتى فاليوم لى بهيج !

أتهادى بأناقتى الجديدة حول ميدان سليمان باشا ، ثم أستدير

وأتوقف عند مدخل « سينما راديو » ونشوتى مازالت غامضة بحثا عن ملمس مايسعدها غير لفافة تلك القشور ! .. مازال ميعاد سهر الليل مع « هيكل وسعيد ورمسيس » أمامه ساعات طوال ، وأبدا لا رغبة لى الآن فى العودة إلى شارع الفجالة وعفونة أزقته وحواريه .. ضجرت من شارع الفجالة هذا ويجب أن آخذ النقلة إلى سواه .. تنجذب نظراتى نحو يافطة ستديو تصوير جديد والإعلان عنه بالانجليزية طبعا عن الاختراع الفوتوغرافى المدهش « صورتك بالرتوش تأخذها بعد ساعة » - وأوكازيون فدستة الكارت بوستال بستة قروش .. ولم أتردد ، فأى فرصة أكثر من تلك لأنال تسجيل المرحلة التى أنا فيها .

وحتى تطبع الصور قطعت تذكرة بلكون فى السينما .. كان الفيلم فى منتصفه ولم ألبث أن سئمته فهو دعاية حربية مضجرة .. قنابل ، وموت وسفك دم ، ياإلهى ماهبل تلك الحرب ؟ .. جنون هؤلاء الحضاريين ؟.. ماهذا الافتراس لأنفسهم ؟ .. سئمت وضجرت فالقاعة غاصة بالعساكر الانجليز والأمريكان والسنغال والهنود - ومعظمهم سكارى ومتطوحون وصاخبون !.. خرجت من السينما .. وقفت أنتظر الصور .. هاهى الصور يا رباه فهل هذا أنا ؟. أول صورة لى بلا طربوش .. وياشدة الحياء من صفاقة أناقتى التى بت فيها !

....

أعود وأتمشى ، وأتوقف أمام « مكتبة روكسى » الأقلام والكشاكيل الملونة تنادينى من الفترينة .. أدخل وأشترى « قلم حبر فونتين بسن زجاجى » وكشكولاً أبيض مصقول الورق - وهذا أنا أكتشف نشوتى الغامضة فى إسعاد نفسى ، وهى أن أكتب .. أجلس وأكتب .. تلك الرواية مثلاً ، وملخصها الذى فى جيبى فلماذا لا أبدأ ؟ .. وكنت قريبا من مقهى « بور فؤاد » فدخلت واخترت مائدة فى الركن ، كنت قد غازلت جلستها ذات مرة فأعجبتنى !

فنجان القهوة ، والكوب المثلج ، وقلم الحبر فونتين ، وكشكول الورق المصقول مفتوح على أول صفحة ، ويدى تتحسس ملخص الرواية ، فأكتشف مروعا أنه غير موجود فقد نسيته فى جيب البدلة القديمة والتى تركت ربطتها فى المحل حتى أعود وآخذها .. لم أهتم فنشوتى الآن ليست لها .. ثم أى ملخص رواية هذا الذى وضعه الأخ المخرج « أحمد ضياء الدين » فى يدى لأكتب حواره ؟.. إنه مجرد حدوتة ملتوتة سفروتة عن فتاة عربية متزوجة كانت تهوى الغناء هى البطلة « حسيبة رشدى » هربت من زوجها وبلدها إلى الفن والشهرة الجمال فى بلاد المصريين والمشهد لها من محطة باب الحديد وفى يدها عنوان المطرب الكبير « محمد عبد الوهاب » فتلتقى مصادفة - على الرصيف بالمطرب الصغير « محمد صادق » وبعدها خذ المسار ماشئت مع الحكاية !.. وفى نيتى أن أؤلفها طبعا طبعا .. وكما اتفقت مع ضياء فسوف تكون « مى الصغيرة » حرة فى أى إضافة وأى تأليف مادام العمود الفقرى والذى هو الغناء موجودا ! .. فى عزمى أن أتقنها ، وبدل اتفاق المهلة شهرا ونصف الشهر للانتهاء فلن تأخذ منى أكثر من أسبوع ، فلهفتى شديدة إلى القسط الثانى والثالث !

بائع الصحف يمر فى المقهى بعدد آخر ساعة الجديد ، والزبائن يتخاطفونه فى حماس فالمانشيت على الغلاف عن « أسرار الأزمة بين القصر والوفد وولى العهد » اشتريت نسخة .. عزيزى « هيكل » له توقيع صغير منمنم فى ملزمة الصفحات الأخيرة على موضوع مترجم ... « سعيد عبده » له التوقيع العريض كرئيس تحرير ، وموال له أيضا ورسم لصاروخان عن مدينة الأوقاف موضة البيع والمساهمة هذه الأيام .. مسلسلة التابعى عن أسرار الأزمات فى للقصر ، وجرأة صحفية جديدة فى التناول لولى العهد الممقوت هذا الذى اسمه « صاحب السمو الملكى الأمير محمد على باشا » !.. تلك الجرأة فهل

هى تسديد لحساب فاروق اللاهى فى الكباريهات وأمه المتزحلقة على جبال الجليد السويسرى ؟ أم هو تسديد لحساب الشعب المختنق المطحون الذى لايدرى من يصدق وكيف يصدق وماذا يفعل إذا صدق أو لم يصدق ؟ .

صفحات العدد الجديد الطازج تلسع يدى ، وحرمانى وجوعى آه لو انتقلت ولائم مى الصغيرة من كشك الساعة ١٢ الموحش إلى البلاط الفاخر الحاشد من آخر ساعة .. أطوى حرمانى فلا داعى لهذا الشوك الطارئ أن يخز نشوتى ويفيقنى من ابتهاجى ، ثم أتوقف منجذبا عند مسلسلة التابعى الأخرى الأشد تشويقا وابداعا - يكتبها تحت عنوان « بعض من عرفت » عن غرامياته الدونكيشوتية الفاحشة فى مراتع البندقية وفينيسا وفروسياته الدنجوانية المسرفة فى مخادع الكونتسات وذوات الدم الأزرق على شواطئ مونت كاتينى والكوت دازور !... أسلوب التابعى ماأروعه ، تعابيره المختالة ذات الرنين الذهبى ، ولها أحيانا صليل الأفعى ذات الأجراس .. خيالياته وعالمه المبهر الساخر خاطف الأبصار الذى يهيم به محلقا بالقراء المصريين وعجزة الجذاب المقبول عن الهبوط المهشم لهم على أرض الواقع !

ولست أدرى بعد أن انتهيت من قراءة آخر مغامرة له فى أوربا التى مازال يسرح فيها - كيف تهيجت نشوتى أن أتبارى معه محلقا فى مثل تلك السموات من أنواع تلك الكتابة ومثل هذا العنوان - ياكثرة الغريب والمذهل مما عرفت فى تلك السنوات الثلاث الصاخبة !.. قصة واقعية لم أحكها بعد فكم أنا خجول من صفعة الواقعية لنهايتها .. فركت يدى فتحت القلم والكشكول .. وقبل أن أنهمك فى الكتابة - وكانت الساعة قد أصبحت السادسة - قمت إلى تليفون المقهى وابلغت « هيكل » إننى موجود فى انتظارهم بعد أن ينتهوا فى الجناح الخلفى من مقهى « بور فؤاد » بشارع فؤاد الأول ... ثم تركت رقم

تليفون « بور فؤاد » فى البنسيون لمن يسأل عنى ، وعدت لأبدأ كتابة العنوان - بعض من عرفت - بقلم مى الصغيرة !

......

بدأت ... اندمجت .. سخن قلمى .. القصة والسرد المختصر لها - فالبطلة أمريكية مجندة حسناء اسمها « تمارا » تزور القاهرة فى مهمة لأول مرة - وتقف فى الطابور أمام شباك استقبال يتألق فيه البطل وهو شاب مصرى نشيط وأسمر ووسيم ، جذاب وبادى المرح والطموح .. تسأله النصيحة فأمامها ٢٤ ساعة فى تلك المدينة كيف تقضيها ؟.. فيتطوع فى شهامة النبلاء أن يضع نفسه فى خدمتها ليكون دليلها إذا انتظرته ربع ساعة فقط حتى تنتهى وردية عمله !.. وفى تلك الربع ساعة كان قد أعد فى ذهنه برنامجا حافلا محشودا من ليلة شرقية أخاذة سوف يسلب بتفانينها بنات الدنيا الجديدة !.. وبقية القصة وليمة ليلة حارة يصنفها مصرى باذخ الاحلام مع أمريكية مأخوذة ومطيعة ، تصور بعدها أنه سلب قلبها وملك عقلها ومشاعرها وأنها سوف تطارده غراما وهياما بل لعلها سوف تلغى سفرها لتتمرغ فى بلاطه الفرعونى تغسل أقدامه بدموعها !.. الغرض وعن فتانا شاهق الاحلام والطموح هذا فقد استيقظ فى الصباح ليجد مظروفا تركته الامريكية مطوية على ورقة عشرة جنيهات « تكلفة الليلة وشكرا » !! قصة ملاغية لعوب .. فكهة لاذعة ولاهية وملطفة لوقدة الحرمان والحنين ولكنها مفوقة أيضا من جامح الخيالات ... الوصف المستدرج هو أهم مافيها ، ولقطات القلم تستنبط الجديد المغرى من رشقات الكتابة على الجدران القصصية المصرية .. ولقد وجدت نفسى أضحك مع النهاية بعد أن كتبتها ، عندما ظهر « هيكل » و « سعيد عبده » ومعهما « رمسيس » فوق رأسى ، فما هذا الذى يضحكنى وأنا وحدى ؟.. أسرعت أغلق الكشكول وأبعد القلم فأبدا لم يريانى من قبل وأنا أكتب !.. ولكن عزيزى الدكتور

سعيد أسرع واختطف الكشكول من أمامى ليفتحه على العنوان العريض بعض من عرفت بقلم مى الصغيرة .. وتعلو ضحكاته العصفورية ، وتتخاطف الكشكول الأيدى ، وتجحظ على الاسم والخط والعنوان ، وتنهمر الضحكات والسخريات وقفشناك متلبسا ياحضرة الآنسة مى الصغيرة !.. اضطربت وارتبكت وأصابتنى اللخمة ، فبادلتهم الضحك ووجهى يضطرم بحمرة الخجل - والرد لى أنها تبيض لمسودة قصة أعدتها مى الصغيرة للساعة ١٢ !.. ظل الكشكول فى يد الدكتور سعيد ، فلم يلبث منظرى الفائق الأناقة أن آخذهم إلى شغب دعابة أكبر ، فانهالوا لذعا واستفهاما ، فأردت أن أغيظهم أكثر فأخرجت صور الكارت بوستال الفاخرة فتخاطفوها مبهورين - وهيا وقع بالهدية ولكل واحد منا صورة !

اجتذب الكشكول فضول الاستطلاع والقراءة من صديقى الدكتور سعيد فانزوى عنا يطالع فيه .. استغرق فى القراءة وعلى ملامحه مرح وشغف وانبساط ، ثم غمز لهيكل يهمس فى أذنه ويقرءان سويا ثم انضم إليهما رمسيس ، وكنت قد انشغلت عنهم وراء تليفون يطلبنى فى كابين المقهى ... تليفون والمتكلمة « روز » شقيقة مارى ، تبلغنى والفرح يأخذها أنهم قلبوا الدنيا بحثا عنى ، ومفاجأة أن غدا سوف تتم الخطوبة الرسمية لمارى من « كوبرال » أمريكى اسمه « جيفرى » ، والسهرة سوف تكون عند « مدام آدمة » !.. وفهمت منها عن أهمية حضورى ، فالحكومة تريد توقيعات من شهود مصريين من أجل اجراءات السفر وخلافه ، فمارى سوف تسافر مع خطيبها إلى « سان فرانسسكو » ليعقدا زواجهما هناك .. تمت الاجراءات فى كل شىء ومارى وكلهم سعداء !.. أربكنى هذا التليفون .. سرى بالقلق الخفيف والحيرة الخاطفة فى نفسى - ياهذه الفتاة « مارى » ومغامراتها الأسطورية فى غابة أنواع الرجال .. هذه المرة أمريكى فهل أصدق ؟

......

اخترنا سهرة الليلة فى « حلمية بالاس » بضاحية الزيتون .. سهرنا وشبعنا وسعدنا .. وكانت فاكهة السهرة طبعا هذا القفش المتواصل عن منظر مى الصغيرة المتلبس فى مقهى بور فؤاد !.. انطلق اللذع والمرح ، ومنحتنا الصدفة الرائعة منظرا ملكيا رائعا مروعا ، فقد كانت « الأميرة فايزة شقيقة الملك فاروق » تجلس على مائدة عائلية ومعها زوجها « محمد على رؤوف » وضيوف آخرون فيهم أمريكان .. والذى حدث أن « رؤوف اختلس نفسه من برودة الجلسة الملكية المتكلفة وتسلل إلى « البار » ليأخذ جلسة فرفشة مع إحدى فتيات فرقة الرقص الفرنسية .. وظهر « فاروق » فجأة مع حاشيته ، وعندما لاحظ أخته وضيوفها وحدهم ، ورمقت عينه صهره التيس القسطنطينى فى جلسته على البار !.. سخن دمه الشرقى وانقبضت عروقه واتجه مندفعا وبلا مبالاة من نظارات الساهرين ، وقفش رؤوف من قفا الجاكتة يجره إلى حجرة مدير الملهى القريبة ثم أغلقها وهات ياضرب فيه .. أصوات من الركل والصفع والطحن والشلاليت ، وعبثا تحاول أصوات الأوركسترا وموسيقى الجاز أن تغطيها .. ثم فتح الباب ليخرج مرفوع الرأس وهو ينفض يداه ويتجه فى خطوات سريعة ليتكوم فى مقعد الصدر من مائدة شقيقته وضيوفها !.... هكذا سهرنا وشبعنا وتفرجنا ... ولم يكن الحساب مرعبا جدا فإنه « خمس ورقات فقط » خففت بعض العبء من هذا الانتفاخ فى جيبى !

....

نسيت الكشكول وفيه القصة مع « هيكل » تلك الليلة - وطبعا لن يضيع وانشغلت فى اليوم التالى مع « مارى » وتوقيعات عرسها وسفرها ، وكم استغربت لمنظر هذا الشاب البرىء الخجول والذى مازال يبدو صبيا - الكربورال الامريكى جيفرى - وكم أخذنى التعجب لما أصبحت مارى فيه من اتزان وعقل وهدوء وطيبة ودموعها

تجرى هذه المرة صادقة أمامى - عن إنها سوف تغادر أحبابها الحقيقيين فى مصر ، فهل يقدر لها يوما أن تعود ؟

وعندما قابلت « هيكل » بعد يومين سألته عن الكشكول ، فقال لى فى بساطة مثيرة انه ضاع منه .. ضاع ؟.. قالها فى بساطة سمجة مما هيجنى وأطلق غضبتى فثرت فيه فى انفعال شديد فمن أين لى أن أستعيد تلك القصة ؟.. قال وهو يضحك سخيفا وبلا مبالاة ، فلماذا لا أنسخها من المسودة المعطرة ؟.. وعندما جاء « سعيد » وسمع صخبى وثورتى وعرف عن ضياع الكشكول ، تحيز ضاحكا مع هيكل وزغدنى فى جنبى مداعبا ومهدئا وياأخى فتش فى أوراق المرحومة عن سواها ! .. المرحومة ؟! .. يقصد مى الصغيرة فما أقساه هو الآخر ؟ امتعضت صريحا من قسوة اللفظ وتملكنى الضيق إلى درجة أن هممت بالانصراف مخاصماً ومقاطعاً ولكنهما تمسكا بى واعتذرا وبررا ضياع الكشكول بكلام غامض مداعب ، وهما يؤكدان بعد كل ضحكة بل يضغطان على القول بأن أمتع المناظر لهما عندما يريانى أفلت من قفص حيائى الريفى وأبدو غضوبا صريحا بمثل هذا الذى أتمادى فيه الآن من أجل ورق قصة لن يتاح لها النشر طبعا ، فهل معقول أن يؤخذ عنوان التابعى لمجلة أخرى غير آخر ساعة ؟

....

وصباح الاحد استيقظت على تليفون مبكر يطلبنى وكان المخرج أحمد ضياء الدين وفى صوته غموض واعتذار ، فهو يطلب منى سرعة اللقاء من أجل تغيير العقد بعد أن انكشف الاسم .. ماذا ؟ .. وقبل أن أفيق من صدمة أو غرابة الطلب ، قال ، إنها والله فكرة خدعة رائعة تصلح فيلما .. ماذا ؟ .. ماذا ؟ .. وأخيرا فهمت منه أنه يتكلم « وعدد آخر ساعة الجديد » مفتوح أمامه - وفيه صورة كبيرة لى ، مع قصة بقلم مى الصغيرة عنوانها « بعض ماعرفت » ..

ماذا ؟.. ماذا ؟.. ماذا ؟..

« وداعا يا مدموازيل »

القاهرة ١٩٤٥

هذه « هى صورة مى الصغيرة » !!

« هذه هى صورة الفتاة التى خدعت قراءها فى الصحف بضع سنوات .. وغازلتهم بكتابات وقصص اتسمت كلها بالجوع العاطفى إلى القبلات ، وتلقت من كثيرين منهم رسائل معطرة بأريج الهوى المشبوب وتنهدات القلوب المحترقة .. فى بعضها عروض للزواج وفى سائرها استدرار للعطف الذى تختبئ فيه السهام المسمومة لكيوبيد الشرير .

هذه هى مى الصغيرة ، التى سمعت من أكثر من واحد من أصدقائى قصص غرام لعب فيها دور البريمادونا من جانب ولعبوا هم من الجانب الآخر أدوار الفرسان الأول .

هذه هى مى الصغيرة ..

« خنشور » مثلى ومثلك ، له لحية وشارب ، وعنده اليوم بريد يساوى - فى الميزان فقط بطبيعة الحال - بريد وزير .

هو الزميل الأستاذ ... إلخ » .

« سـعيد »

« آخر ساعة - العدد ٥٥٣ - الأحد ١٣ مايو ١٩٤٥ »

....

عدد المجلة يهتز فى يدى وأنا واقف أمام « المعلم الحاج أبو الفضل » بائع الصحف بجوار كازينو البسفور بباب الحديد .. مفتوح على الصفحة الثانية وهذه هى قصتى وهذه هذى صورتى ، وتلك هى تقدمة الدكتور سعيد عبده لى ! .. يا إلهى .. يا إلهى ميدان باب الحديد يتحول فجأة فى نظراتى الغاصة بالدموع إلى مسرح عريض ، طويل ، هائل ، محشود بالمتفرجين ، يحملقون فى منظرى الذى ارتفع عنه الستار فجأة !

خشبة المسرح بلا كمبوشة ، وبلا ديكورات ، وبلا ممثلين ، فأنا وحدى الواقف فى دائرة من ضوء ، تتحرك أينما تحركت .. هكذا فجأة أصحو عليها .. لم أكمل ارتداء ثيابى بعد .. مازلت أحاول أن أضع ساقى فى رجل البنطلون .. تواجهنى تلك الحملقة الجاحظة الرهيبة من حشود المتفرجين ، حملقة تميد بى ، ثم قهقهة تدوى فى أذنى ، ثم ضحكات متواصلة مجلجلة تزلزل وقفتى - فهل هى تسخر من منظرى الريفى الحائر ؟ .. تقدمة « سعيد عبده » تلك ؟ .. هذا التسديد اللاذع المنصب فقط على الغراميات والالتهابات والعاطفيات ، فهل كانت تلك إلا القشور واللفائف للحقيقة البريئة المتوسلة من قلم ريفى محروم صاخب متمرد يحاول أن يفض الكبت عن قهر أهله ؟ .. تقدمة سعيد تلك هل هى لهو وإثارة فى السوق الصحفى المتنافس المنصوب ؟ .. رمية جليد خاطفة لاهية سوف تذوب فى حرارة منظر واحد ؟ .. أم هى منحة انحناءة عطوف ترفع الراية وتنفخ البوق ليفتح الباب الملكى من بلاط صاحبة الجلالة للفلاح الحافى !

......

عدد آخر ساعة مازال يهتز فى يدى وأنا واقف أمام بائع الصحف العجوز .. أشعر بالدوار شديد الدوار .. أنكمش وأنكمش كأنما مسنى إحساس بالتلاشى .. عروقى وأوردتى وأوعيتى فى داخلى تتلبك

وتتبعثر .. وقلبى فى جوفى أيضا يعلو ويهبط ويدق بمثل ماسورة دق الأساسات .. روحى ترفرف وتضج وكأنها مارد محبوس فى قمقم وهى الآن فى ثورة الخروج والانطلاق .. أستند على حائط البسفور بجوار المعلم أبو الفضل .. اتهاوى رويدا رويدا فلم أعد بقادر على الوقوف .. اتكوم بجواره ، وأجلس على الأرض ساكتا لا أتكلم .. ويدهش الرجل بل يذعر من منظرى المسلوب فيسألنى عما بى ؟ . لا أقدر على الإجابة ، فيتلجم لسانى عن النطق . فأشير له نحو الصفحة الثانية المفتوحة من عدد آخر ساعة الجديد . يحملق الرجل فى الصفحة برهة ، ثم يرتفع صوته محملقا فى دهشة - إنها صورتك - ؟ .. أومئ له أن نعم فيعود يحملق فى الصورة ومنظره طروب ومغتبط ونظراته تنزل إلى الكلام المكتوب تحتها .. الرجل لا يعرف القراءة . أو الكتابة ويوشك أن يطلب منى قراءة هذا المكتوب ولكن منظرى السارح والبعيد جعله يتراجع فينادى على جاره الفكهانى ليقرأ له .. ألاحظهما من طرف عينى الزائغة وقد مالت رأساهما على بعضهما ، فهذا يقرأ وهذا يسمع .. تأخذ نظراتى شيق اللمحات من دهشة المعلم الفكهانى وهو يقطع القراءة ما بين فقرة وفقرة ليتأكد من مقارنة الصورة بوجه هذا الأفندى الغريب المنطرح مثلهما على الأرض ، والحاج أبو الفضل يزغده فى جنبه مستعجلا أن يكمل المكتوب .. أتابع ملامح بائع الصحف العجوز وقد تفتحت أشداقه عن ضحكات راضية وطيبة ومندهشة .. يا شدة ما تأكدت فى تلك اللحظة ، فكم كنت أشعر بهذا الإحساس يراودنى ، بأن هذا الرجل عم فضل هو صديقى الأول الحار فى هذه المدينة لاسعة البرودة .. قريبى أو من عائلتى ، بل هو أبى إذا شئت أن آخذ أنفاس الرفق والحنان ، فمن يطعمنى سخيا من هذا الزاد الغالى ؟ .. تلك الطبلية الثرية الشهية المنوعة التى أحوم كل صباح من حولها ، متلمظا بمنظرى الجائع متضورا بقرشى اليتيم ؟ .. المعلم أبو الفضل تنتشر ضحكاته ، ثم فجأة - فى صيحة ميدان - يعلو

صوته ملوحا بآخر ساعة مفتوحة على صفحتى ، وينادى بمثل « المصور وفكرى أباظة » ، فهذه المرة « آخر ساعة ومى الصغيرة » . اسكت اسكت يا عم أبو الفضل .. أشده من ذراعه أستوقفه عن لسعة الكرباج من هذا النداء .. أتوسل إليه أن يكف ، ولكنه نزع ذراعه منى وانتفض واقفا يطلب من زميله الفكهانى أن يفتح زجاجة شربات على حسابه .

....

خطواتى تهرول مبتعدة وهاربة يطويها الرعب والحياء من مظاهرة الحاج أبو الفضل تلك وعزومة الشربات الأحمر ! .. تلك التصفيقة الحانية البريئة للمتفرج أعلى التياترو ؟ .. الانبساط الهائل يرج مشاعرى .. حسنا فقد انتهى المشهد الأول فماذا بعد ؟ .. انكشاف مى الصغيرة فى آخر ساعة يطيح بمشاعرى ، ولكن مباغتة هذا الحسم ترعبنى فماذا بعد ؟ .. ما هو المشهد التالى الذى سوف أقدمه ؟ .. أنه ليس فى يدى ولا أملكه .. فأين نصه ومن يلقننى إياه .

تهرول خطواتى وعدد آخر ساعة فى يدى يسرى بالكهرباء فى عروقى .. ورقة امتحان انهيتها ولم يعد يصلح لها غش أو إضافة ، فقد باتت فى يد الممتحن ؟ .. هل أروق ؟ . هل أمرق .. هل أجتاز الامتحان من تحت عيون الدهاة والمتفرسين ؟ .. تلك القصة المنشورة ؟ .. مصادفة تلك القصة المنشورة ؟ .. يا غرابة أن تقفز دون سواها لتكون فاتحة الشباك ؟ .. بل غرابة المصادفة أن أكتبها فى لحظة نشوة لمجرد لهو وشغب مع نفسى ومحاولة شخصية جدا لاقتحام حلبة التابعى العملاق .. هل لم يكن أجدى لو أعطيت اتقان الفرصة بدل هوج المصادفة هذا ؟ .. طنين فى أذنى يهدئ من انفعالى وتطاير أفكارى ، قف أيها الأهبل المفزوع فالمصادفة هى التى تحكم هذه الدنيا .. هى هندسة هذا الكون ومسيرة كل هذا الخلق .. هى علاقات

هذا العالم وشبكاته المتواصلة .. هى الحقيقة الممسوكة وقل إنها البداية والنهاية من أى شىء وكل شىء !

مصادفة نعم ولكنى أحوم من حول تفسيرها واتطوح إلى توقع ما بعدها ؟ .. تنتابنى الأفكار - يا شدة الشك مما زرعه الضيم والقهر فى غرائزى - فهل صديقاى سعيد وهيكل مخلصان جادان أم لاهيان عابثان ؟ .. تلك التقدمة المهذارة - وكأنها نكتة أسبوع وهات ما بعدها ؟ .. هذا الانكشاف المباغت الذى غير خططى ؟ .. سيئ أم حسن ؟ .. هل أغضب أم أفرح ؟ آخر ساعة مجلة كبيرة نعم وأم المجلات حتى الآن نعم ، ولكن منذ ظهرت « أخبار اليوم » بدأ يستلمها الضمور والفتور ،.. نعم كانت لهفة خطتى أن يدشن مولدى على صفحات أخبار اليوم والتى تتبختر الآن فى عباب القارئ فخورة بمصريتها مختالة بطموحها .. أنها توزع الآن ١٢٠ ألفا فماذا توزع آخر ساعة ؟ .. ربما ٣٠ ألفا فقط فمن يبلغ عنى للتسعين ألفا الجاهزين ؟ .. قف . قف أيها الفلاح المملق المفلس الدخيل يا شدة البطر مما تتمنى أو تشتهى .

الساعة السابعة صباحا وأنا لم أفطر بعد .. خطواتى تكتسح ميدان باب الحديد ذهابا وإيابا وعينى على باعة الصحف وعدد آخر ساعة الجديدة يهلل فى أيديهم .. محطة مصر وشبابيك التذاكر ومشاعرى فى لفحة من حنين جائع إلى القطار المسافر فى اتجاه قريتى .. ميعاده بعد ربع ساعة - خط المناشى - فهل أفعلها ؟. لهفتى جائحة وحنينى حارق إلى ظل الجميزة ، والنخلة ، وتكعيبة العنب ، ثم الترعة والرياح ، وحوض القصب ، وغيطان القمح ، ورعرعة البرسيم .. شوقى إلى عم قطب وعم هاشم ، والشيخ حسنين ، والخال أبو بكر ، والحاج عقرب ، والعمة أمينة .. الولد كامل ، وغانم ، والطحاوى ، وعبد المجيد ، وعبد الحميد ، ومرسى واسماعيل . مولد سيدى

أبو الحديد ، وبخوت شم النسيم ، ومزار البركة من ضريح الشيخة زاهية ؟

أستدير عن باب الحديد ولهفتى الواثبة هى أن أركب ترمواى ٨ إلى شبرا .. سنوات الصبا والمراهقة وحرقة النظرات من ثنايا الخص القاهرى فى « حارة خليل على » .. ركبت محطة واحدة فقط عبرت بى الكوبرى ، فشهيتى وإفطارى الآن أن أمشى وأنهم من منظر آخر ساعة والباعة يوزعونها طبق إفطار .. شبرا لم تستيقظ بعد . أبدأ من جزيرة بدران ثم مزلقان السبتية ، إلى شارع ابن الرشيد ثم شارع مسرة .. سينما دوللى وباب الترسو .. مدرسة الاسماعيلية ، وعم زغلول بائع الكتب القديمة ، وعم محجوب مؤجر الكتب الجديدة .. أصدقائى وأحبائى بالعشرات من باعة الصحف والمجلات وأى ورق يقرأ .. حارة الدرمللى ، ومدرسة النيل وشارع الترعة البولاقية حتى العسال وشيكولانى ، مستشفى كيتشنر .. شارع العروسى ، ومدرستى الابتدائية .. ثم هذه الشرفة من شارع المحمودى وأول خفقة قلب من لقاء عين الريفى المنطفئ بوهج فتاة قاهرية .. ثم « قصر رفعت باشا » وزير الحربية – وابنه « حسين » الذى كان زميلى فى الابتدائية ، أخذنى إلى بيته ذات مرة ورأيت أخته ، تركية ناحلة بيضاء شقراء وعود ريحان .

أعود إلى بنسيون كنج فيليب بالفجالة ، بعد أن تعبت قدماى من ذرع المدينة طولا وعرضا .

......

« السفرجى زيتون » وفى يده آخر ساعة ، يقابلنى مبتهجا متهيجا ويصمم على تقبيلى .. « ومدام موريس » تشخط فيه أن يبتعد وتمسح بيديها فى حفاوة على جاكتتى ما قد يكون علق بها من مريلة زيتون .. تحتفى بى وكأننى عظيم من صنع يديها ومنه سوف تنتشر شهرة البنسيون .. وأنا ؟ .. أنا أتلعثم تعسا وحائرا وخجولا ، وهدفى أن

أهرب وأتوارى لأخلو لنفسى .. أتسلم من زيتون قائمة من سألوا وبحثوا عنى .. صلاح عبد الجيد .. ووديع شبلى ، ومنير فريد ، ومأمون ، وحسن ، ونجيب ، وهيكل عدة مرات ، وسعيد عبده طبعا ، ثم رشاد رمزى ، وعبد اللطيف ، وأميل ، ورمسيس . لا لن أرد على أحد ، ولن أتصل بسعيد أو هيكل .. سوف أغلق الحجرة على نفسى ، أحاول أن أحاصر هذا الطوفان من مشاعرى وأفكارى .. حسنا لقد وقع الحدث ، والخطوة القادمة فماذا بعد ، وترى هل هى فى يدى ؟ .. انطرحت على سرير كنج فليب استلمت صفحة السقف - وهات هائج سطورك يا خيالى وتعال نتناقش .

......

اليوم الثالث لى وأنا منكمش ومختبئ فى حجرة كنج فليب .. أحاول أن أجمع المتفجر من أفكارى وبعثرة مشاعرى - وأبدا لا قدرة لى على ضبطها وترويضها .. التليفونات كثيرة تطلبنى ، وقد صممت ألا أرد على هيكل أو سعيد بالذات - وحجتى المترددة أننى غير راض عن مباغتة هذا الغدر منهما .. لا نصيحة لى عندهما الآن بل انهما قد يقوداننى إلى هزل أكبر .. ولكن فجأة يدق التليفون بطريقة الترنك - و « لندن » تطلبنى على التليفون .. هرولت أسرع مستغربا ، فهل هو الميجور كول أم بياتريس ؟ .. ووجدت ضحكات « هيكل » وهو يقفشنى فأين أنا للمدلهات المغمى عليهن من حول عمارة بحرى يطلبن رؤية الدون جوان الخنشور .. المظاهرات والزوار فأين أنت لها يا أستاذ ؟ أغضبتنى نبرة السخرية من دعابته فشخطت فيه أن يتوقف وكفى بواخا من هزار سمج ثقيل لم أعد أطيقه ؟ .. واختطف سعيد السماعة منه وهو يطلق عالى الضحكات ، فهل أنا زعلان حقا كما يقول هيكل ؟ .. ومم الزعل يا أهبل وكل مصر قبلى وبحرى لا حديث لها هذا الأسبوع إلا عنك ؟ وقبل أن أبرز له حجتى من زعل التقدمة ، قاطعنى فهذا هو الوزير « عبد الحميد باشا

عبد الحق » جالس معنا فى آخر ساعة ويريد أن يتعرف عليك ؟ .. وجاءنى صوت الباشا الصعيدى ضحوكا مداعبا وهو يسألنى هل أنا صعيدى أو بحيرى ؟ .. قلت له إننى « جيزاوى » فقال : ملاك الهرم يا بختكم .. ثم تلطف معى شيقا بلهجته السوهاجية التى تنقشع معها الهيبة من أى باشوية أو وزارية ، وحكى كيف كاد أن يقع فى الخدعة من مى الصغيرة وكان على وشك إرسال خطاب تعيين لها لوظيفة مدير عام للاعلام فى الوزارة ؟ .. بادلته الضحك فكم هو باشا لطيف ، وعاد سعيد يستلم التليفون ليجدنى رحبا صافيا بلا انفعال ولا غضب .. عدنا نتضاحك .. عاتبته على تلك التقدمة التى ترقص بالصاجات فى سوق الغوازى ، فصرخ فى وجهى زاجرا ومفوقا أن أعيش عصرى وانفض عن نفسى أغطية الريفية والتحفظ فقد انقرض عصرها .. وقل ماذا تريد الآن لتنهى زعلك ، إذا كانت تقدمتى لك قد أغضبتك فتعال وقدم نفسك بنفسك ، وخذ صفحتين بل ثلاثا فى العدد القادم – وليس هذا تنازلا منا أو منحة فهو النزول على رغبة القراء والتليفونات التى لم تهدأ لحظة فى آخر ساعة وهى تسأل عنك وآخرها من التابعى الذى أمر بتعيينك وضمك من اليوم إلى أسرة آخر ساعة !

....

وفى الصباح .. فى مقهى بور فؤاد .. الركن الهادئ الرومانسى ، والمائدة الرخامية الشهية ، وفنجان القهوة الدسم ، وكوب الماء المثلج اللذيذ .. فرشت الورق وتعال أيها القلم الفونتين أجرب معك توقيعى الحقيقى لأول مرة .

أنهيت المقال .. لم أتردد فيه .. كتبته سهلا بطريقة خاطف الأقصوصة .. والأقصوصة فيه هى المشهد من ريفى يقع فى حفل « بال ما سكيه » وها هو يروى ما وقع بين يديه من غريب اللواذع والنوادر .. ثم جعلت الإهداء له فى برواز تحت العنوان .. « إلى الصديق سعيد عبده – سامحه الله – هذا الذى أجهض الجنين الذى لم

يكمل شهوره التسعة » !.. طويت المقال الطويل فى المظروف وكتبت العنوان باسم الدكتور سعيد ويسلم له شخصيا ويدًا بيد - وخوفى الشكاك المستريب أن يقع فى يد العابث هيكل .. ثم قمت وتمشيت إلى عمارة بحرى ، وفى صندوق بريدها بجوار الباب وضعت الظرف ثم استدرت - وقد هدأ انفعالى قاصدًا رستوران الريجنيت حيث كانت تنتظرنى الموناليزا العذبة عزيزة .

......

صباح الأحد فى الفجر .. تأخذنى عربة صديقى الودود « نجيب » إلى مطار ألماظة لنودع « مارى » وخطيبها المجند الأمريكى « جيفرى » فسوف تقلع بهما طائرة السادسة - وإلى الأبد وداعًا يا مصر .

فى يدى عدد آخر ساعة وبها المقال الجديد وسوف أقدم منه نسخة لمارى - أول الطبعة من مى الصغيرة - عربة نجيب تنهب الطريق ، وأعود أتصفح العدد ، فمع وداع مارى اليوم فأنا أودع أيضا مرحلة حارة من حياتى هى مى الصغيرة .. أول مقال عليه توقيعى .. العنوان له كبير ومبرز ، ولكن المبرز أكثر والذى يأخذ الوهج أكثر ، هو اسم الكاتب :. لهفة قراء آخر ساعة الآن أن يقرأوا لهذا الكاتب .. هذا هو الاسم ما نشيت وعريض لم يأخذ عشر سنوات أو عشرين أو حتى ثلاث - وعزيزى كريم ثابت فما رأيك الآن ؟

مارى واقفة وسط حلقة من أهلها فى صالة الانتظار .. أتهادى نحوها ومن خلفى طابور الوداع من هائل الذكريات .. لاجئة الحرب التى وضعتنى فى ميادين حروب ضارية شرسة على طول ثلاث سنوات .. تجربة الكى على الضلوع بنار الأنوثة .. عروس بحر النار التى أوشكت أن تغوص بى فى غور أوارها .. أقترب منها وبمجرد أن ترانى تطفر الدموع من عينيها .. تأخذها نوبة التأثر من لظى الوداع .. تمسك يدى وتضغطها فى عتاب لا ينسى له الحنين .

أودع مارى .. أسلمها عدد آخر ساعة الجديد .. والصفحة مفتوحة على المقال .. نهاية الرواية من فصل النشأة والعنوان له – ما أغرب المصادفة – يعطى المعنى والمغزى من هذه الراحلة الحارة – فقد كان يقول لها وللناس .

« وداعا يا مدموازيل » .. والتاريخ ٢٠ يوليو ٤٥ !

« العهد والقسم »

من يوميات القاهرة ٤٥

أغسطس والحر لافح والسماء غروب !

شبابيك شقة الدور الثانى من « عمارة بحرى بميدان الاسماعيلية » – التحرير الآن – مفتوحة بأضوائها على المصراعين ! .. يافطة النيون الملون . أزرق أخضر أحمر أصفر تضىء ، وتطفئ بشعلة الاسم لأشهر مجلة أسبوعية فى مصر . آخر ساعة ! .

أتهادى نحو بوابة العمارة فى بطء ورجفة ! .. رغم البدلة الجديدة والقميص المكوى والحذاء اللميع ومنديل الصدر المثلث والقلم الأبنوسى يلمع فى الجيب . فالشكل الأعماقى يعلن بالطبل والبوق أننى صبى فلاح كادح وحافى مشقق القدمين وبالجلابية الزرقاء الجرباء وبالفأس والمقطف على الكتف والظهر ! .

أمرق من البوابة ويدى مطوية فى حرص وعناية على خمس ورقات فلوسكاب مكتوبة بخط اليد . فيها أول باب صحفى لى سوف يظهر فى العدد القادم .. تركنى التابعى أختار نوع مادته وأسلوبه وعنوانه ! .. سوف أقدمه له بعد لحظات . ويا شدة ما أحس بالرعب والخوف والتردد وخطر السقوط ! .

التابعى - وكان قد قرأ مقال المفاجأة المدوى - كشف القناع عن مى الصغيرة - وهو فى مراتع موسم الصيف فى ربوع أوربا وكان قد سافر منها إلى فلسطين ليقضى أياما قبل أن يعود إلى مصر .. دق التليفون على نائبه فى المجلة سعيد عبده - من جناحه الفاخر بفندق الملك داود بتل أبيب . وسأل عنى ومن أكون ؟ .. ثم بعد أن سمع من سعيد أعطى أوامره بإلحاقى عضوا بأسرة المجلة بمرتب عشر جنيهات فى الشهر لأتبادل كتابة القصة القصيرة الأسبوعية مع نجمها المرموق « صلاح ذهنى » الذى تعين هو أيضا فى نفس اليوم وبنفس المرتب ! .

وعاد التابعى بعدها بأيام قليلة - وظل مقيما فى بيته بالزمالك يستقبل زواره وسماره المشتاقين والمحتفين قبل أن يظهر فى المجلة - وكان فى غيبته تلك قد قرأ لى أكثر من قصة من هذا النوع الذى أحدث ضجة ودهشة وفضولا فى دوائر القراءة والكتابة الصحفية ! .

....

هكذا أتهادى فى بطء ورجفة وفى يدى الورقات الخمس التى سوف. أقدمها بعد لحظات ! .. نعم بطء ورجفة وخوف الفشل فى الاختبار ! .. لقد تمكنت فنجحت فى امتحان الحيلة من اشهار نفسى ككاتب قصة قصيرة يطل من خلف قناع فتاة . وبقى أن أنجح فى امتحان المستقبل كله ككاتب صحفى يطل من حدقات عيون الجماهير .

أصعد السلالم كمن أتسلق هرما شاهقا ! .. الورقات الخمس ؟ .. الباب الصحفى الجديد ؟ .. يا ذعرى أن أفشل فى الاختبار . فكل فقراته جريئة متمردة منطلقة وذات كبرياء . تعطى ظهرها لجيل أرستقراطى قديم متهرئ لتعبر عن مشاعر جيل جديد عنيد صمم أن يقتحم بوابة النشر المغلقة على طبقيتها وغطرسة تقاليدها ! .. أنها تذكرنى بالعريضة المنفجرة التى رفعها المظاليم من « فقراء قرية

وردان » يشكون القهر والجوع والمذلة فى دائرة أملاك البرنس عمر طوسون مالك وحائز الـ ٩٩ ٪ من الأرض والزرع والبشر والمواشى فى قريتهم التى ولدوا بها ! .. تذكرنى بعدها بالنظرات الحمراء الشذراء على عساكر الهجانة السود وقد هجموا على القرية بالكرابيج والنعال وحوافر الخيول والبغال وطاحوا بعنف العقاب على البيت والأب والولد ! .. أبدا لا ننسى ! .. كيف ننسى ؟! .. تذكرنى بصراخات الهتاف الوطنى الغضوب فى مظاهرات التلمذة ضد الاستعمار والظلم والطبقية من الابتدائية إلى الثانوية إلى الجامعة . وكونستبلات الانجليز وعساكر الحكام بالرش والهراوات يحاصروننا فى مغلق الأزقة والحارات ! .. أنسى ؟ .. بالله كيف أنسى ! .

هكذا تلك الورقات الخمس فى رجفتى الآن هى أيضا محاولة تقديم عريضة احتجاج بل صرخات تمرد وثورة إلى المجتمع كله من صبى قرية وردان . وأيضا محاولة صراخ وهتاف من غلام المظاهرات ! .. الصبى والغلام الذى أصبح شابا وملك لأول مرة منبر الرأى والصوت العالى فى المجلة الأولى والكبرى مسقطة الحكومات ! .

....

أول أمس . استدعانى التابعى إلى غرفته المهيبة .. الباهر العملاق . جليس الملوك . مخيف الأحزاب والحكومات .. أجلسنى أمامه متوددا ومشتتا الهيبة .. شجع واستغرب حداثة أسلوبى .. شكر واستقصى عن منبع قصصى .. استلطف حيائى الريفى واندهش من قلة تجاربى . فمن أين جاءت إذن تلك القصص الواقعية الصاخبة ؟ .. حكيت له ما قدرت .. صارحته بما تمكنت .. ثم بعد تلك الجلسة عزمنى على بيته الأمبراطورى فى الزمالك .. على الكرفوازييه المعتق والسمان المشوى .. أجلسنى شغوفا بانبهارى وسط تلك الهالة المعلقة من صور معجباته ومغرماته الدوليات .. الكونتس لويزا والليدى مادونا والدوقة ايزابيلا والبرنسيس شاهنزارده والنبيلة حسن شاه ! .. ليلة مترعة

مدوخة .. ثم وهو يودعنى عند الأسانسير أخرج من جيبه ورقة عقد لمدة سنة بتعيينى كاتبا ومحررا فى آخر ساعة بمرتب ١٥ جنيها فى الشهر .

« ملحوظة » - بعد ثلاثة أشهر من تلك الليلة . فجر التابعى زلزالا فى البورصة الصحفية عندما أعلن أنه رفع عقد الكاتب الناشئ - الذى هو أنا - إلى ٤٠ جنيها فى الشهر . بأعلى مما يتقاضى كبار وعواجيز الكتاب ! .. خبر صحفى تناقلته وكالات الأنباء ورددته الصحف فى دهشة واستغراب ! » .

« ملحوظة أخرى بعد أربعة أشهر من تلك الليلة » - تلقيت دعوة لقاء عاجل وهام من صاحبى أخبار اليوم « مصطفى وعلى أمين » فى شقة الأسطح من شارع قصر النيل . وعندما ذهبت إليهما أغلقا باب حجرتهما وأنا معهما واتفقا معى على الانضمام إلى أخبار اليوم كمحرر رئيسى وكاتب متميز بمرتب ٧٠ جنيها فى الشهر ! .. وقبل أن أنطق بكلمة استدعيا مدير الإدارة الأستاذ عيد » ليقيد التحاقى ابتداء من اليوم ! .. وفى هذا اللقاء المدوخ المثير خجلت أن أرد بلا أو نعم . ولكننى بمجرد أن انصرفت من عندهما جلست على مائدة أول مقهى وكتبت لهما خطابا عاطفيا مشحونا بأشد الأسف والاعتذار - فلن يرضيهما طبعا أن تكون بداية مسيرتى الصحفية - هو نكران الجميل لأستاذنا التابعى !

قدم لى يومها عقد الـ ١٥ جنيها . والمطلوب منى « باب صحفى جديد » سياسى واجتماعى وفنى . ترك لى اختيار مادته وأسلوبه وعنوانه . وسوف يخصص له ابتداء من هذا الأسبوع الصفحة الثانية بعد الغلاف ! .

دخت . سعدت . تماسكت .. استعدته عن نوعية ما سوف أكتب فى هذا الباب ؟ .. فقال - أنت حر ! .. استعدته راجيا مرة أخرى فكرر

كلمة أنت حر . ثم عندما لاحظ حيرتى قال - لماذا لا تجرب أسلوبك القصصى الجديد فى النقد واللذع والتعليق على أحداث الأسبوع ! .

....

....

أنت حر .. أنت حر ..

خطواتى المسلوبة ترددها وأنا عائد إلى بنسيون كنج فيليب ! .

فى تلك الليلة التى طويت فيها عقد آخر ساعة ولحظة أن وضعته فى جيبى . شعرت باللمس والحس والاستنشاق من حواسى الخمس أننى أضيف جديدا على عضوياتى الحسية والجسدية .. عقدا جديا ملزما بأننى بت مندوبا مكلفا عن أهالى ومظاليم قرى وردان وبنى سلامه والخطاطبة وبرقاش وكفر أبو الحديد . لأنوب عنهم أمام بلاطات وصالونات وقصور ملوك وأمراء وباشوات وحكام وطغاة مدينة القاهرة .. وأن سلاحى لهم - أيها الكاتب أنت حر ! .

تلك الليلة . قبل أن أنام . وبعد أن خلعت ثيابى .. توضأت . تطهرت . ركعت . صليت . وبدأت لحظاتى التاريخية فى تربيعة تلك الجلسة .. التبتل والدعاء وأخذ العهد .. طلبت العفو والمغفرة عن أى انحراف مضى من تلاطم حياتى وعثرات شبابى ونزوات محاولاتى . فها أنا منذ اليوم متطهر وجاهز لحمل أمانة القلم ! .

فى تلك الجلسة التى أبدا لن يزول نقشها على أول صفحة من مجلد حياتى القلمية . وضعت الدستور الشخصى لحياتى ككاتب وصحفى وأديب ومفكر جهز نفسه ليكون المعبر عن أجيال عصره ! .. الكراسة المقدسة للصحفى والكاتب الناشئ الصغير ! .. عاشق بلاده ومندوب أهله ! .. خذ المسكن والوقفة دائما فى أجنحة الأغلبية فهى تحمل روح الله وإرادته ! .. الأغلبية وروحها هى لؤلؤة التاج فى مرصع مملكتى وما سواها غير رخص وخدم وعبيد ! .. كن جريئا مرفوع الرأس دائم الكبرياء لا تنكص ولا تهاب مادام درعك وحاميك هى تلك

الأغلبية ! .. حذار أن تطمع أو تخدع أو تخون فيادميم منظرك إذا جاملت أو حابيت أو نافقت أو تهربت ! .. يا رخيص شكلك إذا أغراك منصب أو منفع أو جاه ! .. كن مرفوع الرأس فى مهنتك فأنت بقلمك فارس فى حلبة بل سلطان فى مملكة ! .. لا تنزلق و لا تكن ذيلا أو دلدولا للحكام والرؤساء والمتسلطين وألا أحتقرك قلمك وورقك قبل أن تطل بهما على القراء ! ..أبعد علاقاتك ونزواتك وغرائز بشريتك عن مسرى قلمك ونقائه ! .. كن جديدا متفتحا على عصرك . مفيدا أو مضيفا ومضيئا ومجددا أو مرشدا للتابعين من أهلك ! .. هيا هيا يا جدد مصر نختطف بلادنا الجليلة العريقة من مستنقع الحرمان والذل والهوان ! .

و .. مسحت عرقى وبدأت الكتابة ! .

لا شىء .. وضعت أمامى جملة « أنت حر » وبدأت الكتابة على بصيص ضوئها .. أنفذ معها العهد والقسم .. تعليقات على أحداث الأسبوع الداخلية والخارجية .. والثوب والأسلوب لها زينة عصرية وجرأة مبتكرة وتحرر يختال برشاقة عوده .. فقرات قصيرة .. نحن فى عصر الساندوتش فلماذا لا أقدم فى الفترينة مادته الصحفية بطريقة التغذية الخاطفة والسريعة .. والإضافة بهارات وتوابل مصرية عريقة وحريفة لم يجرب القارئ مذاقها من قبل !! .. مثلا مثلا . ألغيت الألقاب فى الصفحة فليس فيها باشا أو بيه أو صاحب سمو أو صاحب مقام رفيع ! .. لا طبقية فيها ! .. التعرية الصريحة على الكروش الحزبية .. مطاردة العمالة والانتهازية والغلق والتزمت وضيق الأفق والتعصب والتضليل السياسى والخداع والختل الاجتماعى وممنوع ممنوع خداع القارئ ؟ .. أكبر الكبائر يا حملة الأقلام خداع القارئ ! .. المرح أيضا والدعابة ولذع المصارحة وفض الكبْت والحرمان ! .. لا مجاملة ولا تأدب مع الرقيع والوضيع والمخادع

والمنحل .. وكل الاقبال والتشجيع والطبل والتصفيق للوطنى الصادق والناصع والشريف ! .

....

....

هكذا أصعد السلالم لأسلم الباب الجديد فى رجفة ورهبة .. لقد نفذت توصية التابعى - أنت حر - فى مبالغة مفرطة باهظة .. ترى ماذا يكون وقعها ؟! .

دخلت إلى صالة التحرير .. مشحونة وصاخبة .. كلهم أصدقائى ومعارفى حتى قبل أن أنضم زميلا لهم فى آخر ساعة ! .. « أحمد حسن » . « أبو الخير نجيب » « فرج جبران » . ثم أخى الجديد وصديقى الحميم « الدكتور سعيد عبده » بضحكته الناحلة . ثم رفيقا العمر فى ذاك الزمان « صلاح عبد الجيد » سكرتير التحرير بلسانه المفلوت ومساعده « محمد حسنين هيكل » بمشيته الزاحفة المختالة كطائر البطريق .. ثم العجوز الأرمنى الأصلع الرائع رسام الكاريكاتير « صاروخان » بعينيه الغامزتين ! .

كانوا فى انتظارى مع تعليمات التابعى ! .. وبسرعة خطفوا منى ورقات المقال . ثم تجمعوا حول مكتب سعيد عبده الذى فرش الورقات أمامه . واتكأ صلاح على كتفه مستطلعا معه . أما هيكل فقد أخذ الانحناء قارئا من وراء ظهره ! .. أرعبنى منظرهم .. بدأوا القراءة والاستطلاع وسعيد عبده يرددها بصوت عال ! .. أغمض عينى وأتماسك بلهات أنفاسى .. وشعورى أننى أجتاز الاختبار الخطير . ولكنه ليس أهم اختبار فالأخطر والأرعب منه هو اختبار التابعى ! لم أتحمل انتظار رأيهم .. انتهزت فرصة انكبابهم وانصرفت متسللا ! .

....

....

لم أعد إلا ثانى يوم فى الفجر ! .

منذ تسللت عنهم لم أنم ولم تهدأ مشاعرى ولا لحظة ! .. أحضر مبكرا قبل وقت حضورهم .. ترى ما رأى سعيد وهيكل وصلاح ؟ .. ترى ماذا قال التابعى ؟ .. هل قرأ التابعى ؟ .. ما أدرانى أن يكون قد وضعها فى سلة الزبالة ! .

دخلت .. لمحت صاروخان وحده وريشته تمرح وتقفز على الورق الذى أمامه .. ألقيت عليه تحية الصباح مقتربا من مائدة الرسم .. ثم تسمرت عيناى على منظر ورقاتى الخمس مجموعة بأحرف المطبعة فى سلخات فسألته ما هذا ؟ .. فقال . موتيفات لصفحة حضرتك الجديدة ! .

اختطفت السلخات من أمامه . وعينى تجرى وراء ما يكون التابعى قد حذف أو شطب أو عدل من فقرات الباب . ويا رباه أبدا لا حذف ولا شطب ولا تعديل . ثم جحظت عيناى على العنوان المكتوب . وكنت قد تركته لاستشارة آخر لحظة .. ووجدته مكتوبا بخط سعيد عبده الذى أعرفه . وكان . « صواريخ » ! .

صواريخ ؟ .. صواريخ ؟! .. وقبل أن أتلفت لأفكر فى وقعه على أعماقى ومشاعرى المرتجة . ظهر سعيد عبده داخلا ليرمق منظرى وفى يدى السلخات .. قابلنى ضاحكا ومعانقا بحرارة .. وأبلغنى أن التابعى أعجب بالباب وأصدر أمرا بأن لا حرف يتغير مما كتبت أو سوف أكتب .. ولا أحد يتطفل بالتعديل أو التغيير فى الأسلوب .. وكيف أعطاه قرش صاغ مكافأة لأنه اكتشفنى لآخر ساعة ! .

قال هذا وكنت شاردا أردد فى تردد وحيرة عنوان صواريخ الذى اختاره . فقال إنه اقتبس العنوان من فقرة فى الباب كنت أعلق فيها على حدث الأسبوع الدولى . والذى هو إطلاق أول صاروخ أمريكى .. بداية دخول البشر إلى عصر الصواريخ ! .

الفهرس

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٨٨ / ٣٥٦٣
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٤٧٨-٢	ISBN

٢ / ٨٧ / ٦٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

فلاح ..

فلاح بكل طيبة قلب الفلاح وقناعته وفرحته بحصاد الموسم يكفيه إيراده لكل العام ..

فلاح له جذور عديدة تمتد إلى أعماق القرية وأعماق تاريخ مينا وخوفو ورمسيس وكل الفراعنة الذين كانوا يسيرون شامخى الرأس تحف بهم وتحيطهم الرعية ..

فلاح له كل مواصفات الفلاح المصرى من طيبة وعناد وبساطة وقوة ، وقناعة بالقليل ، وتمسك بكل ما يؤمن به لايمكن أن يتنازل أو يتخلى عنه مهما كانت المتاعب أو الأهوال .

ولهذا ليس غريبا أن يكون عنوانه لهذا الكتاب هو « فلاح فى بلاط صاحبة الجلالة » .

إنه ليس كتابا فى التاريخ ، ولكنه حافل بصفحات وأسرار التاريخ .

ليس كتابا فى السياسة ، ولكنك تعيش فيه السياسة .

ليس كتابا فى الوطنية ولكنك تتعلم منه الوطنية .

إنه مجموعة صور من سنوات الأربعينات .

هذه السنوات التى فى رحم أحداثها نمت بذور الثورة التى غيرت وجه مصر ..

وفى كتابات إبراهيم الوردانى خلال هذه السنين تعلم كثيرون جمال وحلاوة الكتابة ..

ولكن هاهى الأيام تجرى والتلميذ يقدم كتاب الأستاذ .

تفضل يا أستاذ ..

يا ناظر أول مدرسة تعلمت فيها كيف أمسك القلم .

صلاح منتصر

٥ جنيهات